
علاء حامد
مسافة
في
عقل رجل

مسافة
في
عقل رجل

علاء حامد

الاهـــداء

لكل من احبني واحببته ...

ما اتمنـــاه ان لا يتحـول هذا الحب الى غضـــب ! !

فما كتبتـــه ليس ســوى قصـــة امتـزج فيهـــا فيض

الخيــال بنبض الفكـــر . . . .

علاء حامـــد

تقـــــديم

من انــا .... ؟ !

اسم فى قوائم المنتظرين .. مســلم بالميراث .. لو ولدت من صلب ملحد لأصــبحت مثله .. فلا اختيار للانســـان فى مولده ولا فى دينه .. قد يكون ابوه من اســافل القوم أو اعاليها وقد تكون امه عاهر او فاضــله .. وقد يولد لأب مجوسى وأم هندوســية .. أمور كلها لا اختيار له فيهــا .. تماما كالتصاق الصــفات الوراثية بالجنين والتى لا يد له فيها .. فالانسان لا يختار عقيدته وقت ولادته ليس لانعدام الاختيار لديه .. بل لانتقاصــه ذلك أنه فى لحظة ولادته لم تكن وســائل الاختيار لديه قد اكتملت .. من ادراك ومعرفة وحتى بعد أن يصل الانسان لمرحلة الادراك والمعرفة والتمييز نادرا ما يفكر فى تغيير عقيدته ذلك لأنه حتى نكفل له مثل هذا الحق لابد أن تكون البدائل لديه مفهومة ومعروفة يستطيع من خلالها أن يوازن بين الأمور لينحاز فى النهاية لأى من العقائد .. وهذا نادرا ما يحدث .. ثم لماذا يغير الانسان عقيدته وقد فقد اهتمامه بالدين كمنهاج فى الحياة ؟ ..

ان الأديان بدأت تتقلص تقلصــا سريعا عن كثير من البلدان حتى أنه لم يعد يدين بالأديان ســوى ثلث سكان العالم .. أى أن ثلثى سكان العالم حسب أحدث نظرية فقهية عن النار مالهم جهنم خالدين فيها ابدا ! ..

وحتى فى مساحة الثلث الضيقة لم يتبق من الدين فى غالب الأحــوال سوى ملء فراغ كلمة الديانة بالبطاقة أو جواز السفر .. وهذا ما حدا بكثير من العقلانيين التساؤل عن جدوى الأديان .. خاصــــة وقد سنت القوانين لحماية نواهى حرمتها الأديان ففى انجلترا نص قانون يبيح زواج الرجل من رجل .. بل ويكفل لهما الحقوق المترتبة على مثل هذا الزواج . وهو واحد من المعاصى التى اجمعت الأديان على تحريمها .. واباحة المعاشرة الرضائية بين رجل وامرأة بالغين والذى تعتبره الأديان زنا وفســـق وفجور وتعاقب

عليه بالقتل والرجم .. هذا الفســـق والفجــور تحميه الآن معظم الشرائع الوضعية .. بل وتحتضن فكرته كثير من المجتمعات دون أدنى حرج والفائدة احدى دعامات غالبية النظم الاقتصـــادية تعتبرها الأديان ربا وربا فاحش وما يقال عن الفائدة ينطبق على الخمور فدول كثيرة تعلو عمائرها بيوت الله تقيم مصانع لانتاج وتعبئة وتوزيع الخمور .. والمواخير البشرية والمواخير السياســية ومعاقرة الفساد والانســـاد والثراء الفاحش الذى يقابله الفقر المدقع .. والظلم المتنن .. والســـفالات التى أصبحت ســـمة من ســـمات الشرقيين .. هذا ما يدعمنا للتساؤل .

ما جدوى الأديان وقد شـــدت الشرق الى أحضـــان التخلف .. بينما ارتفعت هامة شعوب لا تؤمن بالاديان لقمة الحضارة .. فهل يعنى ذلك أن الدين لم يعـــد منارا للحضـــارة وان غيـــابه لا يعنى بالضرورة انهيـــار الاخلاقيـــات .. ؟ !

هل يعنى ذلك أنه يمكن الفصـــل بين الأخلاقيات والدين لذلك ونتيجة لهذا نرى شـــعوبا هجرت الاديان يتســـمون بالاخلاقيات .. وشعوبا تدمن الاديان بلا اخلاقيـــات .. وانقلب الحال فأصـــبح الدين ســـبة فى تواريخ الشـــعوب !! هل يعنى ذلك أنه يجب وضع الدين فى اطاره الصـــحيح وهو علاقة الانسان بربه فقط دون المعاملات الانسانية لأن الأديان لم تعد تصلح كمنهاج فى الحياة بعد ان حرمت فى كثير من نصوصها أحاسيس المجتمعات نبضـــها عندما قضـــت بتحريم ممارســـة الفنون من رسم ونحت وتمثيل ورقص وغناء وموسيقى .. نأخذ من أحكامها ما يتسق والعصر .. ونرفض ما يخالف ذلك حتى ولو أدى الأمر بنا أن نرفضها جميعا !!

كل هذا من خلال سؤال .. اذا كانت أحكام الاديان تصلح لكل مكان وزمان فلماذا احجمت معظم المجتمعات عن الأخذ بها .. هـــل لغباء المشرع وقلة درايته أم لحكمته وحنكته ؟! لذلك فعندما يلح المتشـــككون عن الجدوى الانسانيـــة لتلك الأديان .. عندما يلحون فى طلب الأجابة عن تساؤلهم .. ما جدوى الاديان وقد قننت كثير من البلدان المتعصبة لدينها قوانين وضعية

تخالف اســـاس العقيدة ؟! .

مثل هذا الالحاح لا يســـعنا اهماله بل يجب التصـــدى له فى محاولة عقلانية للحصول على اجابة مقنعة .. وهذا ما يجعلنا نتساءل ما هو الدين هل هو طريقة فى الحياة نؤمن بها ولا بديل فالبديل هوة سحيقة تهوى اليها الانسانيـــة ام عـــلاقة بين الانســـان وربه تحكمها أعتبارات ذاتية فى اوربا أصـــبح الدين مجرد علاقة خاصـــة بين الانسان وربة .. تقلص الدين بعد معارك جدلية شرسة وانحسرت امواجة عن قواقع ميتة لا نسمع فيها سوى دقات اجراس الكنائس أيام الآحاد ولا نرى منها ســـوى شرذمة من العجزة ترتادها تنصت لموعظة بلا اقتناع ولا اقتناع .. هناك فى هذه البلاد المتحضرة اصبحت الاديان مجرد علاقة خاصة جدا بين الانســان وربة .. هذا اذا كانت موجودة أصلا .. وبالتالى اصبحت مجرد اطار .. شكل .. كلمة تكتب فى البطاقة اما اسلوب الحياة فمنفصـل تماما يحدده المجتمع من خلال اعتبارات اخرى يستوحيها من أسباب الحضـارة .

اما فى البـــلاد الشرقية فقد حـــدث هرج ومرج .. خلط ومزج .. والمضــــمون مبعثر .. هائم .. غامض يتعذر على العقول رؤيته من خـــلال غبار معركة فرسان الوهم .. لكن ما أدمنه الناس خلط بين مذهبين اسلوب فى الحياة .. وعلاقة بين الانسان وربة ..

وبالنسبة لاسيادنا المعممين اخوان شـــمهورش أصـــبح الدين فى حد ذاته هدفا يجنون من ورائه ثمرات المال والشـــهرة والســـلطة ومتع الدنيا ما ظهر منها وما بطن .. من أجله يعفرون الجباه .. يلطمون الخـــدود .. يشـــقون الجيـــوب .. بالقطع جيوب الفقراء !! وفى المقابل بلاد أخـــرى لا تعرف حتى معنى كلمة الله . وهذا ما يدفعنا للتســـاؤل هل الأديان شرعت من أجل الانسان .. أم ان الانسان خلق من أجل تطبيق شرائعها عليه .. بمعنى آخر هل فكرة الأديان سابقة على وجـــود الانســـان .. ازلية .. أبدية .. ومن ثم فقد وجد الانسان لينفذها .. بحيث تصبح هذه الاديان

سبب خلقه أم ان وجود الانسان سابق حتى على فكرة الاديان .. صيغة سنها الله لتحقيق سعادة البشر .. بعبارة أخرى هل نحن خلقنا من أجل الدين أم ان الدين شرع من أجلنا .. بحيث يصبح الدين فى الحالة الأولى غاية ونحن الوسيلة .. وفى الثانية الدين وسيلتنا لتحقيق السعادة !! .

يرتبط بهذا تساؤل آخر .. لماذا تعددت الاديان والرسالات .. اذا كان الدين سابقا على وجود الانسان .. فهل كانت له صيغة واحدة آلهية تناولها البشر بالتحويل والتغيير فوصلت الينا كما هى الآن .. أم أن تلك الرسالات ليست سوى صيغ بشرية آمن بها أصحابها ثم تداولوها بدعوى انها آلهية ؟؟ وبالتالى يصبح منطقيا اختلافها باختلاف الداعين لها .. وعلى هذا فتصبح صلة الرسل بالله صلة افتراضية لا تدعمها حقيقة ولا يسندها برهان .. بمعنى آخر هل الاديان بنيت على اعتقاد الرسل الصادق بوجود صلة بينهم وبين الله مباشرة من خلال بعض احداث مرت بهم .. قد تكون قد مرت على غيرهم دون أن يعطيها هذه الدلالة .. اعتقدوا من خلالها ان الله قد اختارهم لحمل الرسالة ؟ .

امور كثيرة اختلفت فيها الرسالات اختلافا بينا فى أساس العقيدة وفى الأحكام .. حتى انه يمكن القول أن كل رسالة تنهج نهجا مختلفا عن الأخرى وآخرون يشككون فى كل هذه الرسالات ..

من هنا يقفز الى الساحة سؤالا خطيرا .. اين هى الحقيقة ؟ واين هو الصواب ؟ وما هو الحق ؟ وما هو الباطل ؟! عقيدة ترتبط بفكرة الخلاص والزهد والتثليث والاخرى ترتبط بفكرة الجنة التى شغف الناس بالاستشهاد من أجلها والنار التى وقودها الناس والحجارة .. والتى سيطرت ملحمتها فى العصور المتقدمة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس وتعاملاتهم اليومية وانبثق منها اقتناعهم بالبعد من المعاصى .. واصبحت المحور الرئيسى للمحظور والمباح .. ثم انحسر موجها بعد أن فقدت فلسفة الترغيب والترهيب والتى كان لها مفعول السحر فى تلك العصور المتقدمة . ذلك أنه اذا كان منطقيا ترغيب الأعرابى المتعطش للمال والجنس والطعام بالجنة التى تجرى من حولها وفوقها وتحتها الانهار !! بقطوفها الدانية

ونسائهـا حور العين وخمرها المعتقـة .. لم تعد تلك الأمور تهز وجدان الانسان العصرى .. أو تجتذب حتى الانسـان العادى ليفعل الخير او ينتهى عن الشر .. لم يعد كافيا لشحذ ايمانه الوعد بالجنة أو الاخافة من النار .. لأن تلك الجنة لم تعد تغريه ولا النار ترتعد منها فرائصه .. انما أصـبح الحديث عن أى منهما فى احدى دور العبادة .. ومضة برق سرعان ما تختفى وسط شواغل الانسـان اليومية ..

لم يعد هذا مقنعا فى عصر أصبح العقل فيه سيد الموقف لذلك لم يتبقى أمام اقتناع الانسان سوى طريق واحد .. وعد فى جنة أرضية واقعية يقتطف ثمارها وهو حى يرزق .. واحة سـلام يجد فيها متعه الحسـية والعقلية والعاطفية .. يعثر فيها على سـلام نفسه المفقود .. يجد ذاته من خـلال البحث المضنى .. يرمى بأثقال الحياة التى تقيد حركة عقله وفكره .. جنة يجد فيها الحب والمرح والسـعادة جنة لا يؤله فيها المادة بل تصـبح اداته لتحقيق امانيه .. عالم تتعايش فية كافة العقائد .. ترفرف عليها أعـلام المساواة .. من خلال هدف ملموس يحققه الأنسان .. لهذا لم يعد مقنعا ان نحرم فعل دون ان نسـوق أدلة تحريمه .. لم يعد كافيا ان تكـون حجة التحريم العبارة المأثورة « هـذه مشـيئة الله » لأنه حتى ولو كانت كذلك فلابد لها من تبرير مقنع والا وضع كأى اجتهاد شخصى ينقصـه الدليل فى جعبة الخرافات .. بئس المنافقـون .. بئس المخادعـون الذين يترنمون بشـكل الاديان دون جوهرها .. يتلفظون فقط دون كلمات الحق والعدل والمساواة نعقلها .. نسـجد لمعناها .. نتعبد فى محراب حروفها المتوهجة بالخير نطوف بعقولنا حول فلسـفتها النابعة من سراج المعرفة من خـلال الاختيار ..

لقد باتت اخلاقيات العصر عامة والشرق خاصـة فى حاجة الى مراجعة شاملة .. الى تقييم جديد يضع الأمور فى نصـابها .. نقوم بموجبه هـذا التقييم الى اعادة تبويب العلاقات الأنسـانية .. الحرام والحلال .. الخطأ والصـواب .. تبويب يتأسس على علاقة الضرر .. لا على ما توارثناه من

تركة مثقلة بالتهويمات والخرافات والخزعبلات .. ننقيها من شوائبها .. ونمسح عنها صدئها ..

لكنى اتساءل ودعونى اتساءل لم وضــع الأنسان فى لغز احكم سره استحالت رموزه أمام عقولنا القاصرة .. لا تستوعب منها سببا مقنعا لبدء الحياة .. كيف الأنسان ولماذ خلق .. وكيف خلق ؟ ؟

ثم ملذا نحن ؟ !

هل نحن صــورة مهزوزة لعالم آخر .. صــورة تليفزيونية أبطالها الحقيقيون يعيشون فى مكان آخر فى زمن آخر .. أم نحن نمثل أدوارا أرادها لنا مؤلف بارع يحرك الكاميرا لنظهر على الشاشــة .. شاشــة الحياة فى ادوار مرسومة صورا متعاقبة .. متوائمة متنافرة .. وبالتالى لسنا سوى مجمـوعة من الممثلين منا الفقير .. والأمير .. والحقير والصــعلوك .. وابن الزانيــة نمثل الدور كما رســم لنا فاذا خرجنا عن النص زعق المؤلف وضرب الأرض بقدمه فتزلزل الأرض ويخــرج الجحيم من البراكين أو تنهمر الســيول وتقــوم القيــامة أم أننا الحقيقة فى تجوالنا .. نقاشــنا .. حركتنــا .. عملنــا .. تمثيلنا .. حبنــا .. كرمنــا .. حســدنا .. سعادتنا .. نحن الحقيقة .. وما عداها هو الوهم .. نحن الحقيقة .. والحقيقة نحن .. وطالما أن الله حقيقة .. فلسنا ســوى الله الأمطار دموعه والريح زفرته .. والغضب براكينه .. والعلم عقله .. والانسان وسيلته .. والسلطان رغبته .. والكون سلوته ..

واذا كان الله والانســان واحد لا يتجزء .. فلماذا يعجز الأنســان عن المعرفة الكلية .. ؟ !

لمــاذا يتوالد الناس كالبهائم .. يحركهم الجنس يتقاطرون حــوله كسل الذباب فى رغبة محمومة متجددة .. لا يختلف فيها صعلوك أو أمير .. الكل عرايا أمام دوافعــه الخفية ؟ !

لماذا يتعايش الناس وقد تغلغل المال وشهوة الســلطة داخل سراديب

حياتهم تنبذ الابن ابية .. والأخ أخيه .. والأم وليدها ؟! ..

لماذا خلقنا أجنة .. فأطفال فشباب فكهول مثلنا مثل الحيوان والنبات والحشرات ينسج التطور قانونه المحكم على كل صغيرة في حياة الأحياء .. مرحلة تلو مرحلة لتعود من جديد الى نفس المرحلة .. نقطة البداية ؟! ..

من اين جئنا والى أين ننتهي ؟! سؤال خالد من شقين جئنا من الفرج وقبله كنا في الرحم .. حلنا كالسابقين واللاحقين .. حضانة تحتضن الحيوان المنوى حتى ينمو .. رحم مظلم .. ومنفذ الى حيث يخطو الى عالم أرحب .. ولكن أول الحلقة .. نقطة البداية في سلسلة الحياة ..

ماذا كان الانسان .. كيف خلق ؟! لقد عجزت الأديان عن تفسير علمي مقنع لتلك الاسئلة الخالدة .. واذابت العقل الانساني في محلول حمضي مركز من الخرافات .. محولته الى ذرات هلامية قانونها الفوضى .. وحركتها العجز .. أين هي الحقيقة .. هل هي نسبية .. تختلف باختلاف عقل من يلمسها فهي وهم لدى البعض وحقيقة ثابتة لدى الآخرين ؟!

في عصور سابقة كانت الخرافات حقائق يلمسها العقل .. ومازال الكثير منها لدى نفر غير قليل .. يقين .. ويقين .. ويقين ..

الحقيقة هي ما يلمسه العقل .. ولكن أى عقل ؟ عقل الأمس الذى يضرب في أطناب الجهالة أم عقل لعالم أم عقل الفيلسوف ام عقل الكاتب أين هي اذن وقد شوهتها النسبية ؟! ..

او ليس من حقنا أن نسأل ونحن نصعد للقمر ونحن نصهر الخرافات لنقذف بها في بالوعات التاريخ القذرة .. ونحن نبحث ونستقصى .. ونحن نحمن العادات .. وقد تملكتنا رغبات محمومة في المال .. في المرأة .. في السلطان .. اليس من حقنا أن نسأل عن الرسل .. ما هم .. ما هي هويتهم .

ثم لماذا الانسان يفكر .. عالم وكاتب .. يبحث عن الحقيقة ويستقصي .. يستخلص نتائج يكون نظريات يذهل المجتمعات باختراعاته

التي قد لا يفيد منها بقدر ما يفيد البشرية .. ومع ذلك فهو في الدرب يسير .. لا يوهن من عزيمته فقر مدقع .. ولا ارهاب فكرى .. ولا أربع جدران صماء .. ظلماء تحتوى جسده ..

لماذا يفرض على العقل محظورات للفكر .. لا يجوز ولا يجب الأقتراب منها بل يعتبر ملحدا ذلك الذى يفكر بصوت عال مسموعا كان أو مكتوبا .. مآله النار خلدا فيهما ابدا .. مع ان الشك مرحلة من مراحل مخاض الوصول الى الحقيقة ..

لم يستكثر على الانسان أن يعلن شكوكه .. مع أن الشك رفيق كل مفكر وهو يفكر فى ماضيه وحاضره .. مستقبله .. رفيق كل مبدع وهو يحاول أن يروى بذور ابداعه بالعلم والمعرفة ..

لماذا يقف كثير من الوعاظ .. يتقايئون النفايات .. احاديث عفى عليها الزمن سطور بلهاء من الكتب الصفراء .. عن الجن .. والعفاريت والأرض التى يحملها قرنى ثور .. والاكاذيب .. والخرافات .. كفاياكم .. كفاياكم فقد زهدنا الخزعبلات التى يشتم منها رائحة العفان .. ولا يرى الفكر من خلالها سوى القتامة والاظلام ..

الانسان الآن يريد بعثا جديدا يعتمد على أغلى مافى راسه .. العقل البشرى .. بعثا ينفض عن كاهله النزهات .. الأكاذيب .. بعثا جديدا يخطو بخطوات ثابتة على أرض العلم والمنطق يحرص فيه على الحقائق المجردة وسيلته فى ذلك النقاش الهادىء والمحاورة المثمرة التى انحسرت موجة مثالياتها عن وجه الشر القبيح ..

بعثا جديدا يفسر لنا ما استعصى على العقل فهمه .. حقيقة الجنة والنار .. البعث والقيامة .. الملائكة والشياطين .. الجن الازرق والاحمر !! بعثا يفسر لنا هذه الحياة .. سرها .. وسيلة الانسان ليحيا فيها محققا هدفه .. بعثا يصور لنا حقائق الحياة مجردة بعثا يضع الانسان

على اول الطريق بعد أن تاه وسط زحام مشاغل الحياة اليومية بحثا يحد بجنة على الأرض لا فى السماء يقطف ثمارها الأنسان وهو حى يرزق ..

بحثا يترك لكل انسان عقيدته دون تدخل من الدولة أو تعصب من الأفراد ..

بحثا يتعامل مع حقائق الحياة ويطوعها لخدمة الانسان ..

بحثا يضع الديانات فى مكانها الصحيح علاقة بين الانسان وربه .. والمعاملات علاقة بين أفراد المجتمع ..

انها محاولة منى لفهم الحقيقة .. التى عجزت عنها بنكرى المحدود استعنت فيها بمصباح غمرنى بضوء معرفته .. وأخذ بيدى من بيداء الجهل الى واحة من المعرفة لا حدود لها ظللت ارتشف من نبعها ثمان سنوات .. ثمان سنوات وأنا عاكف أدون كتابى .. ثمان سنوات من القلق .. والتردد والمعاناة والحيرة .. والصراع مع النفس ومع فكر الآخرين ..

ثمان سنوات سهرت فيها الليالى ارعى البذرة أرويها بالجهد والعرق والدموع واليقين .. حتى انبتت ١٩٨٠ النبت تلك الرواية التى اضعها بين يدى القارىء ..

- ١ -

من أنـــا ؟!

افقت من غيبوبة خلتها دهرا .. حاولت النهــوض .. انكفأت .. ومن يحتــوى جســـدى ريقى جاف .. مرارة فى حلقى .. شــعرى مغبر بالرمال .. أمامى الارض شاسعة .. غريب أمر هذه الارض .. الحشائش الخضراء .. والاشــجار الباســقة والجــداول .. اين أنا .. حاولت أن أتذكر ..

بصــــيص من نــور يأتينى .. ثم يغيب فى كهف النســيان آخــر ماتذكرته .. تلك المركبة التى كنت استقلها لكن لماذا أنا هنا ؟!

شطة الحقيقة يطفئها المجهــول الجاثم أمام نافذة عقلى وأنا أســير بلا هــدى .. الناس ينظــرون الى باهمال .. بعــدم اكتراث .. عيونهم تستطلعنى .. يتهامسون .. همساتهم تعانق الغموض والشــك واحدهم يتقدم نحوى .. انسان غريب .. جسده جســد ثور فى حلبة .. ضــفائر شعره تصل الى ركبتيه .. ملامح وجهه جامدة .. لا غضب يكللها ولا بسمة تشرقها اقترب منى .. واجهنى .. مارأيت ابشــع منه صــورة .. عينان كثقبى ابرة .. يظللهما حاجبان كثان .. فم كالمحيط اذنان مفرطحــان .. اذنى فيــل .. ازداد اقترابا منى .. التصــقا .. بــدأ يلمســـنى .. يتحسسنى كأنه يتحسس صدر عذراء ذعرت .. لحظات وانا احاول الابتعاد عنه .. الا أنه صفعنى بقسوة .. مادت بى الارض .. صــدمت وقبل أن استفيق من الصدمة مد يده مرحبا .. للحظات ظللت فى مكانى لا ابرحه .. مشــدوها .. فكرى فى موات .. اعجــز عن اجابة واحــدة لما خالجنى من اسئلة .. لماذا صــفعنى لماذا امتدت يده الى مصــافحا .. لماذا اســتدار

مبتعدا عنى .. ثم ماهذه الكائنات الغريبـــة الأخـــرى التى تروح وتجيء امامى .. لماذا اتيت هنا ؟! ماهذا الرداء الغريب الممزق الذى يدثر جسدى ؟! كيف جئت الى هذا المكان ؟! وكيف العودة ؟! العودة الى ماذا ؟! من أين اتيت اسئلة باتت حائرة .. لا تجد اجابة شـــافية .. اصابنى اليأس والاحباط وانا أفكر ان اقضى حياتى مسجونا مع هذه المخلوقات البشـــعة .. عقلى فى خـــواء فكرى فى غيبوبة .. وانا احاول المرة تلو الأخـــرى ان أذكر شـــيئا واحـــدا .. أعرف به ذلك المخلوق الهائم على وجهـــه .. لا يدرى من أمر ماضيه شيئا .. ولا من غده .. ولا من حاضره .. من أنا ..

صرخت .. صرخة لم تخرج من حلقى .. ولكنها ايقظت الهوام .. احيت الموات .. جرس يدق .. ويدق تحمـــل دقاته نذر الخطر .. ولكننى لا أسمع منها شيئا .. مجرد صدى .. صدى آت من أغوار محيط .. تموت ذبذباته فوق صفحة الامواج . من أنا .. رددتها مرة واثنتين وثلاث .. وفى كل مرة تذوب الكلمات داخل طيات الهواء دون ان اسمع حتى صداها ..

واصلت مســـيرتى .. حل بى التعب .. ارحت جســـدى الكليل .. تحت شـــجرة وارفه .. عامرة بالثمار .. مددت يدى الى احدى الثمار .. تقدم نحوى رجل قوى البنية . حاسم النبرات نهرنى :

ــ لا تقرب المعصـــية

ســـألته فى دهشـــة :

ــ المعصية أن اطعم من جوع .

ــ بل المعصية أن تاكل من شجرة التفاح التى حرم الله على آدم .. الاقتراب منها .

ــ لكننى جائع .. وليس بعد الجوع شىء .

ــ أمام عينيك حديقـــة عامرة بكل انـــواع الفواكه .. اقطف منها ما شـــئت .

ــ وليس معى فلسا واحدا .. كيف ؟

ــ بلا مقابل .

سألته في دهشـــة :

ــ قلت بلا مقابل .

حثني بقــوله :

ــ اذهب قبل ان تغلق الحديقة أبوابها .

وقبل ان اخطو تجاه الحديقة ســألني :

ــ لكن من أنت ؟

ترددت في الافصــاح .. فانا لا أعرف من انا .. لكنني اجبته :

ــ زائــر .

قال لي مترددا :

ــ زائر للجنة .. يامرحبا .

الجنــة .. اخيرا الجنة التي انكرها الملحدون .. والهمت الشــعراء وشـــغف الانبياء بالحديث عنهــا .. واقبــع تحت قدمي .. ادوس فــوق ترابها .. انحنيت ملأت قبضة يدي بحفنة .. لم تكن سوى تبر ..

أيام وأنا ألتحف السماء .. لا أعرف لنفس غاية ولا لبقائي سببا حتى رأيتها تسألني فتاة في ريعة الصبا .. يعانق صفحة وجهها اريج جمال فاتن « وما نهاية مطافك » تمعنتها .. قوة هائلة تجذبني نحوها .. طاقة خفية تصلني لأعماقها .. انتفضت زاعقة :

« ما بالك .. تخيفني بنظراتك .. من أنت » ؟ ؟

غمرتني نشــوة .. لقــد اســتطعت احتوائهــا بطاقتي الهائلة .. تملكني احســاس بالقــوة .. بالســـطوة .. للحظات قصــار كانت الفتاة اشبه بحفنة من ماء لا تملك قدرها .. لكن سؤالها هز يقيني .. من انا .. طنين يدوي داخلي لا أعرف بدايته .. ولكن نهايته داخل عقلي .. أصــوات غريبة .. متنافرة .. متباعــدة .. حزمة ضــوء تتفرق .. تتباعد .. تحدث دوي داخلي .. أشـمة هائلة تحتويني .. تضــمني اليها

لا ادرى كنهها .. كلمة الله .. صراخ الملائكة .. وسوسة الشيطان .. قوى خفية فى صراع .. تصارع .. لست سوى حلبه لهذا الصراع الهائل .. الاجابة عاجزة كسيحة لا تستطيع النهوض من عثرتها .. صماء .. بكماء .. فأنا هذه لا أعرفها .. احسست بخدر ونصائل من النمل المتوحش تزحف داخل عقلى المكدود تنهشه والصوت من جديد .. قرعات جرس .. يحثنى يدفعنى الى الافصاح عما بداخلى .. لماذا الصمت عن الحقيقة .. لماذا تخفيها .. الصوت سكين يقطع وينثر اشلائى .. قل لها .. افصح عن حقيقتك .. فلست سوى هو ..

صراع هائل .. راسى تنفجر .. قوى خفية تضمنى اليها بقسوة .. رحت فى شبه غيبوبة وصرخة الفتاة تصلنى .. صدى لصوت البركان الذى يقذف بحممه داخلى ..

— الم بك مكروه .

قلت لها بحسم :

— دعينى وشأنى .

مستها كلماتى مس الجن .. لملمت نفسها اسرعت مبتعدة .

من أنا ؟! من هو هذا الانسان الذى يقطن جسدى .. لا يعرف ماضيه .. يجهل مستقبله صحراء جرداء خلت من النبت والماء كم اريد ان انسى .. انسى ماذا .. لا ادرى صفحة بيضاء تحيطها غيوم شكوكى .. مرمق ساقاى كليلتان .. اريد ان ازعق .. افعل اى شىء .. يثبت وجودى .. ينشلنى من الوحدة .. من الضياع .. الصوت ياتينى .. قويا .. أجراس تطن فى أذنى ! ويضيع تساؤلى ..

— ولكن من انا ..

قهقهة غريبة .. ساخرة يعقبها صوت اغرب :

— قم يارجل .. لا يشغلنك من انت .

تملكتنى رعشة .. رعشات .. خيالات تعصف بى .. وأنا أضغط

واضغط على راسي اضمها بين ركبتي .. والضحكات تتوالى عقلي ينصهر في بوتقة الشـك .. خيـالات .. أوهام ٠٠ ما اسـمعه ضـحكات ولكنهـا اشـبه بمسـامير محميـة تنغرز في عقلي .. تحـوله الى شـظايا .. رقائق يحتويها الألم .. للعـذاب ٠٠ للصراع بين الحقيقـة والوهم .. ماهذا الذي اسـمعه هل حقا صـوت الاله .. أم صرخات الشياطين .. اى شـياطين .. واى اله والصـوت من جديد ٠٠ لا اعرف كنهه .. لا اميز نبراته .. ولكنه يأتيني من مغارة من جب ٠٠ من السماء ٠٠ من اعماق محيط :

ــ أنت الناس والناس أنت .

لحظات قاسية تمر بي .. لحظة انشقاق الفجر من الاظلام .. الوليد من الأرحام .. لحظـة يتحول فيها الكـون الى كتلة من الرماد يدفن فيـه ملايين البشر .

ــ لا .. لا .. وهم ٠٠ وهم .



على جانب الطريق رأيت رجلا؟؟ يقيد نفسـة بجذع شـجرة .. اتجهت اليه .. فككت عنه الحبل .. عاد وقيد نفسه من جديد ٠٠ نظر الى شذرا .. وانا اسأله :

ــ لمـاذا ؟ !

عدت أجول الطريق .. فتاة في ريعان الصـبا في يدها مسـمار حاد تغز به ثدياها .. تصرخ الما .. اقتربت منها ٠٠ حاولت منعهـا ٠٠ دفعتني بقسـوة ٠٠ صرخت :

ــ اغرب عني ايها البشـع .

هرولت بخطـواتي الى الطريق احاول .. أن اجد اجابة لسـؤالي الحاضر .. هل هـذه هي الجنة .. سـخرت من نفسي ٠٠ لمجرد أن عقلي طرح هذا الاحتمال ابتسـمت .. لكن لماذا يطلقون عليها الجنة .. اية جنة تلك التي يقطنهـا مجموعة من المرضى .. يتناثرون كالأشـياء .. لا هدف

نهضت من وقعتى .. ما فعله مناع كان صـــدمة لشاعر الجمع .. لقد صفعهم .. ركلهم .. اشعل النار الكامنة تصف الأمل داخلهم ٠٠ تشققت ارض الربوة بسيل من الكلمات المتشنجة الغاضبة :

ــ يا ويلنا من غضبته .

ــ اقتلــوا هــذا المرتد .

ــ سامحنـــا يا الهى .

فرهود يلطمه .. عشرات الأيادى تمتد اليه موجات الســخط تعلو .. وتعلو .. فوقها الشاب يقاوم .. يستبسل ٠٠ قشــه تلطمها الأمواج ٠٠ تتكسر عليها .. تتقاذفهــا .. الشـــاب يتدحرج بين الأيادى ٠٠ تتهشـــم ضـــلوعه .. أنهم يقتلـــوه .. ومن اجـــل من ؟! من أجلى انا ٠٠ انا فاقد الهوية .. الانتماء .. دوت صرختى محذرة :

ــ اتركوه .. انه عابث وليس بكافر . هدأت الانفاس .. تقلصــت القبضات عن جسد الشـــاب .. كيف لكلماتى كل هذا الســـحر .. الشاب يحاول النهـــوض يتعثر .. ينكفأ .. يســـقط تحت قدمى ينهض من جديد يلطمنى يصرخ :

ــ افاق .. كاذب .

قلت والذهول يحتوى الجد ى :

ــ الانتقام ليس من دالة السماء ملايين ينكرون الاله .. ماذا فعل لهم . آتونى بحمامة بيضـــاء .

الحمامة فى يد .. السكين فى اليد الأخرى جزرت رقبتها .. ســـال الدم .. الناس فى حيرة من أمرى .. وأنا أقذف بالحمامة فى الهواء واتمتم :

ــ طيرى بأمر الاله .

اهازيج الخرافات تحملهـــا جنية البحر وهى تجلس عارية بجـــوار صخور الشط تأخذ معها الى مملكتها الخرافية تحت قاع البحر العميق حبيبها الذى ولهت به .. وبعد غيبة شهور يعود الحبيب الى الأرض وبرفقته أبنته

الساحرة التى انجبها من الجنية . الوحش الاسطورى الذى ينفث من فمه الشنيع الأحمر النار .. تحرق البنت الأخضر .. والشاطر حسن وهو يغرز سيفه السحرى داخل فكيه فيرديه قتيلا .. تلك الأهازيج .. تدق دفوفها ترفع أعلامها .. والحمامة تسبح فى الفضاء . وصيحتى تسجد لها الهوام .. تنشدها الكائنات .. تترنم بها الرياح :

ــ ما ابصرتموه هو قدرة الاله .

والشاب من جديد :

ــ سحر ما تفعل .

كلماته .. مناقير أسراب من الطير البرى تنهش قلبى .. تدميه تحوله الى قطع متهرئة .. تحول نشوتى وانتصارى الى أحباط وانهزام صرخت فيه بحدة :

ــ ساشطرك نصفين .

هلع . وخوف وفزع وانا اتجه الى الشاب .. احتويه بقدرتى .. جرذ امام قط .. يرتجف .. والناس ذهول .. وانا اهوى عليه بيدى .. راسه ينفصل عن جسده .. الدم ينزف منه .. ينحنى امامى بالرأس المذبوح لقدمى يقبلها .. والصرخات تدوى فى الآفاق :

ــ الهنا اغفر لنا خطيئتنا .

لمست رأسه .. تمتمت :

ــ انهض .. فقد عفونا عنك .

لقد نجا مناع .. كبر الناس .. هللوا « نعم ربى .. نعم ربى » .. امتلأ الوادى بصدى الكلمات .

الفؤاد هل ترى ما نحن عليه الآن .. انه من صـــنع الاله .. فما يقـدره يحـدث لنا .

ــ الاله لا يريد بكم سوءا .. انما السوء هو ما يصنعه البشر بكم .

فجاة انتصبت قامته .. وقف يرمقنى لفترة وجيزة .. اقترب منى ..

ربت على .. قال بهدوء :

ــ انها الحقيقة ما قلت .. ماساء حالنا الا لسوء حال خاصتنا ..

دار حولى .. فرشنى بنظراته .. استطرد قائلا :

ــ لكن كيف لك بمعرفة ذلك ؟

فوجئت بســؤاله .. فما قلته ليس بالحقيقة الغائبة عن العقل .. وليس بالسر الدفين .. ولا هو اكتشـــاف يقف منه شـــعر الراس هـولا وفزعا .. ابدا ومع هذا فقد لفنى الصمت بردائه لفترة وجيزة .. عجزت عن الاجابة والشاب يعاود بالحاح سؤالى :

ــ لم تجبنى .. كيف لك بهذه المعرفة لاتحاول الانكار .

اخذتنى لجنة الحيرة وانا اجيبه :

ــ اننى لا أخفى شـيئا ..

قال ذلك .. وقفز قفزة هائلة ..

اقتفت عيناى أثره وهو يعـدو مبتعـدا عن المكان .. يذوب جسـده النحيل فى اللا نهائى رافقى ينظر الى فى استطلاع غريب وأنا اسأله :

ــ ماذا يعنى بقوله تلك ؟ من هو الذى أكونه ؟

ــ اتمزح يا مولاى .

ــ مـولاى !!

ــ لقد سبق أن وعدتنا .. وها أنت تنفذ وعدك .

قلت مدهوشـــا :

ــ اننى لا أفهم شيئا مما تحدثنى عنه .

ــ انظر الى الكتاب المقدس الصفحة الحادية والستون بعد المائة

اعطانى الكتاب .. قلبت أوراقه .. قرأت :

« سيتجلى الاله للناس .. وسيكذبوه .. ويسألوه عما أصابهم من بلاء وسيجيب عليهم بأنه لا يريد بهم سوءا .. بل البشر هم أس البلاء .. ومكمن الفساد .. عندئذ يبشرهم بالخير .. والبركات .. والعفو .. ويعدهم بجنة أخرى تطوفها دانية .. أكثر واكثر من الأولى »

ــ وما معنى هذا ؟!

ــ اتيت الينا فى الوقت الذى وعدتنا فيه بالتجلى علينا .. قال ذلك ثم انحنى الى قدمى يقبلها .. وعقلى يصارع الشك .. من أنا .. ومن هؤلاء وماذا حدث .. وترنيمة هائلة يترنم بها قلبى والهاتف يأتينى ضاحكا .. نفس ضحكته المدوية العالية :

ــ الم أقل لك .. انت هم .. وهم انت .

- ٢ -

الطريق مغبر .. سحابة أتربة تعدو نحوى فى رشاقة وكثافة يتخللها سيقان واقدام .. اقتربت السحابة .. انقشعت عن آلاف من البشر تحيطنى والشاب يصرخ :

ــ هذا هو .. هذا هو الهكم .. اله العرش . الناس تجرى .. تلف وتدور حولى .. تزغرد .. تهلل .. لكلمة الرجل وقع السحر .. انحنت الهامات .. طأطات الرؤوس .. صلاة شكر غريبة .. يتخللها أغانى الترحاب .. لكن بلا فرحة بلا بسمة .. الناس حولى يتواثبون .. يتقاطرون .. يتكدسون .. الكل يرغب رؤية الاله ابتسمت رثاء .. سخرية .. لا أدرى والدهشة تعصرنى .. ما أراه لا يمكن تصديقه .. اغرب من الخيال .. الناس تتهافت على رؤيتى .. تتصارع من أجل الوصول الى .. الاقدام تدوس الاجساد .. الايادى تفتح فى الجدران البشرية طريقا لتنفذ منه الى .. المناكب تعصر بعضها .. تلتحم فى

قســوة .. ثم تبتعد فى عنف .. كل هذا من اجـل رؤيتى لمس اطرافى ٠٠ تقبيل ملابسى كيف ولماذا .. الأسئلة تحاصرنى .. الصيحات ترتفع الى عنان السماء .. « الآله .. الاله » ضاقت انفاسى ٠٠ دائرة البشر تضيق حولى برائحتهم المنفره .. بعناقهم .. أنفاسى تتعثر ٠٠ ثوبى فى اياديهم شرائح يتبركون بها اصبحت شبه عارى .. صحت فيهم :

ــ ليس هكذا تفعلون بالهكم .

انشــطرت للدائرة .. انتشعت .. لفح كلماتى لســمهم أبعدهم جسد الاله الهزيل فوق الايادى والاعناق والاكتاف محمولا .. تشــه تحملها الأمواج المتلاطمة .. تزفنى الأغانى والالحان حتى قصر الاله ..

آلاف من البشر .. من القرى والنجــوع والأحراش والجبــال اتت يتبركون بالاله .. يرقصـــون .. يشربون الخمر ٠٠ يعبثون ٠٠ وانا تائه حزين .. فحتى الآن لم أعثر على اجابة لسؤالى .. « من انا » ابدا لست هذا الاله الذى يتحدثون عنه .. فما أعيــه إنه ليس ببشر بل اله قوى .. قوته فى غموضـــه فى العجــز عن تحديد مكنـــونه .. ولكن اذا لم اكن هــذا الاله .. فمن انا .. ولماذا يقع اختيار القوم على دون غيرى ليصـــنعوا منى الها . الاجابات عاجزة كسيحة .. لا أجد واحدا منها يقنع ذهنى المكدود .. هل لأن الناس كانت فى حاجة الى منقذ وعثرت عليه فى اليوم الموعود ؟ هل لأننى اتيت الى الناس فى اليوم الذى اعتقــدوا فيه بتجلى الاله لهم ؟! وهذا الســفين الذى حط بى ثم غرق .. هل هو احدى الاجابات لا .. كل هــذه دلائل .. وليســت اجابات .. انما الاجابة هنا امام هــذا القصر ٠٠ حيث يهلل الناس .. الاجابة تكمن فى نفــوس هــؤلاء البشر الذين يســتحلبون الحقيقة من الوهم .. فما هم ســـوى مجموعة من المرضى أو الاغبياء .. احدهم يصرخ :

ــ طال انتظارنا للقياك .

وآخر يصـــيح :

ــ كنا فى شــوق اليك .

وثالث يزعق :

ــ جئتنا قبل ان نفقد الامل فى الخلاص .

ورابع يتمتم :

ــ الهنا كم نحبــك .

وخامس .. وسادس .. وسابع .. مئات .. آلاف .. ســيمفونية حب رائعة مع مايسترو لا يفهم السلم الموسيقى ..

وسؤال يحاصرنى .. مع كل هذه الحفاوة وذلك الود .. لماذا الوجوه عابسة يعلوها الوجوم .. لماذا الابتسامة مفقودة .. غائبة ؟ !

استفقت من شردتى على صــوت متشــنج لرجل هش العــود .. قاس الملامح :

ــ نحمدك اللهم .. نحمدك ..

هزتنى الكلمــات كانى ســمعتها اكثر من مرة .. أين .. ومتــى لا أدرى .. تلوح من خــلال الطمس بارقة أمل ثم تخبو بسرعة البرق تحت غطاء النســيان والرجل يتقدم .. يصرع الســياج البشرى يخطو نحوى .. يسجد تحت قدمى .. يعفر راسه بالرمل .. يان :

ــ سامح « فرهود » عبد ذليل .. ارتكب معصية .

قلت فى بلاهه :

ــ قم يارجل .. ليس هذا من شيمة الرجال .

رد فى اصرار :

ــ لن أفارق مكانى هذا حتى تغفر لى .

اتسعت دائرة حيرتى لهذا الأمر الجديد .. فأنا لا أعرف ماهى المعصية التى ارتكبها ..

لامست يدى راس الرجل تمتمت :

ــ أيتها النفس العاصية .. لقد عفونا عنك فاخلدى الى بارئك هادية مرضــية .

الرجل يرفع راسه نحوى فى ابتهال يهمس :

ــ كيف لى ان أتاكد من عفوك يامولاى

ــ أنظر الى أعلى .. انها ام الخبائث بعد ان طردتها من بين جنبيك

شهق الرجل .. تزاحمت صرخات الدهشة والتعجب .. والأنظار تصافح الأفق البعيد لنرى معصية الرجل بعد أن انخلعت من جنبيه وفارقته على هيئة سحابة داكنة يبتلعها الأفق البعيد .

اول اختبار لقدراتى .والهاتف ياتينى :

ــ لقد ملكت الدنيا فلا تبخل بها على الناس .

ــ كيف ؟ ؟

ــ الخلاص لهؤلاء البشر .

* * *

استيقظت .. الصباح يتلالأ .. استقامت قامتى .. القيت نظرة من خلال النافذة .. ماهذا ؟ طوفان غريب من البشر .. قطعان .. تحيط بالقصر تعصره يفترشون الأرض .. بأقدامهم .. بأجسادهم .. عناقيد من اللؤلؤ تحيط جيد الأرض الرمادى .. تملكنى نشوة الهية وعيناى تحتضن الربوه ومن عليها .. كل هؤلاء الناس ملكى .. ياتمرون بأمرى .. وينفذون رغباتى كل هذا لاله لا يعرف حقيقة نفسه .. هويته مفقودة .. هل أنا مخادع .. هل يمكن أن أخدع كل هؤلاء الناس .. بالزيف .. بالغش .. فى لحظة خطر لى خاطر سرعان ماصرعته .. ماذا لو اعترفت لهؤلاء الناس بحقيقتى .. ولكن ماهى حقيقتى ؟ .. زائر للجنة يجهل حقيقة نفسه .. لن يصدقنى أحد .. واذا صدقونى فالموت مصيرى .. لكن لماذا لا أكون هذا الاله وذلك الهاتف ياتينى .. يدفعنى للمضى فى طريقى لخلاص هؤلاء الناس .. من أى شىء .. لا ادرى ولكننى بالنسبة لهم الأمل .. البعث ..

اطللت بوجهى من الباب المـوارب .. سرت شرارة فى الجمـــوع الحاشدة .. الطوفان يتحرك نحوى الجمـوع تتدفق .. تهرع ·· تسبقها صيحاتها .. فتحت الباب .. وخلفت الى الخارج العيون تلثمنى·· الحناجر تشدو بى .. ترقرقت دموعى وأنا أسأل :

ـــ كل هذا الحب من أجلى

***

قوى غريبة تجتاحنى .. تشد من ازرى .. وانا اسير وسط الجموع الحاشدة .. ينتابنى الشـــك .. فاغرق فى طوفان الوهم ·· فمن أنا وأين كنت قبل ان اضع قدماى فوق ارض الجنة .. لا أذكر .. لا اتذكر ·· مجرد همهمات بلا معنى ولا مضـــمون ·· لا ادرى كنهها معالمها .. تاتى الى ثم تغرق فى الصمت أهيب لعقلى أن يفرزها .. أن يصـــعد بها من الأعماق .. بلا جدوى ·· لكن سرعان ماصرعت الشك وأنا أجول وسط أمواج البشر .. صيحاتهم تشد من ازرى .. تقـوى من ارادتى يقينهم نصـــل فى قلب ذلك الشك .. يرديه .. فجأة دوت صرخة ·· خفقت داخلى خفقة مضرب البيض داخل سائل البيضة الهلامى :

ـــ كيف تصدقون أن يكون الاله بشرا .

احتوى الصمت المكان .. ماتت الأغانى والأهازيج على أفواه البشر .. باتت أمامى الفرصة سانحة لأعترف بالحقيقة التى تضج بها نفسى .. لست هذا الاله ما أنا الا بشر مثلكم ..

لكن هذه الجمـوع التى كانت تبحث عن الخـــلاص وعثرت عليه .. ماذنبهـــا .. تبينت ملامح القائل المتمرد على الهه .. حدجت فيه بنظـرة قاسية وهو يخطو نحوى .. ضامر المنكبين .. مسترســـل الشعر ·· تدلى من أحد أذنيه قرط ذهبى .. مشذب اللحية .. فوق قسمات وجهه صرامة فى ثناياها ذكاء وسخرية فطرية .

حشدت كل شجاعتى فى مواجهة الشك الخاطف وانا اجيبه بصـــوت

هادىء متزن :

ـ ماذا قلت ؟

نظراتى تعصره .. تستدرجه وهو يرد فى هدوء غريب :

ـ لسـت الهنا .

الصمت يرتجف فى انتظار ولادة عسرة من شفتاى .. لحظات قصار وكأنها دهر . موقف يحتاج الحذر .. دهمنى خاطـر أن أصارح الناس بحقيقتى لكن سرعان ما دفنت الخاطر فى مقبـرة سـؤال .. وما جـدوى ذلك ؟ .. فهـذا حال كثير من الناس يعتنقـون الخرافات .. يؤمنـون بالغيبيات .. يقاتلون من أجل الوهم اشرس من قتال الآخرين للوصـول للحقيقة .. فليكن هذا ايمانهم بأننى الالة .. أعصـار قوى يحتوينى .. يضمنى بشدة .. خلت أن أضلاعى تتهشم .. الهاتف من جديد :

ـ لا تتخاذل ..

منذ لحظات كنت مستعدا للاعتراف بأننى لست هذا الالة لكن تملكنى العناد .. حب البقاء .. الأصرار .. شهوة التحدى على التمساح أن يبتلع فريسته قبل أن تولى الأدبار .. سألته فى هدوء مريب :

ـ خبرنى من هو الاله ؟

اجابنى بنبرات حادة :

ـ قـل لنا أنت .

همهمت :

ـ آتونى بكلب .

فى لحظات كان الكلب ينبح بين يدى سألت الشاب من جديد :

ـ هل تسمع نباح الكلب ؟

ـ ما هـدفك ؟

ـ أريدك أن تحادثه .

ـ كيـف ؟

ــ بان تتحول لكلب حتى تفهمه .

ــ تقصد أنك حللت فى انسان حتى نستطيع فهمك .

ــ شــاب ذكي .. لكنك عنيد لن يقنعك من القــول كلمة الحق .. ولن تسلم من الأذى بكفرك

ــ تخــدع الناس بعذب الكلام .. وتحاول ان تلقى الرعب فى قلبى بتهديد اجوف مع انك لا تستطيع دفع مكروه عن نفسك . فى تلك اللحظــة تمنيت أن الطمه .. أسحقه الى ذرات صغيرة .. تمالكت نفسى .. مضغت ضيقى وأنا الملم اطراف الحديث :

ــ صــباتى يارجــل .

ــ الصــابىء أنت .

صــاح فرهــود :

ــ مادهاك يامناع .. تنكر علينا الاله .

ــ بل انكر هذا الدعى .

صوتى يموج بالغضب :

ــ لقد طفح الكيل .

فى وقاحة غريبة تقــدم مناع نحــوى جذبنى من جلبابى .. مزقه .. دفعنى .. تعثرت .. تأرضت .. صاح زاعقا :

ــ كيف تصدقون أن يكون الاله مثلنا نصارعه فنصرعة .

فى تلك اللحظة .. سكنت الريح .. تحولت الى جماد سجنت داخلها الأبدان والعقول .. توقفت الحيــاة .. النبت والانســان والحيوان .. لا حركة .. لا نبض .. قبر جماعى للمشــاعر والأحاسيس .. الغضــب يتفتت الى ذرات صــغيرة .. تعصــف بكل شىء والاله صريــع الايادى البشرية .. تطرحه أرضا تمزقه .. تخرق بهذا قانون امتزج بالعقل امتزاج الخلايا فى جسد واحد .

لهم .. ولا غاية .. تحركاتهم غريبــــة .. يأكلــون .. ويشربــون .. ينامون .. يتعذبون يتحركون فى صـــمت .. بلا غضــب .. ولا حزن .. ولا حتى ابتسامة .. يروحون ويجيئون فى خطـوات متشابهة مرسومة .. كأنهم مربوطون بخيوط خفية فى يد قديرة تحركهم كما تشاء .. تفرض عليهم ســلطانها وتدراتها .. وماهم الا اشــياء تملى عليهم الحركة والكلمة .. والفتة .. فجاة نشلنى من شردتى رجل أشبة بجدار .. برأس ضــخمة ابله .. تدحرج نحوى وقف أمامى .. لطمنى بقسوة .. لم ادر الا ويدى أنا الآخر تنهش صدغه .. مد يده يصــافحنى .. يأخذنى لأحضـــانه رائحته كريهه .. منفره .. وضع يده فوق كتفى حادثنى فى ود وهو يسحبنى :

ــ هلم معـــى

ســألته فى دهشـــة

ــ الى اين ؟

ــ لا تسألنى .. فقط اتبعنى .. عقب على ذلك بقوله :

ــ لكن من أنت ؟

ــ أنا زائر للجنـــة .

تبعته .. توقف أمام كومة من (تبر) الذهب

قال فى أسى :

ــ كل هذا الذهب ملكى .

ــ حقـــا .

ــ وايضـــا ليس ملكى .

ــ تســخر منى .

ــ بل هى الحقيقـــة .. ماذا امتلكت الشىء دون أن تنتفع به فأنت لا تملكه .

قال ذلك ثم بدأ فى نثر الرماد وهو يصرخ :

ــ هـــذا هو نتيجة الحرمان .. عشت زاهـــدا فى الدنيا على أمل ان اســـتمتع فى الآخرة بكل ما حرمت منه .. وكما ترى أمامى ذهب للعالم كله

لكن ما فاتحته ..

استجلى عقلى بعض حقائق الأشياء وأنا أسأله :

ـــ ولهذا السبب تعذب الفتاة نفسها .

ـــ صدقت .. فقد حرمت نفسها من المتعة .

ـــ والرجل الذى يقيد نفسه بالشجرة ؟

ـــ انه يحبس نفسه عن الناس .

ـــ لماذا ؟

ـــ لقد اسهب فى وصف الجنة .. وغذى عقول الناس بالوهم والرخيص من الكلام حتى صدقوه لذلك فهو يحبس نفسه عن الناس حتى لا يضربوه بالنعال .

ـــ بالنعال وأنتم لا تملكون احذية !!

قال لى وهو يشير الى شاب وقف على رأسه :

ـــ انظر اليه .. انه يعاقب نفسه

سألت الشاب المقلوب :

ـــ لماذا ؟

أجابنى وهو يهز رأسه يمينا ويسارا :

ـــ ندما .

ـــ وهل يوجد هنا ما يستحق الندم ؟

ـــ ليس هنا .. بل فى الدنيا .. حرمت نفسى من البحث عن الحقيقة وانغمست فى طقوس الاديان اغترف منها ما ظهر وما بطن .. فبت كالهاموش الذى تقتله حرارة الضوء الساطع .

ـــ لهذا فالحقيقة مقلوبة .. كما تفعل انت الآن .

ـــ لو خيرت بين الدنيا والجنة لاخترت الأولى .

ـــ بكل مافيها من موبقات .

ـــ أى موبقات تعنى .. انك ستجد فى الجنة مايذهب العقل ويوجع

- ٣ -

سـأل مناع بصـدق :

ــ لماذا انقذتنى يامولاى وقد انكرتك

ــ أنكرتنى ليصدقنى الناس .

ــ ما فعلته احدى المعجزات .

ــ الاله لا يأتى المعجـزات يامنـاع .. لان المعجزة تعنى حـدثا يتجاوز القـدرة ..

احتـوى كلينا صمت مطبق .. تهفهف عليـه أجنحة التساؤلات .. وفى اللحظة التى قررت سؤاله فجر مناع تساؤله فى هدوء غريب :

ــ من انت ياسـيدى ؟

تريثت قليلا قبل ان اجيبه :

ــ لماذا تسألنى وقد رأيت كل شىء ؟

ــ ساصارحك القـول .

ــ تكلم يامنـاع

ــ لقد رأى القـوم الحمامة المذبوحة تطـير فى الهواء .. والرأس الذبيح يعود الى الجسد ماعدا واحدا .

ــ مازلت على كفرك وعنادك يامناع .

ــ ما رآه الناس قد يكون خداع بصر يامولاى .

ــ الى متى تظل على عنادك .

ــ مولاى لا تسىء الظن بى .. فانا احبك واعتقد ان الخلاص سيكون على يديك فانا لم أر ملاكا .. ولا جنـا .. ولا شـيطانا ولم ار الها .. ولكنها مسلمات لدى .

ـــ فليســـوف أنت يامناع .

ـــ الفلســـفة شك يامولاى .. ومالدى هو اليقين .. من اليـــوم أنا عبـــدك .. تابعك .

ـــ اخالك تبحث عن الحقيقة .

ـــ هذا حالى يامولاى .. ظللت أبحث عنهـــا وفى الوقت الذى تهيأت نفسى لاستقبالها .. فقدتها على يديك .. لكن ما يشغلنى حقا هو الناس

ـــ مابال الناس يامناع .

ـــ اريدهم بلا أوهام .

ـــ كثيرا مايكون الوهم ستارا يحجب عن العقل هموم الحقيقة .

ـــ وفى النهاية تصبح الحقيقة بهمومها أفضل من الوهم بسعادته .

ـــ صـــدقت يامناع .

ـــ اثقلت عليك ياســـيدى .

ـــ لنا فى الغد جولة تصـــحبنى فيها الى دروب الجنـــة .. أما الآن فأنا مرهق وأرغب فى قسط من الراحة .

نهض مناع ،قبل أن يخطو خارج الحجرة سألنى فى سخرية :

ـــ وهل الآلهة تنام يامولاى ؟!

* * *

— ٤ —

هل هذه هى الجنة ؟ ؟ حدائق وارفة الظــلال تجرى من تحتها الانهار فوق أغصانها الثمار .. غابات تمرح فيها الظباء والغزلان .. تعشش فوق اغصانها الطيور والغربان .. فوق أرضها يتجول الانسان يقطف الثمار .. يقتل الحيوان .. يصنع من الفراء ملبسه .. ومن الجلد مســكنه .. ومن العظم خنجره ..

لماذا هى جنة ؟ ! هل لأن الانســان فيها طليق يأكل مايشاء .. يحب من يرغب .. يصــاحب من النســاء ما يريد .. كل ما يملكه الفــرد يملكه المجموع .. لا ملكية ولا اختصاص ..

لماذا هى جنة .. لأن البشر هنــاك يستمتعون بكل ما عندهم من نعم تفوق عن حاجتهم وتزيد أم لأنهم لا يخضعون لقانون سوى ما رسمه المجتمع من عادات وتقاليد .. ولكن من العلم .. أين الحضارة .. أين المخترعات هؤلاء الناس يعيشــون فى عصــور الظلام والاظلام ظــلام الأفق واظلامة العقل .. معتقــدات بالية .. لقد بعثوا من جديد بعد موتهم .. وهذه هى جنتهم الموعــودة جنة عرضــها الســموات والارض .. لكن هل حقا ما يعتقدون .. بعثا بعد موت ؟! حياة أخرى بعد الحيــاة الأولى .. كثير منهم يتحدث عن حياته الأولى .. فمتى واين كانت تلك الحيــاة .. هل حقا تلك هى الجنــة .. أم أننى فى كوكب آخر مازال بعيدا عن ركب الحضــارة كوكب ماتت فيه كل الفيروســات .. وأصــاب الناس فيه العقم .. كيف لهــؤلاء النــاس بالخلــود أنهم لا يعرفون المــوت .. ولا يصــابون بامراض .. هل يعيشون فى جو معقم خال من الفيروسات .. لماذا أتيت ..

هل لأكفر بالجنة التى أعدت للمتقين .. هل لأرى كم هى بأوصافها بدائية متخلفة .. وما سبب هذا التخلف .. هل الخلود يعنى الجمود ·· ثم لماذا لا يتناسلون .. هل فقدوا القدرة على الانجاب .. هل تم تعقيمهم·· غريب امر هؤلاء ·· الطفل يبقى طفلا .. دون ان ينمو والشاب كما هو .. والعجوز لا يتحول هرما كيف .. ماذا يعنى ذلك ؟! هل دائرة الخلود لا تكتمل حلقتها الا باجتماع تلك الأمور كلها ؟ كانت هذه التساؤلات تصهرنى وأنا اتجول فى دروب الجنة ·· حدائقها .. اكواخها .. أناسها حيواناتها .. يصحبنى مناع .. توقفت أمام كهف ·· مناع يهمس :

ــ سترى هنا عجبا .. الانسان على طبيعته العذراء .

استربت وأنا ارى شابا عاريا يجرى خلف امرأة عارية يحملها الى الداخل .. وهى تصرخ ..

قلت لمناع :

ــ أنها تستنجد

أجابنى :

ــ يا مولاى .. يتمنعن وهن الراغبات .

خطوت داخل الكهف والذهول يحتوينى .. وصرختى تسبقنى :

ــ ما هذا ؟

ــ أنها جنة اللذة الحسية .

قلت غاضبا :

ــ بلْ مستنقع الرذيلة .

ــ مولاى ماذا تقول .. أو ليس كل شىء مباح .. أو ليس هذا هو الوعد أن كل ماكان محرما من المتعة يصبح مباحا .

نسر يحط على قلبى ينهشه .. وأنا أرى ما يذهب بالعقل .. ويوجع الفؤاد .. نساء يطئن نسله .. رجال يعتلون ولدانا ·· نساء فى احضان

رجال .. الجنس يمارس بلا خجل .. موبقات .. سألت مناع في دهشة :

ـ هل هذه هي الجنة .. الرذيلة في وضح النهار .. أخرجني من هنا قبل أن أتقيأ .

على باب كهف آخر توقف بي مناع .. أمام مدخل الكهف رجل يرتدي قلنسوة حمراء ورداء أسود .. مناع يرد على تساؤلي :

ـ أنه مبروك .. حامي حمى جنة المسكرات ..

مبروك يتقدم نحوي يعرض بضاعته .. أفيون .. حشيش .. خمور .. نحيته جانبا .. دلفت الى الداخل .. أجساد عشرات السكارى .. والمساطيل متناثرة في اركان الكهف .. وفي الوسط غازية عارية ترقص وحولها بعض السكارى يصفقون .. واحدهم يزعق :

ـ أرقصي لنا رقصة الاله .

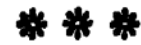
أنهم تائهون عن واقعهم .. حتى عن أحلامهم . ضاعت الابتسامة منهم .. سألته اجابني :

ـ ولماذا يبتسمون يا مولاي ؟

حقا لماذا يبتسمون .. فالذي لا يعرف الألم لا يعرف معنى للابتسامة .. بل أنهم يحاولون صنع الألم .. ليعثروا على هذه الابتسامة دون جدوى .. أخرجني من شردتي وهو يقول لي بحماس .. « هيا يا مولاي »

ـ الى أين ؟

ـ الى صومعة العلم والعلماء .



— ٥ —

توقفت أمام الكوخ مذهولا .. لقد صنع من الذهب والفضة .. وبابه من الأبنوس .. وفوق سارية المدخل علقت عناقيد اللؤلؤ وتحتها عبارة « ادخلوها بسلام آمنين » .. خطواتى بطيئة وأنا ادلف داخل الكوخ .. سرداب طويل تحفة اللالىء والتحف .. الأرض فرشت بالتبر .. السقف يتلألأ .. بريقه يخطف الأبصار .. تمتمت ساخرا :

— مرحى بالعلم والعلماء ! !

انتهينا الى بهو واسع .. بداخله مالاعين رأت ولا أذن سمعت .. جداول من الماء رقراقه تجرى تحتها وفوقها ! ! قرود فى أقفاصها ونسانيس فوق النار الموقدة تولول وتندب حظها .. طيور تزقزق وأخرى تزعق فوق أسياخ الشواء .. التفاح الأحمر القانى والأزرق القانى .. والتين والزيتون الأصفر والأعناب الخضراء والصفراء والزرقاء !! غازية عذراء ترقص رقصة خليعة .. باردافها السمينة .. وحولها فتيات صغيرات لا يتجاوزن الخمس عشر ربيعا .. قلت فى أسى :

— ماذا أرى ؟

أجابنى منساع :

— ما تراه صومعة العلماء يا مولاى .

— ومالهم يستأثرون بكل هذه النعم ؟

— أولياء نعمتك يدعون .. ويصلون من أجلك .. ويسيرون فى ركبك ويتعبدون فى محرابك .

— وأين قواريرهم ؟

— متخمه بالخمر يامولاى .

— وابحاثهم ؟

ــ المتعة بحثهم وشاغلهم الشاغل .

ــ ومعاملهم ؟

ــ الدين معملهم يجرون فيه ابحاثهم ويصنعون فيه أفكارهم .

ــ تقصد بهؤلاء الدهماء وليس العلماء .

ــ خاصــتك يامولاى .

ــ ما يضايقنى حقا .. هــذا التفاح الذى حرموه على غـيرهم من البشر ويستأثرون به . فى تلك اللحظة انفتح باب البهو الكبير . علماء الدين الأفذاذ يخرجون الواحد تلو الآخر .. ومناع يشير الى رجل مربع يتمتم :

ــ أنه شـيخهم .

تبينت ملامحه .. لم يكن سوى فرهود ..

ما ان رآنى حتى خر سـاجدا .. تبعه .. خاصــته وهم يهللـون ويكبرون :

ــ حللت اهلا .. ونزلت سهلا .

فرهود ينهض يقول لى فى أدب جم :

ــ لقد وليناك يامولاى امرنا فمنــذ اليـوم أنت الهنا نطيـع أمرك وننفذ رغبتك .

سألته فى غيظ وأنا أشير الى خاصته :

ــ هذه الهوام ماذا تفعل ؟

ــ يقــرأون كتبـك وينادون بتعاليمك حمــاة شريعتك .. كلمتهم نافذة وقضائهم لا يرد .

ــ ضــد من يافرهود ؟

ــ كل من تسول له نفسه التمرد على شريعتك الغراء .

ــ وبعــد ؟

ــ ماذا تعنى ببعد يامولاى ؟

ــ ماذا بعد القضـــاء الذى لا يرد ؟

ــ المصـــير المحتوم .

ــ أكمل فأنا منصـــت اليك .

ــ النفى الى الأرض الملعونة نهاية مطاف التمرد والالحاد .

ــ اذن فقد خلت مملكتكم من العلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء .

ــ آفة المجتمعات يامولاى .

ــ بل عصب المجتمعات يافرهود .

قال بدهشـــة :

ــ مولاى ماذا قلت ؟

ــ آفة المجتمعات هى تلك الحثالة التى جعلت من الدين ستارا تخفى خلفه كل الموبقات .. اغلقوا هذه المواخير .

كانت هذه آخر كلماتى قبل ان اترك المكان وانا فى قمة غضبى .

ــ ٦ ــ

ســـألت فرهود :

ــ ملجر يمتـــه ؟

أجابنى :

ــ الســـحر الاســـود .

ــ وكيف هو هذا السحر الاسود ؟

ــ انظر يامولاى .. هذا ماعثرنا عليه .

الشاب يترنح أعياء .. كلماته خفيضة :

ــ ما بيدى ليس سوى بوصلة يا مولاى .

ــ حقا أنها بوصلة .. فكوا قيوده .

بعد أن فكت قيوده علت صيحة عجوب :

ــ انها للعنة يامولاى لو تمكن منا مثل هذا السحر الأسود .

قلت بأسى :

ــ اللعنة لأنه صنع بوصلة .

والشاب يعلق قائلا :

ــ أنه مصير كل من يفكر فى اعمال عقله .

رد فرهود مدافعا :

ــ ولماذا أعمال العقل .. وكل شىء دان .

ــ دنو السراب من الظمآن .

ــ مولاى ان امتلاك هذا الشيطان لمثل هذا السحر الاسود .. واستئثاره به وعدم قدرة الآخرين لامتلاك مثله .. سيهدم نصوص دستورنا .. فلا ملكية ولا استئثار ولا اختصاص ولا تصارع .

رد الشاب معقبا :

ــ فلنصنع مئات مثلها .. آلاف .

ــ هل سمعت يامولاى .. أنه ينادى بالعمل .. يخرق السلام ..

هدفنا .. والذى حققنا من خلاله السعادة .

رد الشاب قائلا :

ــ وما سبب ما نراه من تخلف وبدائية ؟

ــ اى بدائية وأى تخلف وقد حققنا السعادة السرمدية بعد أن أصبح كل شىء فى متناول اليد الطعام والشراب والمرأة .

ــ هدف الجنة ليس المتعة الحسية .. بل الحضارة والتحضر .

صرخ فرهود :

ــ هل سمعت يامولاى .. أنه يريد العودة بنا الى الخلف آلاف السنين .. حيث تصارع الرأى والخلاف حول المبادىء والنزاعات السياسية والفوارق الاجتماعية وفى النهاية .. الصراع والأنانية وحب الذات والقلق .. والملكية المسمار الأخير فى نعش السلام .

قال الشاب فى ثقة لا تخلو من غرور :

ـــ أنظر الى القوم يامولاى .. ديدان حقيرة تسعى فى الارض تنمو على روث البهائم ومخلفات الانسان .. فليأمر مولاى بعودة الفلاسفة والعلماء والادباء من الأرض الملعونة الى الناس يختلطون بهم .. يقيمون بينهم .. ولنكفل للجميع الحرية فى اعمال عقله .. فيكتب الأدباء ويتحدث الفلاسفة .. ويخترع العلماء .. لا حجر على الفكر والعقل .

نظر فرهود الى اعلى .. زعق باعلى صوته :

ـــ هذا يعنى العودة لقانون العمل .. للعذاب .

قال الشاب بجراة ووقاحة :

ـــ هل تعلم ماهى آفة المجتمعات يافرهود ؟

صمت قليلا .. ثم استطرد قائلا :

ـــ انتم رجال الدين بعد ان حولتم المضمون الى شكل .. حولتم ارادة العمل الى طقوس وعبادات سقيمة .. حولتم العلم الى بخور .. واضحية .. وادعية .. وزيارات قدسية وابتهالات .. ودعوات .. وتشنجات .. وجن .. وشياطين المضمون أصبح مجرد صورة وضعت فى اطار مقدس يرهبه الجميع .. ويخشاه الكل يسجدون له وينشدون له الأهازيج يعتصرون منه الخرافات .

سألت فرهود فى دهشة :

ـــ هؤلاء الذين يعذبون أنفسهم لماذا لم تمنعوهم ؟ .

ـــ لأنهم لا يضرون غيرهم .

ـــ اذن فلماذا نضع قيدا على حرية من يريد العمل . من يرغب تعذيب نفسه بالعمل فليفعل .

ـــ أهل الجنة لا ينطبق عليهم شريعة الدنيا .. هكذا علمتنا .

ـــ وهذه اليوم شريعتى .

ـــ تنسخ أذن شريعتك يامولاى .

ـــ اخالك فهمت ما قلته .

ـ ثورة مي أذن ما تنادي به .. لقد تعود الانسان الكسل لا يتحرك الا بمقدار حاجته للطعام فكيف تلزمه بالعمل ؟

ـ العمل اليوم حق وغدا واجب ..

ـ ولكن يامولاى من يعمل يملك .

قلت مؤكـــدا :

ـ ومن لا يعمل لا يملك .

بعدها رأيت الشاب يقفز كمجنون فى دروب الجنة وهو يصرخ :

ـ اليقظة .. اليقظة .

فرهود يرمقنى بعينيان ثاقبتان .. يعلن غضبته فى كلمات قليلة :

ـ لن يرضى قرارك هذا خاصتك يامولاى .

ـ ٧ ـ

صـــوت على أصــــوات تهدر .. رجال ونســـاء وأطفال يطوفون البيت .. يصرخون بهســتيريا .. دحروج .. والدهـل .. وســليم .. وفرهود وسليط وبسطاوى .. ائمة الدين ينزعمون ثورة الغضب .. خلفهم الأتباع يصرخون يولولون .. الغريب اننى لم أر دمعة واحدة مجرد صرخات احتجاج .. يشعل نارها رجال الدين :

ـ نريد الاله .. نريد الاله .

مناع يقتحم على خلوتى وهو يرتجف .. نبرات صوته كلها تحذير :

ـ لا تخرج اليهم يامولاى .

ابتسمت لا أدرى سخرية .. أم شــفقة على هؤلاء الناس .. ماذا يريدون .. لقد اغواهم رجــال الدين ليتمردوا علي .. لم أنس نظــرات فرهود .. ولا كلماته لى .. انهـــا بداية صراع بينى وبين هؤلاء المتخمين المترفين .. مناع من جديد يحذرنى وأنا اخطو للخارج يحاول ان يمنعنى :

ـ دعهم سأتكفل بهم يامولاى

قلت بثقـــة :

ــ لن تمر دقائق الا وينصرفوا .

وقت الشـــــدة والازمات كان الطيف يأتينى .. يشـــد من أزرى .. يأسى آلامى .. يحمـــل عنى همـــومى .. ينصـــحنى .. لكنـــه اللحظـة بعيد عنى . منذ ليالى وانا اترقبـــه .. بلا جـــدوى .. كم انا فى حاجـــة اليـــه يلهمنى الـــرأى الصـــائب .. ماذا أنا فاعل بهـــؤلاء القـــوم .. مر الوقت لكن دون جـــدوى .. الهياج يشـــتد .. والصرخات تعلـــو .. نحيت متاع جانبا .. أخذت طريقـــا نحو القـــوم .. فور رؤيتى .. حل الصمت .. الوجوم الا من بعض همهمات .. همســـات متفرقة .. طأطات الرؤوس وأنا اقترب من زعيمهم فرهـــود .. واجهنى بســـحنته القذرة .. وجسده الفارع وصوته القمىء :

ــ لا نريد غير جنتنا بديلا .

اقتربت اكثر حتى كدت أن الامســـه والأصـــوات خلفـــه مبعثرة .. مؤكده .. مؤيده . فى اللحظـــة التى خايلتنى فيها الأفكار للتخلص من هـــذا المأزق .. احتـــوتنى قوة خارقة .. أنـــه الهاتف من جـــديد .. يأتينى .. يفـــمنى .. ارتفعت نبضـــات قلبى .. غلى الدم فى راسى .. انتفضت عروقى .. وماذا بعـــد .. اننى املك اقـــدارهم اقتربت من فرهـــود .. لمسته .. خلت أننى صعقته ارتعد .. ابتعد .. وهو يتمتم :

ــ لن تستطيع معى شيئا .

التقطت فرع شجرة .. انحنيت الى الأرض خططت عليها سألت فرهود

ــ ماذا ترى ؟

أجابنى بعدم اكتراث :

ــ رسم قرد لا يعنينى فى شىء .

قلت فى ثقـــة :

ــ انظروا ياقـــوم .

تواكبت الانظار .. ضاقت الدائرة مصمصت الشفاة وأنا استطرد قائلاً :

ـــ هذا مصير من يعصى اوامرى .

أجابنى فرهود فى سخرية لاذعة :

ـــ هيا اسخطنى لقرد ثم اشونى على النار اكلا شهيا .

حل الصمت .. الجمع في مخاض الحقيقة .. كيف يتحول فرهود لقرد للحظة تراجع أمامى وأنا الفه بنظراتى .. يستجمع شتات ارادته التى بعثرتها يحاول الافلات منى وهو يشق بيديه الدائرة البشرية .. جذبته من خصلة شعره قلت :

ـــ هنا مكانك لا تبرحه حتى يأتى أمرنا .

الصمت مطبق .. الهمسات يذبحها الفضول .. الخوف .. الرعب وفرهود يخر ساجدا يطلب العفو يستجدى :

ـــ لا تفعل .. لا تفعل يامولاى .

صحت فى نشوة :

ـــ خذوا هذا القرد واشووه فوق النار .

الذعر يكتسح الجمع يذهب بعقولهم وهم يشاهدون فرهود يزحف نحوى وقد تحول لقرد يبتهل يقبل قدمى .. مستجديا المغفرة وقبل ان اخطو مبتعدا عن المكان حذرته قائلا :

ـــ عفونا عنك ولتكن هذه هى المرة الأولى والأخيرة فى سلسلة عصيانك



ســألنى مناع باســتحياء :

ــ مولاى الا يزعجك أن أسألك .

ــ افصح ما بصــدرك يامناع .

ــ لقد رأى القوم فرهود أثنـــاء التحول من انســـان لقرد ثم من قرد لانســـان .

تأملته ســـاخرا :

ــ ما عداك أنت يامناع !

ــ بالعكس يامولاى .. فقد رأت عيناى مالايمكن أن يصدقه بشر .. لكن سؤالى .. لماذا عجزت عن رؤية الحملة المذبوحة .. وراسى المشطورة

ــ لقد ذاب الشك من داخلك الى يقين .

ــ مولاى ســـألتك مرة من أنت ولم تجبنى لك قــدرة الاله ومع ذلك مانت تحمل صفات البشر .. تأكل وتشرب وتغضب وتضـــحك وتتألم .. مىن أنت ؟

ــ أنا الناس .. والناس أنا .

ــ ولكن الناس لا يأتون معجزاتك .

حاورتنى فكرة طريفة سألت مناع بعدها :

ــ مناع .. هلا ابتسمت ؟

ــ كيف يامولاى .. وهى احدى صفات الاله .

همســت له :

ــ لو عرفت معنى العــذاب .

ــ كيف يامولاى ؟

ــ بأن تصبح مثلى تحس للناس وتنفذ الى مشاعرهم .

امتطينا راحلتين .. رحلة طويلة نجوب فيها ارجاء الجنة الفسيحة ..

سألت مناع :

ــ أين تنتهى ؟

ــ عرضها السموات والأرض يامولاى .

ابتسمت .. سألنى مناع فى دهشة :

ــ مولاى يبتسم .

قلت ساخرا :

ــ اذا كان هذا عرضها فما طولها ؟

ــ هذا علمك اللدنى .

البغال تسير فى طريق صخرى ضيق .. فوق خور عميق .. الطبيعة فى احضانه ساجدة .. الأشجار تنمو على جدران الخور بميل حاد .. يخيل للرائى انها ستسقط فى أعماق الخور عندما تعانقها نسمة هواء .. ولكن ضفائرها الخضراء تتأرجح فوق صدر الجبل الناهد .. كم هى خلابة تلك الطبيعة .. الصباح مندى برائحة الازهار .. القمة مرتفعة .. اقتربنا منها .. مناع خلفى صامت .. لا أدرى ماذا دهاه فى الأيام الأخيرة .. علت وجهه الكآبة . اعتراه الحزن :

ــ ماذا بك ؟

ــ أمور كثيرة تضج بها نفسى .

ــ تكلم يامناع .

ــ مولاى .. تحمل صفات الآلهه وفيك عجز البشر .

ــ عدت من جديد لنفس الدائرة المفرغة .

ــ مولاى أننى احمل هما لا يطيق حمله رواسى الجبال .

ــ افصح عما بقلبك .

ـــ تملك القـــوة .. والقدرة .. والاعجاز لكنك لا تستطيع أن تعرف مكنـــون نفسى .

ـــ وهـــذا ما يقلقك .

ـــ بل ما يقلقنى هو عجزك عن معرفة السر الأعظم .

ـــ ويحك بدأت تكفر بى .

ـــ بل هى تساؤلات .

ـــ حدثنى اذن عن هذا السر الأعظم .

ـــ من يملكه نفذ ملك القوة والسلطان .

ـــ أنا منصـــت لك .

فى تلك اللحظة دهمتنا صرخة .. صرخات .. خلف الغبار المثار .. ثلاث رجال .. احاطونا كالســـوار شـــدوا وثاقنا حملونا الى مغارة عميقة فى بطن الجبل التســاؤلات تصهرنى .. وسيد العصبة يواجهنى :

ـــ انت اذن الاله .

لم ارد عليه .. قهقه ســـاخرا :

ـــ الا تمسخنا لقرود .

العصبة تتضـاحك وكئوس العرقى تعبها أفواههم الشرهه الكريهه .. امسك الرجل ببعض شعيرات لحيتى .. صرخ مناع :

ـــ أبعد يدك القذرة عنه يا شهبور .

أن مناع يعرفه .. ينادية باسمة !! لم يأبه شهبور اقتلع الشعيرات من لحيتى .. أرسلها الى النار .

قهقـــه من جديد :

ـــ بخور تتبرك برائحتها الكريهه .

ومناع يصرخ من جديد :

ـــ ليس مولاى بغيتك .

تقدم الرجل نحوى .. داس أصابع يدى فى قســـوة وعنف .. احالها الى كتلة من اللحم والدماء ندت عنى صرخة ... تمتم :

ــ تولول كالنســـاء .

منـــاع يتوســـــل :

ــ دعه ياشـــهبور .. اللعنة آتية .

ــ ليس قبل أن تسر لي .

منـــاع من جديد في أسى :

ــ اللعنة من جديد .. ياحسرتاه .

ــ سترى بمن تحل اللعنة نحن أم انت وهذا المعتوه .

قال ذلك ثم امســـك بكـــوب من العرقي .. قربه من شـــفتي .. اطبقت فكي .. ضغط عليهما بقبضة من حديد .. انفتحا .. صب في حلقي الســـائل البني الغامق .. انتابني ســـعال هائـــل .. أعقبهـــا بكلماته وضـــحكة عربيدة :

ــ اشرب حتى تنسى ما ينتظرك .

يد شهبور تمزق جلبابي صوته يتردد في جنبات المغارة :

ــ لحم ابيض كلحم النساء .

امسك بالسوط .. رفعه في الهواء صرخ مناع :

ــ اتركه ياشهبور .. سأتكلم .

صرخت أنا الآخر محذرا :

ــ اصمت فحديثك يحمل نذر الموت لنا .

صـــمت مناع .. اشـــاح بوجهه عني .. وشـــهبور يلهب ظهـــري بسوطه المرة تلو الأخرى .. في تلك اللحظة احتوتني قوى خارقة وأنا اتلقى الضربات .. لقد اســـتطعت تطويع جســـدي . حولت الالم الى طاقة من الارادة . لم أعد اشعر بشيء .. لقد فقدت الاحســـاس بالألم بالزمان .. بالمكان .. البسمة لا تفارق شفتي .. أحدهم يهمس :

ــ كفى ياشهبور فالرجل في عداد الأموات ..

في تلك اللحظات وشهبور ينهال على بســـوطه فاضت على الرؤى .. نبع فاض على شطيه فاغرق كل ماحوله .. انه يغرقني أنا الآخر .. جسدي

يتزحلق .. أغوص فى اللا نهائى .. تحوم حـولى الذكريات .. انتزعهـا انتزاعا .. أطـوف بها أرجاء الكـون .. صرخة تهب فزعة منى وانا ارى الرجال يبحثون عنى .. يضلون طريقهم :

ــ لا تخطئوا الطريق .

تردد شهبور .. أمسك عن ضربى . فى يده قنينة العرقى .. تقـدم نحـوى .. افرغها على جسـدى .. سـياط من النار تلهب جروحى .. ترنحت من هول الألم الذى عاودنى .. أحدهم يهمس :

ــ عاد يجز على أسنانه .

بعدها رحت فى غيبوبة .. استيقظت منها وجسدى كله ينبح بالألم .. شهبور نائم يشخر بجواره اثنان من عصـبته .. منـاع مسـتلقى على الأرض .. جزوا لحيته .. وحلقـوا شـاربه .. واحـدى حاجبية .. ابتسمت بمرارة .. غاضت الابتسامة وأنا ارى آثار التعذيب .. جرح قطعى عميق فوق جبهته .. آثار كدمات على رقبته . استيقظ شهبور .. لكز مناع بقدمه .. قهقه وهو يقفز حوله :

ــ العفريت .. العفريت ! !

أخذت ملامح وجهه سمات الجد وهو يسأله :

ــ أين الأيتـونة ؟

خضـت فى بحر التسـاؤلات وهو يدوس رقبته بقدمه المفرطحة .. يسأله من جديد :

ــ اين هى .. تكلم .

الصـمت مطبق .. فم منـاع مطبـق .. خيط باصراره برفضـه شهبور يصرخ :

ــ سأذيب هذا الاصرار يامنجى .. اخلع عن الرجل ثيابه بدأ منجى فى خلع ثيابى .. لم يتبق سوى سروالى .. قال شهبور :

ــ كل ثيابه .. اريده كما ولدته أمه .

يستطرد وبعدها قائلا :

ــ هيا يامنجى .. امامك لحم أبيض قد يغنيك عن طفـل تطاه بعد

طـول حـرمان .

فى تلك اللحظة وانا ابصر منجى قادما نحوى عاريا .. منتصـبا .. وسـؤالى الحاضر تلهث به نفسى .. لم كل هذه القسوة .. الامتهان ؟!

فى تلك اللحظـة تقلصـت معدتى .. تعثرت أنفاسى .. تقليئت وهو يقترب منى يلمس بيده عجزى العارى .. مناع يزعق :

ــ أتركوا مـولاى .

ــ ١٠ ــ

تهت داخل زوبعة من الانتقام .. تمنيت فى تلك اللحظة أن تنفك يداى من قيدهما .. لاطوق بهما عنق هذا الشهبور حتى الموت .. زهوة الانتصار تتخايل على كلمات شهبور :

ــ دعه يا منجى ودارى جسده فلم تكن تجنى سوى السراب .

القوة الخفية تتأهب نصائلها .. باتت على مشارف نفسى .. العرق يتفصد من جبينى .. استشعر بها .. تضمنى اليها .. احس بلهثة انفاسها بصـهد حرارة أنصـهارها امتزاجهـا بنفس .. بكيانى .. خيالى يتدفق للمجهـول يحطم مزلاج بابه . يخلـع على الواقـع بردة الامان .. أنهم قادمون لانقاذى أنهم يسرعـون .. يسـتحثون دوابهم دليلهم يقتص أثرنا وصرختى تهب فزعة :

ــ هيا .. فقد ضاقت بنا وضقنا بهم .

شهبور يتمتم سـاخرا :

ــ بدأ الرجل يخرف .

وفى اللحظة التى تهيأ فيها مناع لافشـاء السر اقتحم المكان واحد من العصبة نبرات صوته حادة :

ــ انهم آتـون .

شـهبور يسـاله :

ـــ من تقصـــد بحديثك ؟

ـــ لا أدرى .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. أو أكثر فى مدخل المغارة شاهرين اســـلحتهم .

وجم شـــهبور .. انتابت مناع هســـتيريا . فرحه غامرة .. توالت صرخاته :

ـــ فك قيدنا يامعين .. لقد ناداهم مولاك ولبوا النداء .

معين متردد .. وصوت مناع يحثه قائلا :

ـــ أطلب منه المغفرة قبل فوات الأوان هيا يامعين .

معين يتقدم نحـــوى .. ســـوط شـــهبور يلهبه يتراجـــع .. يحاول أن يهز عقيدة معين بكلماته :

ـــ مخبولان أنضم اليهما مخبول آخر هيا لنخرج من هذا الكهف ..

وفى اللحظة التى تهيأ للخروج اســـتل معين خنجرا .. غرزه فى ظهره شـهبور يترنح .. وقبل ان تحتويه غفوة الموت تمتم :

ـــ خائن .. خائن .

* * *

معين يفك وثاقى .. منجى يجثو فوق قدمى يتمتم :

ـــ المغفرة يامولاى .. المغفرة .

فى تلك اللحظـــة دهمتنى رغبة عنيفة فى الانتقـــام من هـــذا الخنزير المترهل .. تمنيت لو أقبض بكلتا يدى على رقبتـــه حتى يتدلى لســـانه .. اطاه كما حاول معى منذ الوجيزة داهمتنى تلك الرغبة المجنونة ومناع يسألنى وهو يقبض بيده خنجرا .. لامس نصله رقبة منجى :

ـــ آمرنى يامولاى أجز رقبته كالشـاة .

كيف تعلق حياة انسان على اشـــارة .. كلمة .. بضع حروف يصبح بعدها « منجى » عدما هكذا وبدون محاكمـــة .. الخصـــم هو القاضى هو الجـــلاد .. أى نوع من العـــدالة هذا .. اختلطت على الأمور تشابكت ..

العدالة والظلم .. القوة وشهوة الانتقام .. منذ لحظات كان شهبور في موقع القوة .. وكانت له عدالته الخاصة من اجل الحصــول على الأيقونه ومنطق عدالته كان يقضى بالمــوت على كل من يعترض طريقـــه نحو هدفه .. عدالة ارتضاها هو وأعوانه .. انموذج من عدالة كثير من الحكام مع شعوبهم .. لايهم سوى الغاية .. وللوصول اليها تضيع رقاب وتقطع السنة .. وتخمد انفاس .. ويبقى الحاكم بجحافل ظلمه أمام رياح الغضـــب صـــامداً .. سنوات .. سنوات وهو يعهر شعبه الى أن تهب رياح الثورة فتذرو الرمال وتقتلع اشجار الســـخط والظلم والاظلام وتتهدم عمائر الفساد والافساد .. وبعد أن تهدأ رياح الغضـــب نشـــتم مكان الجثث المتعفنة رائحة الياســـمين والأمل .. تهت في دوامة تساؤلى .. هل يمكن أن تكون عدالتى الخاصة مثل عدالة شـــهبور .. مثل عدالة هؤلاء الحكام .. جالت تلك الخـــواطر على ذاكرتى وأنا أدفع منجى بقدمى :

ـــ اذهب فأنت طليق .

بعدها ســـألت منـــاع :

ـــ أنظر من كان القادم الينا .

واحتوتنى الدهشة ومناع يعود الى بخفى حنين يقول لى :

ـــ لا أحد يامولاى .. لا أحد .



- ١١ -

اثناء مســيرتنا سألت مناع :

ـ لم تحدثنى عن السر الاعظم .

اجابنــى فى تردد :

ـ انها الايقونة يامولاى .

ـ وماذا بهــا .

ـ تحمل سر الحياة فوق الجنة التى نعيش على أرضها .

ـ حدثنى منهــا .

ـ لا استطيع يامولاى .

قلت متضــايقا .

ـ فقدت الثقــة بى .

ـ مولاى انها اللعنة لو أفشيت بالسر .

ـ تخشى أذن من اللعنة لو صارحتنى .

ـ حقــا يامولاى .

ـ ورغم أنك تعرف فلم تحدث اللعنة التى تخشاها .

ـ لقد أقسمت يامولاى على ألا أبوح بالسر الاعظم .

ـ وتلك الأيقونة تحمل هذا السر الاعظم .

ـ نعم يامولاى .

ـ لذلك فقد تعقبنا شهبور .

ـ من ملك الأيقونة ملك القوة والسلطان .

ـ ماذا تخفى عنى يامناع .

ـ مولاى فلنترك الناس يعيشون واقعهم .

قلت بتبرم :

ـ مهمتنا أن نغير هذا الواقع الى افضل .. نبحث عن الحضارة .. ننهل من منابعهـا .

قال فى يأس ومرارة :

ـ وما جدوى ذلك ؟!

دهشت .. قلت فى اسى :

ـ أنت الذى تقول ذلك .

ـ للأسف ياmولاى .. نعم .. فاليأس يعشش على رفات الأمل .. الأمل ذبيح .. ذبيح ياmولاى .

- ١٢ -

سألت مناع ونحن نترك الراحلتين :

ـ اين نحـــن ؟

أجابنى :

ـ نحن فى الوادى المقـــدس .

ـ ولماذا هو مقـــدس ؟

ـ وادى الأنبياء ياmولاى .

ـ وماذا فيـــه ؟

ـ أنظر لترى بعينيك .

ـ لا ارى أمامى سوى أسوارا من الشوك والأنبته البرية .

ـ داخل هذا الوادى يقطن الأنبياء .

ضحكت حتى كدت أن أستلقى على ظهرى .. قلت ساخرا :

ـ هيا اذن لا تضـــيع وقتنا .

دهش مناع .. عاوده الوجوم الذى فارقه منذ أيام .. قلت فى قلق :

ـ كأنى قلت أمرا غريبا .

ـ هذا مكان مقدس ياmولاى لا تطأه قدم .. والا حلت اللعنة ..

قلت ســـاخرا :

ــ انك ترهبنى .

قال فى سذاجة عفوية :

ــ لم اقصد ذلك يامولاى .

أفرزت ضيقى فى كلمات :

ــ او ليس الأنبياء بشرا .

ــ بلـــى .

ــ اذا لماذا يستكثر علينا أن نتحدث اليهم .

ــ تقصـــد اننا نســـتطيع نقاشـــهم بما يخلجنا من افكار وآراء وشكوك .. ولا تحل علينا اللعنة .

ــ اى لعنة يمكن أن تحدث عندما نتحدث مع احد الأنبياء .

ــ مولاى ساسر لك امرا لكن كل ما ارجوه أن لا تغضب منى .

ــ انا منصـــت اليك يامناع .

ــ كثيرا ما حاورنى الشك فى هوية هؤلاء الأنبياء لكن لم أستطع أن أعلن شكوكى خشية اللعنة .

ــ أذن فقد أتيت هنـــا قبلا .

ــ وتلصصت علنى اقطع الشك باليقين .. وما رأيته أغرقنى فى بحار من الشـــك اللعين .. فقد رأيتهم .. غادون .. رائحون .. بشر مثلنا .. يضحكون .. ويغضبون يتحدثون ويأكلون .. يستمتعون .

ــ كيـــف ؟

ــ كل شىء ملك يمينهم .. لو طلبوا لبن العصـــفور لنالوه .. أنهم خاصة الخاصة .. أنظر يامولاى هذا الرجل العارى .

ــ ماذا يفعـــل .. اراه عاريا .. يتسلق شـــجرة ثم يهبط منها ثم يعود ليتسلقها من جديد وفى يده تفاحة .

● ــ انه اب البشرية يامولاى .

ــ وهذه المرأة التى تتبعه ؟

ــ حــواء .. زوجتــه .

ــ وماذا يعتقد انه يفعــل ؟

ــ انه يؤدى نفس الدور الذى قام به عندما هبط من الجنة الى الأرض وخلفه حواء تنوح وتندب حظها تشيعه نظرات الأنبياء بالشفقة والحسرة .. استمع يامولاى ماذا يقــول :

ــ يا أنبيــاء الله .. ماكنت أعرف أن عقابى ســيحيق بكم كل تلك الكوارث .. ومع ذلك فلرب ضارة نافعة .. فلو لم أهبط الى الأرض ملكان لوجــودكم معنى ولا حصــلتم على هــذا المقام الرفيــع فى أذهان البشر ولا أحاطتكم تلك القدســية وهذه الهالة التى تقطع أى لســان يتطاول على ســيرتكم المقدســة .

قلت لمنــاع فى حســم :

ــ هيــا .

سألنى فى دهشـــة :

ــ الى أين يامولاى .. والطريق ملىء بالأشواك .

ــ نحادثه .. ويحادثنا .

ــ أعفنى يامولاى .. فهذه مهمة الآلهة وليست مهمة البشر .. لكن كل رجائى أن تكون رفيقا بهم ، هم خاصة خاصتك .

* * *

اقتربت من ابى البشرية .. نظر الى بدهشة تملكنى الرعب .. الشعر يكسو كل جسده اللحية مسترسلة .. شعر الراس مجعد .. التوام فارع .. عينان جامدتان عينى صقر .. فور رؤيتى صرخ :

ـ من اذن لك بالدخول ؟

ـ جئتك زائرا .

ـ من أنت ؟

ـ واحد من نســـلك .

ـ وكيف تجرات .. الا تعلم أن هـــذا الوادى المقـــدس محرم على امثالك من الصعاليك .

اول القصيدة كفر .. قلت وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتى :

ـ سيدى أنها محاولة للوصول الى الحقيقة .

ـ أية حقيقـــة ؟

اقترب منى لمس راسى بكف يده الضخم سالنى .. وهو يضحك :

ـ اين وبر راسك هل أكله النمل .

ـ أنه التطور يا اب البشرية .

ـ يوصلكم هذا المجهول لراس ناحل بلا وبر .

ـ الأهم هو مابداخل الراس لا بما يزرع فوقها .

مددت يدى بورقة تفاح وانا أتمتم :

ـ دارى بها عورتك .

ضحك من جديد هذه المرة لم يكن ضحكا أنما كان اقرب للزئير ظهرت أنيابه حادة .. لامعة كنصل سكين .. سألته فى سذاجة عفوية :

ـ أسنانك .. قصدى انيابك ناصعة بيضاء .. اى معجون تستعمل

تلفت حوله بحذر .. اقترب منى .. همس :

ــ معجون الأنبياء بالكلوروفيل .

ضــحكت .. كيف له بهذه المعلومة .. فى الحقيقــة بدأت أقترب منه بفكرى .. انه « جاهــز » أعــد نفســـه لكل شيء .. على أن أهجم بكل حججى .. ســألته :

ــ وهل دعـ ك أيضا كانت بالكلورفيل ؟

ضحك من جديد .. أحلف باغلظ الايمان .. أننى ماسمعت مثل هــذا الزئير من قبل ولن اسمع مثله كل جســده يتارجح .. أنه ابن نكته يســعى اليها .. ويسر منها .. أجبته :

ــ لا يا أبى .. أقصد ياجدى .. الدعوة بلا رتوش .

ــ ماذا تريد أن تعرف ؟

ــ رغم انه لم يصــلنا بالتحديد جوهر تلك الدعوة ورغم أن تبنى الخير ونبذ المعصــية دعوة تدعو اليها كافة المجتمعات الدينية واللادينية .. رغم هذا كله فلى سؤال .. هل يمكن أن يعصى نبى ربه ؟!

ــ أبدا فهذا من سابع المستحيلات .

ــ وماذا فعلت أنت .

انشــق غاضــبا قال :

ــ تتهمنى بعصيان ربى .. خسئت .

ــ هذا ماوعيناه منذ نعومة أظفارنا .

ــ افتــراء .

سألته فى دهشة واستغراب :

ــ ألم يحرم ربك عليك شجرة التفاح ؟

ــ بلــى .

ــ ومع ذلك تقول افتراء .. كيف بالله عليك ؟!

ــ سأنير لك الطريق .. انظر من هذه الطاقة الالهية .

ــ أننى لا أرى شــيئا .

ــ لأنك لا تملك عين النبوة !!

ــ وما عين النبــوة ؟

ــ تستطيع بها أن ترى المنظور والمخبوء .

ــ لذلك فأنت ترى مالاتراه .

ــ هذا حال الرســل والأولياء والصـــالحين خصهم الله بها وأنعم عليهم بما يميزهم عن سائر البشر .

ــ اذن فلا عجب أن نسمع عن الرســل الذين كانوا يبصرون الملائكة والجن والعفاريت دون غيرهم من سائر البشر .

ــ نعم .. صدقت .

ــ كيف هل تحمل مثل هذه العين عدسة ميكرسكوب أم أن لها قرنية سحرية لديها القدرة على كشف المجهول ومعرفة المخبوء . فاجأنى بسؤاله :

ــ أيضا ستنكر أنك لم تسمع عن أذن النبوة !!

ــ هى الأخرى تسمع مالايســمعه البشر .

ــ صدقت فهى التى سمع بها الأنبياء حديث الله مباشرة أو بواسطة مــلاك .

ــ وأين العقل فيما تقــوله ؟

اجابنى محتــدا :

ــ فى الحذاء اذا كنت ترتديه !!

ــ اذا فأنت ترى مالانستطيع رؤيته .

ــ هل ترى تلك الأرواح الهائمة ؟

ــ الأرواح .. بدأت تســخر منى يا ملك الكون ويا أب البشرية .. قهقه .. ربت على .. انطرحت أرضــا .. كم يده ثقيلة .. قهقه من جديد وأنا أزحف لأقف أمامه .. قزما صغيرا تمتم :

ــ ظلك خفيف .

ــ تقصــد ظلى قصــير .

ــ انظــر .

قلت مدهوشـــا :

ــ اننى لا ارى ســوى فراغ .

ــ اذا كنت لا ترى أكثر من بشريتك فاجعــل من حديثى معك منظارا للمجهول ترى به الأسرار الخفية التى يعجز البشر عن رؤاها .

ــ وهكذا تتوه الحقيقة وسط الضباب .

ــ آذا قلنا أن الانسان لا يســتطيع أن يرى بالعين المجردة على مدى البصر ابعد من ألف متر فهو يســتطيع أن يرى بالمنظــار اكثر من خمســة آلاف متر .

تخايلت على الشــكوك .. فكيف له بمعرفة المنظار والمتر .. أو ليس آدم هذا الذى يحدثنى .. قد يكــون آدم آخر مثقف .. قلت له والحــيرة تنهشــنى :

ــ الى أين تتجه بحديثك .

ــ مثل آخر .. الأمى الذى يعجز عن الكتابة والقراءة .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا .. بالمناسبة هل أنت أمى ؟

أجبتــه فى ثقــة :

ــ بل أنا أبــى .

التقط المزحـــة ضـــحك من جديد .. أغترفنى فوق يــده يدللنى .. أستطرد قائلا :

ــ الأمى الذى لا يستطيع أن يميز بين الألف وكوز الذرة .. لايدرك معنى تلك الحروف المكتــوبة .. لكن ليس معنى جهله بها أنها مطموســة المضمون . والأعمى يرى الدنيا شريطا أسودا .. ولكن هذا لا ينفى وجــود اشجار خضراء وورود حمراء .. وزهور بيضاء .

قلت وقد احتوتنى هزة .. صدمة .. فأنا أســمع حديثا غريبا .. قوى الحجة .. متين البنيان .

قلت متســائلا :

ــ تقصد بحديثك النســبية .

ـ مهلا .. هذه الأرواح الهائلة ليست سوى طاقة لا يقيدها مادة .. داخل مملكة لها نظـام دقيق ينتظمها ملك واحد اله واحد .. ثم الأتباع .. الكل يعمل فى سعادة لكن مايناط بها من أعمال ليس لها مثيلا على الأرض .. أعمال من شأنها تنظيم حركة الكون من رياح واعاصير من مطر وسـحاب من زلازل وبراكين .. من اجرام وكواكب وشـموس .. مملكة اختفت فيها الماديـات .. هـذه المخلـوقات أو الأرواح تسـتمد طاقتها من البطارية الالهية .. مملكة لا حدود لها .. اختفت منها الطبقات .. فالكل سواء .. مخلوقات تعمل وتتعبد وتصلى بالتجلى على الخالق .. طاقة لها القدرة على الانتقال من مكان لآخر بسرعة البرق .. دون ما حاجة الى سـيارات أو طائرات .. ايونات خلية تحـوم حـول الذرة الالهية .. ما يميزها صـفة المعرفة .. المعرفة الكلية للخالق يقابلها المعرفة الجزئيـة للمخلوق .. الكل يعرف الجزىء والجزىء يعرف الكل فى حدوده الضيقة .. هذه المخلوقات تعيش فى سلام .. ولكن عندما حاول بعضها التمرد على الناموس الالهى .. حلت اللعنة عليهم فسـجن البعض داخل شياطين وسجن البعض الآخر داخل غرائز انسـان .

سألته والذهول يحتوينى :

ـ كيـف ؟

ـ ماذا تقصـد بكيفك تلك ؟

ـ أعنى بها كيف تمرد البعض على الناموس الالهى ؟

ـ أخطاء .. ولكنها ليسـت كتلك الاخطاء الشائعـة على الأرض كجرائم المال والنفس ابدا .. بل هى أخطاء تتصل بالذات الالهية .

ـ صلة افتراضية تجمع الله بتلك المخلوقات لا يسندها دليل منطقى أو نظرية علميـة .

لم يأبه لملاحظتى بل استطرد قائلا :

ـ هذه المخلوقات ليست سوى جزئيات من الخلية الالهية .. مصابيح صغيرة يضيئها مولد ضخم .. قد ينطفا بعضـها .. بينما يبقى هو أبدى

متجدد غير منتقص ..

مرت فترة قصيرة من الصمت قبل ان يستطرد قائلا :

ــ هذه الأخطاء جاءت نتيجة محاولة هذه المخلوقات التشبه بملكها الأعظم فى ممارســة سلطانه التى يستأثر بها .. فانزلقت بهذا الى خطأ جسـيم انتهت عن اتيانه .. وبالتالى أصبح الناموس الالهى معرض لهزات التغيير من هذه المخلوقات التى ســخرت قوتها وارادتها لاحــداث هــذه التغييرات كلما عن لها ذلك .

ــ وحق عليهــا الرجم .

ــ لم يكن أمام الله ســوى أن يضــع هذه المخلوقات داخل نواميس محددة .. اطار لا تخرج عنه .. لم يسلبها ذاتها وارادتها المستمدة منه .. بل حد من قوتها اللامحدودة .. وســجنها فى المحدود .. جســد وغرائز ورغبات ومطالب فأصبحت تلك القوة الهائلة نزيلة سجن أسمه الجسد من اللحم والعظام والانسجة الرخوة .. وليست عبقرية الانســان واكتشافاته واختراعاته ســوى الترجمة الحقيقية لهــذه الطاقة الغير محدودة الكامنة فى الجسد المحدود .. ولو أهتم الانسان باكتشاف هذه القدرات الهائلة داخله لاستطاع فى النهاية أن يطوع هذا الجسد لخدمة تلك القدرات .. ولا عجب عندئذ اذا رأيناه طائرا فى السماء السابعــة وحده دون أجنحة .. أو عابرا الفلك دون سفينة نوح أو رافعا على يديه طائر الرخ الضخم .

ــ خيال .. خيال نحن فى مملكة الخيال .

ــ يا حفيدى المسكين .. بعد أن يكتشف الانســان قدراته الداخلية ويعرف أسراره الغامضة .. ســتجد أن كل شىء فى الوجود أصــبح طوع ارادته ولن تجد فى اتيات مثل تلك الخوارق أية غرابة .

قلت له حانقا :

ــ اكمل .. اكمل .

وبعد أن سجنت تلك القدرة الهائلة أو ما يســمى بالروح داخل غرائز الجسد كنت أنا أول من تلقى التجربة على مضض .

قلت مستفسرا :

ـ اتركنى اسرلك أمرا أخفية بين جوانحى .

ـ لا ضير يا صديقى من الافصاح عما يجول بخاطرك .

ـ أن خلقك هذا غريب وتفسير وجودك أغرب ..

ـ كيـف ؟

ـ مثلك غريب .. أول اضـلاعه خلقك من صلصال بعد النفخ فيه والضلع الثانى عصيانك أوامر ربك بعد أن قربت شـجرة التفاح والثالث والأخير طردك من الجنة الى الأرض حيث الصراعات والانقسامات .

قبلنى ابو البشرية من أم راسى قبلة جدية بـعـدها قال لى :

ـ أحييك يا حفيدى على قوة تسـاؤلاتك .. والأجابة على ما اثرته تكمن فى قضـية هامة .. أن البعض ينكر وجـود الله .. فهل يعنى هـذا الانكار عدم وجوده .

انفلتت أعصابى أجبته بضيق مكتوم :

ـ رغم احترامى الشديد لك لكن أجابتك لا تختلف عن اجاباتهم ..

اقول لهم ثور فيسألونى أن أحلبه .

ـ أخبرنى عنهم .

ـ انهم رجال يرتدون القلنسوه السوداء والرداء الأحمر .

ـ القلنسوه السوداء رمز العقل .. والرداء الأحمر رمز الرغبات .

ـ تقصد بها الكلمة والرغبة فى رؤية الدم .

سألنى فى فضـول :

ـ قل لى .. لماذا تشد عليهم النكير ؟

ـ مخلوقات مازالت تضرب اخماسا فى اسداس واذا بالنتيجة صفر اليدين .. قل لى يا أبا البشرية .. من أنت وهم أم حقيقة ؟!

انفلتت أعصابه .. كما حدث لى منذ لحظات .

أجابنى بحـده :

ـ وأنت من تكون يا نملة سليمان ؟

تقدم نحوى .. دفعنى بأصبعه الخنصر ·· لم أدر بنفسى الا وأنا فى مكان بعيد .. بعيد جدا . لا أعرف مداه .

- ١٤ -

استفقت على رجل عجوز .. ينحنى بهامته العملاقة نحوى .. وجهه وسيم رغم تلك اللحية الطويلة .. على محياه ذكاء فطرى .. داخل عينيه حزن عميق تتوقدان بالمعرفة وحب الاستطلاع .. يملأ فمه بالماء .. يرش وجهى ·· مكوجى يعد الملابس للكى .. سيلا من الماء يتدفق فوق رأسى .. وجهى ·· ملابسى ·· تخايلت على شفتيه بسمة حانية .. وأنا أبحلق فى هذا المخلوق الذى يوقظنى من أغماءة طويلة ثم يتركنى الى عصا حلوة رقيقة ناعمة .. عذراء فى ليلة زفافها .. أخذها بلهفة بين أحضانه .. قبلها ·· جلس القرفصاء ·· انحنى الى حجرين يدلكهما ببعضهما تتطايرت شرارة .. أوقد نارا .. ارتفعت ألسنة اللهب .. تساقطت دموعه .. وهو يتلو بكلمات أغلب الظن أنها كلمات سماوية زرقاء !! هم بقذف العصا الى النار تردد .. اسقط فى يدى .. أسرعت اخطف منه العصا .. أخيرا العصا السحرية بين يدى رحت اضربها فى الأرض .. ألطم بها ماء الجدول فلا الأرض انشقت ولا الجدول التئم أخذت احركهما يمينا وشمالا .. وشرقا وغربا وأنا اتمتم :

ـ جلا .. جلا .. جلا .

بلا فائدة لم تلد حية ولا ثعبانا ولا حتى سحلية .. اعطيتها له وأنا أهمس :

ـ لا تستحق سوى الحرق .

قذف بها الى النار .. بكى .. اشفقت على دموعه ·· شلال نياجرا الى هذا الحد .. حقا فهى رفيقة عمره .. أعطته كل شىء ·· القوة .. والمعجزة والهيبة والرهبة .

قلت له بأسى :

ــ لا تحزن يا والدى .. هكـــذا الدنيا يوم لك ويوم عليك .. البقية فى حياتك .

أجابنى بصـــدق :

ــ أنها سـبب محنتى .. رغم اننى أحببتها .

ــ غريبـــة !!

ــ وأى غرابة فيما أقول .

ــ أن يحب الانسان ما يعذبه أليس فى هذا غرابة !

ــ تماما كما يحب الآباء أبنائهم رغم عقوقهم وتعذيبهم أياهم .

ــ لكن أى محنة تلك التى سببتها لك هذه العصا .

ــ محنة الأسطورة التى ارتبطت بها

ــ رغم وضوح ألفاظك فلم أفهم ماتريد الافصاح عنه .

أشار الى العصا والنار تلتهمها وقال :

ــ لقد شـــقت اليابس ليصـــبح بحرا يغرق فيه الكفره .. والتهمت ثعابين السحره وأنا ماذا كان دورى ؟

انفعل وهو يســـتطرد قائلا :

ماذا كان دورى اذا كانت تلك العصــــا حققت كل هـــذه المعجزات .. قل لى ماذا كان دورى ؟!

ــ حتى الآن لم تصـــل للقلب .

ــ أخشى لو نفذ اليه سهم الحقيقة .. لأرديت الجسد قتيلا .

ــ لا تقلق .. فسأكفنه معك بأحلى وأجمل ثياب الخيال .. وسنزين صدره بنياشـــين الخرافات .

سكت قليلا .. يرشف ماء ثمرة جوز هند .. أستطرد بعدها قائلا :

ــ رمز يعبر عن الصراع بين الخير والشر .. وكيف انتصرت عصـــا الخير على شرور الكهان وأغرقت الكفرة فى محيطها القاتل .

ــ تعنى أن القصة كلها لم تتعد سوى هذا الرمز الواضح الصريح .

ـ صـــدقت .

ـ لكن كثيرون سيرفضون هذا التفسير .

ـ عليهم أذن ان يصدقوا القصة بحرفيتها .. لكن أخبرنى قال ذلك ثم انحنى يمسكنى من تلابيبى .. يرفعنى الى أعلى .. قشه يحركها اعصار هائل يسالنى فى فضـــول :

ـ من أنت وكيف وجدتك بالحالة التى كنت عليهـــا تذكرت فى تلك اللحظة جريمة القتل التى ارتكبها منذ آلاف الســـنين .. هذا مصـــيرى .. خفت أن يهوى بى الى أعماق الوادى السحيق .

تساءلت لماذا هؤلاء البشر منفعلون غاضبون دائما .. تذكرت كلمات مناع « حاول أن تكون رقيقا معهم حتى لا يمزقوك أربا » .. قلت :

ـ مهلا خلـــوا .. لا تجذبنى هكذا فتقتل نفســـا بدون وجهِ حق ..

رد بذكاء لماح وهو يترك ثيابى :

ـ أنت تعنى جريمة القتل أياها

قاطعته قائـــلا :

ـ كما عهدناك تعرفها وهى طائرة .

أســـتطرد قائـــلا :

ـ لم يكن سوى شجارا كنت الغالب فيه .

ـ وهل تعلم عقوبة القتل ؟

ـ لمصلحة من تحاولون تشويه صورتى ؟

ـ أرفع قليلا من صوتك حتى أفهم ما تعنيه الكلمات .

زعق قائـــلا :

ـ من تريدون من الرسل أظهاره فى صورة الكمال بتضـــحيم اخطاء من ســـبقوه .

ـ افهم من هذا أنك لم تقتل .. وجريمة القتل ليست سوى رمز .

ـ بل أمنية طالما سعيت لتحقيقها .

ـ ويأســـت .

ــ بل تركت لشعبى الآن مهمة تحقيقها .

ــ شعب باسره يقتل رجلا واحدا ــ عجبا .

ــ بل يقتـــل رمزا .. لتصـــبح ارض الوعد حقيقـة واقعـــة .. هل نســـيتم ؟

ــ ماذا تعنى بسؤالك ؟

اذا كنتم قد نســـيتم فنحن مازلنا نذكـــر آلام التشريد والتعـذيب والغزوات والانتقام البربرى .. وتقتيل المئات المستسلمة وذبحها .

ــ تقصـــد ثار قديم .

ــ بل جرح غائر .. لا تتعجل فنحن فى الطريق .

ــ أى طريق تعنى ؟

ــ طريق الاجهاز على هؤلاء القوم المحصن خلف أسوار الاخلاقيات المنحطـة والمبـادىء المنعدمة .. والمثاليات الفقـيرة .. والفكر المدحـور

ــ قل لى ياجدى كيف تحدثت مع الله ؟

ــ كما احدثك الآن .

ــ وجها لوجــه ؟

ــ ولم لا .. وأنا نبى شعبه المختار .

ــ ومع ذلك فلم نجد آثرا واحدا يستدل به على قصتك .

ــ تقصد أننى وهم .. لا ليس صحيحا والدليل على ذلك الوصايا .

ــ هل يعنى وجودها ارتباطها بك انت .

ــ لكم يحزننى محاولاتكم المســـتميته افـراغ التاريخ من المعانى الخالدة الباقية على طريق اليقين .

ــ محاولتنا هى مسح الصدأ عن التاريخ لا طمس معالمه .

ــ هذا العلم نبيكم الجديد استبدلتموه بنا .

ــ انه المستقبل .. وأنتم الماضى .

ــ لتأخذوا منا عبرة .

ــ العبرة أن تدعو الله على عشيرتك بالتوهان فى الصحراء ؟!

ــ بعد أن تمردوا على تعاليمى .

ــ وهل يقبل الله دعوات الخراب ؟

ــ انه ســـميع مجيب .

ــ قل لى ياسيدى بعد أن نجردك من الوصايا ماذا قدمت للانسان ؟

ــ الانســان ليس ســوى مجموعة من الأعمــال الخالدة لجمع من الحمقى ويذهب الداعية .. ويروح الحمقى ولا يتبقى سوى العمل الخالد .

ــ تقصـــد أنه لا يتبقى لك سوى وصايا .

ــ انها ترجمة حقيقية للخير .

ــ وهذه الأساطير التى امتزجت بها .

ــ قلتها اســـاطير .

ــ من اذنك .

ســـألته :

ــ الى اين ؟!

ــ بدأت النار تخبـــو .

ــ اتركها وشأنها .

ــ حتى تبقى النار مشتعلة .. سألقى بعصا ثانية وثالثة أو رابعة ..

ــ ولو .. مهما حاولت .. ســـتبقى تلك الأســطورة حيـــة .. لا تموت .. رتطاء تلدغ كل من يفكر فى حرقها ونثر رمادها .

ــ ١٥ ــ

استدرت لأعود واذا بى أمام انسان لا يصدقه عقل .. رجل طويل .. عريض المنكبين كث الشـــعر .. تصـــل لحيته لأســـفل صـــدره قدماه مفرطحان .. كبيران أعتقد أن مقاس قدمه لا يقل عن ســـبعون .. ثمانون لا أدرى من أعلى كتفيه يتســـاقط ســـاعدان .. يتأرجحان وهو يســـير الهوينا .. أسد فى غابة لكن فى خفة طاووس يتخايل فى حديقة .. سحبنى من ذراعى .. رحب بى .. اتجـــة الى حـــوض ملىء بالماء .. انحنى ..

اشــار الى ان اقف فى الطرف الآخر من الحوض .. دفع بسفينة صــغيرة تطفو فــوق الماء .. تلقفتها بيــدى .. لا ادرى ماذا يريد ٠٠ ولماذا يفعــل ذلك .. الا اننى دفعتهــا انا الآخر تجاهه .. فرح ٠٠ دفعها من جديد ٠٠ مرت ساعة وانا العب معه هذه اللعبة السخيفة .. ضقت بها قلت له :

ــ لقد تعبت ياســيدى .

ــ حسنا هيا لنتناول مشروبا باردا ..

ــ احسنت صــنعا ..

قــدم لى كوبا .. ورقة شــجر خضراء .. قرطاس لف بعناية ٠٠ امسكت بالكوب وقبل أن يروح السائل الهلامى من فمى سألته :

ــ مشروب الجنة اليس كذلك ؟

اجابنى :

ــ حقا فهو بول الملكات !!

ترددت واذا به يصرخ فى وجهى :

ــ اشرب والا دعــوت عليك بطوفان يقصــف عمــرك ويغرقك فى أعماق المحيط .

ترددت من جديد واذا به يحذرنى قائلا :

ــ هيــه .

قذفت بالقرطاس .. تناثرت قطراته .. نظر الى الأرض بحسرة ٠٠ صــاح مهتاجاً :

ــ لقد أغضبتنى .. ولن اتوانى عن طلب الموت لك ولكل من يؤازرك

قلت بهــدوء :

ــ معــذرة ياســيدى .. فما قدمته لى مشروب غــير مألوف .. لا تستسيغه النفس .. من الصعب التآلف معه الا فى حالة واحدة .. أما عن طريق الفم فهذا مســتحيل انفرجت اســاريره .. صــحبنى من يدى الى مكان خال سألنى :

ــ هل تســمع ؟

ـــ نعم .. ما أســـمعه هو ازيز النحل .

ـــ بل ازيز ملكات النحل .

ـــ الآن فهمت ياسيدى .. وليس أمامى ســـوى أن أقدم اليك عذرا ممهورا بخاتم النسر .

ـــ اشكرك .. اشكرك .. هيا نلعب بالسفينة .

ـــ سيدى أننى لم اطأ هـــذا المكان .. ولم اخاطر بحياتي من أجل هذه اللعبـــة .

ـــ هات من عنـــدك .

ـــ أريد خبيثا .. ترتجف منه الابدان .. ولا تحتار فيه الاذهان .

ـــ أنا منصت لك ومجيب على كل خواطرك .

ـــ لا تؤاخذنى اذا بدأت حديثى معك عن حكايات ألف ليلة وليلة .

ـــ لم أسمع بها ولم تحدث فى عصرى .

ـــ انها ليست سوى حكايات ملأى بالأســـاطير .. وعششت عليها الخرافات ومع ذلك فقد بقيت حتى الآن محفـــوظة من قرن الى قرن دون أى تعديل أو تحريف حتى لقد قيل أن الله حافظ لها .

ـــ وما صـــلة هذا بنا .

ـــ قصتك تذكرنى بواحدة منها .

ـــ اى قصـــة تعنى ؟

ـــ من الألف الى الياء منذ أن بدأت تدعو القوم الى عبادة الله الى أن هبطت بسفينتك على قمة الجبل .

ـــ اى ســـفينة تلك ؟!

ـــ لا أقصد هذه اللعبة التى تدفعها الآن وأنا أردها لك .. بل تلك التى رحلت فيها ومعك أهلك وعشيرتك وذوى قرباك الذين آمنو بك بعد ان جمعت فيها من كل زوجين أثنين .

توقف قليلا عن اللعب .. نظر الى مليا فى دهشة أجابنى :

ــ الآن تذكرت .. ماذا يشغلك من أمرها .

ــ كل شيء عنها .. منذ اللحظة التى عقدت فيها اتفاق جنتلمان .. وبناء عليه تمت من جانبك بصنع سفينتك .. وقام الله بتفجير الينابيع .. وفتح المجارى وارسال المطر حتى طفت سفينتك . الصالحين فوقها والظالمين تحتها يغرقون فى لجة الطوفان الى اللحظة التى أستقرت فيها السفينة على قمة جبل نوى بعد أن قامت الشفاطات الالهيــة بسحب المياه .. وافراغ الأرض من الأوحال .. وتنظيفها ورصفها !!

ابتسم الرجل ابتسامة نووية واسعة قال بعدها :

ــ وما الغرابة فيما قلت ؟

ــ حاولت اكراه الناس على اعتناق عقيدتك بأن خيرتهم بين المــوت أو اتباعها .. ثم سلطت الطوفان على من جحدك فابتلعه .

ــ وهذا أيضا ماذا يدهشك فيه .

ــ أولا .. لا أكراه فى العقيدة .. ثانيا من آمن بك عن خوف من الموت فهو على كفره لأنك لم تغير مفهومة حــول عقيدته كل ما فعله أنه ســايرك خشية الموت .. ثالثا من غرق على كفره وفضل الموت فقد فشلت فى اقناعه بعقيدتك .. وهذه الصورة لا تخرج عن شخصية الفتوة الذى يفرض اتاوات على الأغنياء ليعطيهــا للفقراء ويخيرهم بين الدفع أو المرمطة ولحس التراب الهدف لا ينكر أحد ســموغايته .. تحقيق المساواة .. العــدل .. الا أن الوسيلة يرفضها العقل .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل يمكن أن يصــبح الاله طرفا فى مؤامرة لقتل الانسان .. حتى ولو كان هذا الانسان قد عصى اوامره .. وهل قانونه ناقص الى الحد الذى يجعل من الثأر والانتقام واحد من اعمدة شريعته .. لا أظن .

ران الصمت .. مسافة طويلة من التساؤلات تفصلنى عنه .. غريب عنى لا أفهمه وهو يسالنى :

ــ الى أى شيء تهــدف .

ــ قصــتك غير مقنعة .. لاتتفق احداثها مع التفكير المنطقى لذلك

فلا مناص أمامنا سوى أن نضعها فى جعبة الخيال .

ــ كل هذا لأننى خيرت الناس بين الموت أو الدين .

ــ أيضا لأنك صورت الاله فى صورة بشرية مجردة .

ــ غبى .

ــ الذى هو انا .

ــ الذى هو انت وامثالك .

ــ لماذا ياسـيدى تسبنى .

ــ لأنكم حولتم المعنى الى حدث والرمز الى واقع .

ــ كيف .. خبرنى ؟

ــ السفينة ياصـاحبى ليست سـوى رمز لدعوة الخير .. من أيد دعوتى فقد ركبها الى بر الأمان جبل السـلام ومن أنكرها فمصيره الغرق فى طـوفان الشر .

ــ وابنـك ؟

ــ أحد الغرقى فى بحار الرذيلة .

ــ ومفهوم من كل زوجين أثنين .

ــ رمز لمكاسب الانسان المزدوجة على مر السنين .

ضاقت بى نفسى .. تملكنى الغضب صحت زاعقا :

ــ كلكم تتحدثون بالشفرة .. أين أذن الحقيقة المجردة ؟

رد على بابتسـامة نوويه . مرعبة جبـارة .. ازلية .. قديمة ..

أجابنى :

ــ يا حفيـد احفادى اراك تبحث عن الحقيقة فى مملكة الخيال خذها نصيحة .. ثدى الخيال لايدر أبدا لبن الحقيقة .

تركته وأنا ازعق :

ــ أين أذن الحقيقـة المجـردة .

على أن ابحث عن الحقيقة فى مكان آخر .. بدأت اخطو خارج الوادى الدروب كثيرة والمنحنيات متعددة والطرق متفرعة .. متقاطعة .. تهت وسط الاحراش . رأيت شابا جميلا .. خصلة من الشعر تزين جبين يشع منه العظمة والسلطان .. جالس فوق الأرض الخضراء .. أمامه أربعة عشر بقرة .. سبع سمان .. وسبع عجاف لعب صنعها من الصلصال .. يحرك العجاف لتاكل السمان .. فتولول السمان وتصرخ وتندب حظها حتى اذا ما أكلتها عادت لسيرتها الأولى .. اقتربت منه سائلة :

— اين الطريق الموصل الى الخارج ؟!

بهرتنى وسامته .. كلماته المرتبة المنمقة :

— غريب عن الديار .

— نعم زائر قضى أكثر اليوم فى واديكم ويريد الخروج ليبحث عن الحقيقة .

— مرحبا .. يامرحبا .. اردت الحقيقة .. وها هى أمامك .

— تقصد بها هذه البقرات المصنوعة من الصلصال .

— نعم .. حقيقة التاريخ والحضارة .. أيام قحط تعقبها فترات أزدهار .

— لكن كيف تأكل العجاف السمان ؟!

— عندما يأتى القحط .. فلا يصبح أمام الناس من وسيلة الا استنزاف ما ادخروه فى أيام الرخاء .

— ولماذا سبعا .. لماذا لا تكون ثمانية .

— سبع سموات .. سبع الوان .. سبع طبقات واستك !!

ضحكت .. قلت فى دهشة .

— حتى الاعلانات تعرفها !!

بدات استريح لصحبته .. لنكتته .. قلت له فى مودة :

ــ هل تعلم ياسيدى انهم أطلقوا اسمك على اندر الفواكة واحلاها

قال مبتسما كما الوردة عندما تتفتح أوراقها :

ــ احقا ما تقول ؟

ــ ولكن ليست فى ملاحتك .

ــ صدقت فما أن ترانى فتاة أو امرأة حتى تنتابها حالة من الهوس الجنسى والتوهان العقلى .

ــ رغبة منها فى تذوق اليوسفى .

ــ انظر الى كل هاتة النسوة أنهم يطلبون شمولهن بنظرة او حتى اشارة .. دون جدوى .

ــ التقل صنعه .. لكن ماحدث مع امراة العزيز لا يتفق مع هذا الدلال والتدلل .

ــ الحب يصنع المعجزات .

ــ احبتك .. وظلمتك .

ــ حبا جارفا .. وظلما كبيرا .

ــ وأنت ؟!

ــ الحب لم يحرمه دين أو شريعة .

ــ أحكى لنا كيف اختليت وهممت بها ثم كيف جاءك البرهان فتركتها على نار « تقرمش » .

ــ هذا اتهام ظالم .

ــ رموز أخرى .. لقد زهدت الحديث عنها .

ــ مثل هذا الاتهام يصمنى فى رجولتى فكيف أكون فى سرير مع امرأة جميلة منتشية تعشقنى .. وأهم بها .. وتهم بى ثم أتركها هاربا .

ــ تقصد أن القصة لا تستقيم مع الواقع .

ــ بل قصد بها تشوية سمعتى وأظهارى بمظهر الضعيف جنسيا .

ـ اذا كنا سنصـــدق انك لم تختلى بها .. وأنـك لم تهم .. فما اساس تلك الرواية .

ـ بنيان بلا أســاس ليس لة وجـود .. فكيف تبنى بيتا دعائمه فى الهــواء .

ـ نقصد دعائمه فى الوهم .

ـ صــدقت .

ـ ومع انكارك هــذا فقد دسست لأخـوتك مكيال الذهب واتهمتهم زورا بالسرقة .

ـ ياحفيدى .. ماذا تعتقدون فى الأنبياء .. انهم بشر يخطئون .. ويطلبون المغفرة ويذرفون الدمع ندما وحسرة . منهم من عصى ربه .. ومنهم من قتل نفسا بغير حق .. ومنهم من اســتعبد الناس .. وقتل الآلاف .. وشرد المئات .. واتهم زورا .. انهم غير معصومين .

ـ كم تعجبنى صراحتك .

ـ المشـكلة أن تقديسـكم لنا وصـل الى حد التاليه .. وضـعتم الأنبياء فى بروج علجيه .. لا يدنسـها الشر ولا تمسـها الغرائز . خولتم الأنبياء من بشر الى آلهه أو انصـافها معصـومة عن الخطا لا يستطيع أحد أن يتناول اخطائها .. أو يشـوه كمال سـيرتها تجدون الأخطاء وسرعان ما تصنعوا لها المبررات .. القاتل برىء رغم أنه قتل .. العاصى لا يعاقب رغم أنه ارتكب معصـية .. مع اننا نملك ما تملكون من غرائز .. من حب البقـاء للتملك .. للجنس .. كل الغرائز نشـارك البشر فيها .. لكنكم تصرون على وضع الأنبياء داخل اطار صاعق لا يستطيع احد لمسـه أو حتى الاقتراب منة .

ـ أنهم رجال الدين .

ـ تقصـد بهم هؤلاء الذين يرتدون القلنسـوه السـوداء والثوب الاحمـر .

ـ بلـى .

ـ وهؤلاء ألا يملكون العقل ؟

ـ العقـل مغلق .. مقفل على كثير من الخرافات .. باتت معها الحقيقة نقطة صغيرة فى بحار الوهم .

ـ تقصد بالوهم سير الأنبياء .

ـ ما تعارف عليه الناس ليس سوى مجموعة من التهويمات لا تصلح لبناء حضارة فأين الحقيقة ؟

ـ سمعت من يتحدث عن الوجود المطلق .. والحقيقى .

ـ زدني علما ياسيدى .

ـ الوجود المطلق يبقى غير معلوم .. مبهم طالما لا تؤيده حقيقة .. فاذا حدث تحول الى وجود حقيقى ..

قلت زاعقا :

ـ آخر اختراع لكشف حقيقة الأنبياء .

- ١٧ -

خروف ناصع البياض .. لا مثيل له .. فى أذنيه قرط ذهبى .. حول عنقه حبل علق عليه سبيكة (ماشاء الله) من الذهب الخالص .. وبأرجله خلاخيل من الفضة .. يسير بها وسط الحيوانات .. يبصـق عليهم .. يبول على رأس كل من يعترض طريقـه .. يتهـادى فى مشـيته .. والحيـوانات تحسده .. تنظر اليه فى حسرة .. فهو الخروف المقدس الذى ضحى بالثمين الغالى (جسده المكتز) عندما سيق للذبح .. الحوت (يبلبط) فى الماء تنظر اليه الحيوانات شذرا .. أنه هو الآخر ملك الماء بلا منازع .. فقد حمل يونس أياما وليالى فى معدة تطحن الزلط دون أن تؤذيه بل أوقف كل عمليات الهضم وأرسل اليه نافورة من الهواء يتنفس بها داخل سـجنه المظلم .. أيام وليالى بات يفترش نسيج معدته الاسفنجى .. ينام على وسـادة هائلة من الأسـماك

والأصداف واللآلىء حتى تم الافراج عنه .. انه هو الآخر يهز ذيله الضخم الأسود تيها وغرورا .. يقول للخروف كلما كثيرا .. أنت أنقذت الابن المعجزة وأنا حملت النبى داخل بطنى .. أياما وليالى وهنا على وهن .. فما احرانى بالتتويج على مملكة الحيوان . وهذه النملة هى الأخرى تتراقص بفكيها ووسطها الرقيق وقد دارت عورتها عن العيون المتلصصة ترتدى بذلة رقص صنعت خصيصا لها فى مصانع الحاج سليمان .. لا يظهر منها غير الرأس والعينان .. أما الأطراف والبطن والأرداف فحرام أن تزفها العيون وأن تلمسها الأيادى فهى من المحرمات .. وجزاء مرتكبها النار خالدا فيها أبدا .. وابدا هذه تعنى مدة طويلة جدا .. جدا .. لا نهاية لها ..

وقفت النملة « تردح » بأعلى صوتها لهذا الخروف « يادهوتى .. يادهوتى .. حط ايده على سوعتى» !! قالت ذلك وضربت على صدرها تأوهت من وقع الضربة « أى » ثم عادت ترقص .. وتغنى .. أنها الأغنية التى كانت تغنيها امام الحاج سليمان .. الوحيد الذى كان يفهم لغتها وهى تمشى فى الأرض مرحا .. تخرقهما .. تكاد أن تبلغ الجبال طولا .. لأنها هى الأخرى فهمت لغة الحاج سليمان .. وهو يتقدم بحذائه الضخم وحذرت عشائرها من النمل أن تبتعد عن طريقه حتى لا تدوسها الأقدام المتوحشة .. وسمعها سليمان .. فابتسم ابتسامة .. مجرد ابتسامة .. زلزلت الأرض بعدها زلزالها .. واندفعت براكينها .. فما بالك لو ضحك .. أكيد ان القيامة ستقوم قيامتها .. لو عن له وغامر وضحك .. قنبلة نووية سليمانية .. ضحكانية !! النملة مازالت ترقص وحولها الحيوانات المقدسة يصفقن ويطربن على أنغام خلاخيل الخروف وتصفيق ذيل الحوت فى الماء .. ونباح مبروك كلب الكهف .. الكلب الذى راح فى النوم بقدرة قادر بلا ذنب ولا جريره .. ثلاث قرون من الزمان وهو فى غيبوبة النوم وعندما استيقظ .. وجد الحال غير الحال . الكلبة « لاكى» التى كان يحبها ويعشقها ويطئها دون باقى الكلاب ماتت بالذبحة الصدرية .. ذهب اليها حيث دفنت وكان حزنه عاصفا شديدا .. لا لأنها دفنت (سكيتى) بلا زيطه أو صوان أو مقرىء على روحها الطاهر .. ابدا بل لأنهم لم يضعوا لافتة على قبرها

توضح عمرها .. وسنة موتها .. وسبب وفاتها ٠٠ بات تلك الليلة مهموماً حزيناً وهو بجوارها لا يفارقها ٠٠ وعندما قرصه البرد أخذ ينبش الأرض .. وصدم عندما هز جثتها .. سمعها تتأوه وتقول :

— اتركني ٠٠ فأنا مازلت أحلم بحبيبي الذى هجرني ..

وفتحت عينيها .. لتجد أمامها حبيبها الكلب مبروك . عجبا للسماء ٠٠ وللأرض ٠٠ وللهواء ثلاثمائة عام تستيقظ بعده الهوام لتدب فيها الحياة !! والآن هذا « مبروك » وخلفه « لاكى » يصفقون للنملة بكل مالديهم من ارادة للحياة .. والكل يصفق ويغنى ماعدا ذلك الهدهد المنطوى الذى وشى بملكه سبأ .. أنه حزين منذ هذا اليوم .. فمنذ لقائه الأول معها ٠٠ وترحيبها به وهدهدتها له وهو واقف على فخذها الطرى ممنيا النفس أن تستبقيه فى ضيافتها خاصة بعد أن كشفت له عن جمالها البض الفتان وهى تتعرى من ثيابها فى مخدع نومها مع عشيقها الذى نقره فى مقعدته العارية فهب فزعا يسعى للخارج .. يصرخ متألما والدم يسيل منه :

— مؤخرتى ٠٠ مؤخرتى .

لقد ندم أشد الندم أنه وشى بها .. وهو الآن فوق غصن شجرة يغنى أغنيته الحزينة .. « كان ملى وملها وقعت فى حبها وجمالها » ويذرف دموعه فى نهر الندم . فجأة انشقت الأرض عن رجل طويل .. عريض المنكبين .. قوى البنيان فوق كتفه الأيمن صقر .. وعلى كتفه الأيسر بومة .. وفوق رموشه تقف حدأة .. تزحلقت على الأرض وهو يهشنى كما يهش ذبابة خلفه .. لا ادرى رجلان أم وحشان .. أم عملاقان ٠٠ تقدما نحوى حملانى سأله أحدهما ؟

— هل نسقطه فى الفضاء يامولانا .

صرخت :

— لا .. لا .. ياسيدى فقد دخلت بجواز مرور معتمد من ادارة جنتكم الموقرة لتسمعونى .

— اجابنى :

ـ لكن ألا تعرف أن هذه الحديقة مقدسة أمتلك حيواناتها وانك ارتكبت اثما كبيرا بدخولها دون أذنى .

قلت وأنا اقدم له المستند :

ـ ما هو ياسيدى .. وعليه خاتم النسر الذى تملكونه .

ـ آه .. آه تذكرت .. أجلس أذن واسترح .

ـ كيف .. وقد أفزعتنى .

ضحك .. مددت راحة يدى الى فمه .. اغلقته .. قلت :

ـ كفى .. اتريدها زلزالا .

سكت .. اجلسنى بجواره .. سألته وأنا ارى ورائى نفس الوحشان :

ـ هذان الشحطان .. ماذا يفعلان .

ـ حارساى .. الجن الأحمر (زغبوط) والجن الأزرق (عطعوط) لا تقلق فانت فى أمان معهما .

ـ اشكرك .

ـ انظر لهذه الحيوانات .. لقد دبرت لثورة كادت تهدم مملكتى .. ولكن (زغبوط) و (عطعوط) اجهضا الثورة فى بدايتها .

ـ أيضا فى غمضة عين وانتباهتها .

ـ مازلت تذكر .. كانت أياما عظيمة .. ما بقى منها سوى اطلال .. كل هذه يا ابنى اطلال العظمة والسلطان .

ـ أيضايقك لو أخبرتك اننى لم اصدق قصتك .

انخض .. افترش وجهى بعينيه زعق .. (لماذا كلهم يزعقون هكذا)

ـ أى قصة تعنى .. أن قصصى كثيرة .

ـ حديثك مع النملة .. وحديث النملة معك اذا صدقت أن لديك قدرة على فهم أصوات الحيوانات .. فهل مثل هذه القدرة يملكها النمل ؟!

أشار الى زغبوط وعطعوط .. انحنيا اليه .. همس لهما .. خفت أن

ينالنى سوء احتوانى للصمت .. واذا به يقول :

ــ اكمل .. اكمل .

قلت ومازال الرعب يسيطر على وجدانى :

ــ ليس قبل أن تؤمنى على حياتى .

عادت الثلاث رؤوس تقترب ثم تنفرج تبع ذلك صوته الجهورى :

ــ لك الأمان .

ــ لقد اذهلت العلمــاء .. ودوخت العباقره بخيالك الدافق وجعلت العلم أمامك قزما صــغيرا بعد أن نقلت عرش الملكة بأسرع من الضــوء .. فكيف بالوسيلة ؟! أم أنها حواديت كتلك التى سمعناها عن أمنا الغولة .. والجنية ذى الشعور الخضراء التى تذهب بحبيبها الى مملكتها فى قاع البحر تلقمه الثدى الخيالى .. أم فارس بنى أوهام الذى يغرز رمحه الأسطورى فى بطن التنين الموغل فى الاسوداد لينزف دما أسودا !! ران الصــمت .. واذا به يقــول :

ــ أكمل .. اكمل .

ــ وجنودك من الجن أين كانوا يقطنون .. هل كانوا مع جنودك من الانس (ســوا ــ ســوا) أم فى مكان آخر تناديهم فيلبــون .. تطلبهم فيسجدون .

اقتربت رؤوس الثلاثة .. بعدها رأيت أربع سواعد عملاقة تحملنى الى اعلى وأنا أصرخ ..

ــ لقد امنتنى على حياتى .. أين العهود .. أين المواثيق .

وجـدت نفسى مفترشـا الأرض ملتحفا الفضـاء مصـابا بارتجاج فى المخ .. وكسر فى عظام الساعد الايمن .. يعالجنى رجل وخط الشـيب راسه .. يسالنى بعد أن وضع جبيرة على ساعدى .

ـ من انت وماذا تفعل ؟

ـ انا المستقبل كنت أريد التحدث مع الماضى .

ـ لمـاذا ؟

ـ لاصرعه قبل أن يصرع الملايين .

ـ لمـاذا ؟

اجبته قائـلا :

ـ الخرافات ياسـيدنا .

ـ لمـاذا ؟

كأنه علق على (لماذا) هذه سألته أنا الآخر :

ـ لماذا ماذا ؟!

أجابنى :

ـ لماذا تحارب الخرافات ؟ .

ـ أنهـا آفة الآفات .. علينـا أن نتخلص من شرورها قبـل فوات الأوان .. وغدر الزمان .

ـ أتركها فى حالها فهى الواحة التى يجد فيها الانسـان حلمه الذى يترقبه كل ليلة قبل نومه .. يرى من خلاله الشجاعة والاقدام .. القوة والغرابة والخيال .. فما اجمل الخيال وما احوجنا اليه .. به تتفتح المشاعر .. وتستيقظ الأحاسيس .. تستمتع معه بكل ما تفتقده من مساواة وحرية .. وعدالة .. ترضى بما كتب عليك .. الحاكم الظالم .. والرزق اليسير .. يصبح معها للصراحة مرض والجرأة غباء .. تعيش فى جنة خيالية تعثر عليها

بين انقاض العقل .. واطلال العلم وسحابة الغموض والحيرة ماترك هــذه الخرافات لحال سبيلها .. تمضى الى غايتها تخفف آلام الفقراء ترفع عنهم معاناتهم .. تعدهم بالراحة بعد العناء بالجنة بعد الفناء :

ــ اريدها جنة حقيقية .

ــ يكفى أن يحلم الناس بها .

قال ذلك .. بعدها ران الصمت .. عاد يحدق فى وجهى يسالنى :

ــ لكن من أنت ؟

ــ أنا زائر .

ــ اخشى أن تكون مثــل هذا المجنون الذى شــــوويناه على السـيخ منذ اســبوع .. هلعت .. أخذتنى لجة الشك .. اين أنا ومن هؤلاء .. ابدا .. ليسوا الأنبياء .. بدأت اســـترجع حديثى معهم .. لديهم القدرة على التلاعب باللفظ .. لسانهم يقطر عسلا أشهى من بول ملكات النحل .. ولكن معلوماتهم عن أنفسهم استقوها من الكتب الصــفراء .. ابدا ليسوا الأنبياء .. العبارة الأخيرة تدق على عقلى .. « مجنون شويناه على سيخ » ليس ببعيد أن يفعلوا بى مثله احترت .. هل أكمل مســـيرتى أم اعود من حيث أتيت .. انهالت على الذكريات ..

ــ مستشفى للأمراض العقيلــة .. ونزلاء.. ومجمــوعة من الخبراء والمتخصصين يسألون واحد من النزلاء أمى لا يقرأ ولا يكتب .. السؤال تلو الآخر .. عمليات حسابية معقدة ..جمع وطرح وقسمة وضرب .. عمليات يعرفون نتائجها مقدماً .. لم يخطىء النزيل فى عملية واحدة يومها آدعى أن انشتين حل فى جسده .. جسد عبد السميع العايق وآخر ادعى أنه نابليون اجاباته صحيحة .. ســـليمة حتى فى أدق اسراره .. نابليون فى مخدعه .. مع عشـــيقاته .. يتحــدث الفرنســـية بطـــلاقة رغم انه لم يتعلم حرفا منها .. ولم يدخل مدرسة والاغرب من هذا ذلك الذى ادعى أنه تقمص روح المسيح .. يشفى المرضى .. ويعالج باللمس لعل ماأراه الآن ليس ســـوى تكرار لما اتذكره .. سرادب من الشك أسير فيه وحدى .. شـــعاع من نور

يضىء ظلمته الكئيبة سرعان ما تنطفا شعلته .. وأنا اسأل الرجل عن مصير هذا الانسان الذى شوى على النار اجابنى ضاحكا :

ــ كان وليمة شـهية .

فى تلك اللحظة قررت العودة .. الا أنه جذبنى من يدى بقسوة تمتم :

ــ الا تريد أن ترى خروفى المقدس .

ــ لقد رأيته منذ لحظات .

ــ ما رأيته هــو النيجاتيف أما الحقيقــى هنا عنــدى احتفظ به فى كوخى .. اعتنى به .. اسقيه من ماء الورد .. ارعاه .. واحنى عليه .

قلت له :

ــ لكننى أريد العودة لكوخى حتى لا تقلق على عشيرتى .

ــ هنا لا يقلق أحــد على أحــد .. ســايرته .. داعبنى هــذا الهاتف .. وبدأ يؤرقنى .. ماذا لو رشقونى فى السيخ وشوونى تبعته الى الكوخ .. رأيته .. خروف عجوز وهنت عظامه .. وتكسرت أسـنانه . « ماما » فور أن رآنى .. والرجل يعلق :

ــ لقد سر برؤيتك .. انه يرحب بك .

داخلى يحدثنى دون أن أسـتطيع الانصــاح « انت الآخر تعرف لغة الحيوانات .. « هاصت » لكنه حديث لم يخرج من حلقى .. أخرجت علبة سجائرى أخذت واحدة .. اعطيت له أخرى .. سألته :

ــ هل يضــايقك أن أعفر ســيجارة فى تواجد حضرتكم المقدســة اشتم السيجارة .. قضمها .. بلعها .

صرخت :

ــ سيدى أنها ليست للأكل ولكنها للتدخين ..

ــ وكيف تدخنها ؟

ــ هــكذا .

اشعلت السيجارة بدأت ادخن وهو مندهش كيف تتحول السيجارة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية فى صورة دخان يصعد من « النخاشيش »

اعطيته اياها ٠٠٠ قلت :

ــ دخن .

جذب نفسا عميقا .. بدأ يسعل .. لكنها استهوته قال فى حسم :

ــ سأطلب فورا من أمين المخازن أن يدرج هذا الصنف فى ميزانية العلم القادم .. ماذا تسميه . فليكن أسمه من اليوم سرائر .

مرت فترة صمت قصيرة خلتها دهرا .. قلت بعدها :

ــ هل يأذن لى سيدى بالانصراف .

ــ ليس قبل أن أسألك .

ــ عن ماذا ؟

ــ الحلم .

ــ اى حلم تعنى .

انـــه يســـتدرجنى .. يريد أن يوقـــع بى .. على أن اهادنه .. اسايره .. حتى لا أقع فى الشرك .

اجابنى :

ــ الحلم اياه .

ــ آه .. كدت أن تذبح أبنك لولا الخروف الملائكى .

ــ وما رأيك .

احترت .. ماذا يمكن أن اقول له .. هل أنكر القصة .. فيقضى على القضاء المبرم أم اعترف بصـــحتها .. وأنا لا أعرف موقفه منها اجبته وانا احاول أن أمسك العصا من نصفها :

ــ الله أمرك بارتكاب معصية عندما أمرك بذبح أبنك .

ــ حقا .. كيف فات على ذلك .

ــ ومن أجل سبب غامض غير مفهوم .

ــ وهل اختبار الله لطاعة رســـله والاســـتئياق من إيمانهم ســـبب غامض غير مفهوم .

ــ اذا تعارض مع كماله وتنزهه .

ـ كيف ؟

ـ هل يمكن للكمال أن يأمر أحد اتباعه بارتكاب جريمة لا يختلف حول تجريمها اثنان بدلا من النهى عنها .. فضلا عن هذا .. التنافر الحاد بين الالزام والالتزام .. فالالزام لابد وأن يترتب عليه التزام .. فالزام الانسان بالامتناع عن معصية يستوجب معها التزام الآمر بعدم الاتيان بها .. لانهما امران يرتبطان ببعضهما وجودا وعدما .. والخروج عن هذا يعنى الفوضى ليس فى علاقات الكون بل فى علاقات الانسان بأخيه الانسان .. حاكما كان أو محكوما .. بل هو اشارة خضراء للحاكم الذى يلزم المحكوم بقانون أن يخالف هو نص هذا القانون ضاربا عرض الحائط بالتزامه .. .. لأن الزام الحاكم المحكومين بقانون ما يستلزم بالضرورة التزام الحاكم به .. فاذا خرج عنه فيعتبر خروجه .. انتهاك للالتزام .. وبالتالى انهاء لعقد الالزام والالتزام الذى يربط بينهما .. وسقوط حقه فى البقاء حاكما ..

قال الرجل بحماس دافق :

ـ ليس هذا فحسب .

سألت فى دهشة .

ـ ماذا قلت ؟

ـ دعنى اكمل .

ـ على العين والرأس .. تفضل .

ـ يا ابنى ان الموضوع كله لم يتجاوز نطاق الأحلام .. ولكن الناس هم الذين نقلوا هذا الحلم من جعبة الخيال الى دائرة الحقيقة .. وتداولوه .. حتى أصبح احدى حقائق الكتب .. وهذا ما يحزننى فالسماء لا تمطر خرافا .. ومن المستحيل أن يقوم الأب بذبح ابنه لمجرد حلم ارتآه الا أن يصمه الناس بالجنون .. ثم ماذا تضيف تلك الرواية اذا آمنا بها كحقيقة .. الاله يطلب من انسان ارتكاب معصية .. ويشرع هذا الانسان فى تنفيذها طوعا لاثبات ايمانه .. وابنه لا يعترض على رغبة أبيه .. رغم

انف قاعدة جوهرية أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق حتى ولو كان هذا المخلوق أبواه .. مثل هذه الرواية تحمل كل مقومات أمراض الفكر المتخلف ولم تكن سوى حلم .. حلم أتانى وسردته على الناس فتطوعوا ليجعلو منه حقيقة فى الاذهان .. ماذنبى .

ــ وهذا الخروف الذى تحتفظ به فى كوخك .

ــ ذكرى تمنيت أن اذبحهـا لتسـيل دماء الوهـم علـى ارض الحقيقة ..

ــ ولماذا لم تفعـل ؟؟

ــ الكهنة .. الكهنة .

ــ ١٩ ــ

هل هؤلاء هم حقا أنبياء الأديان بعد أن بعثوا ؟!! عدت استدرج أفكارى الى الحقيقة .. الى النقاط المضـيئة من جديد .. دون جدوى .. واذا بى أمام رجل ضخم الجثة .. أعملت فيه النظر من اسفل الى اعلى .. صعدت اليه بنظراتى .. مجعد الشـعر أشـعث اغبر .. عينان امترج فى حدقتهما الفحمية لون الدم .. والنار .. أخذنى على غره .. وهو يقهقه .. متجها نحوى يهش براحة يده فوق كتفى .. صوته نقيق ضفدع :

ــ أهلا .. وسـهلا .

ــ لا أهلا .. ولا سـهلا

سـألنى :

ــ ضقت بجنتنا .

ــ بل ضـقت بكم .

ــ وقاحة غريبة لا تجدها الا فى الغرباء .

ــ دعنى وشـأنى .

ــ حططت علينا كالطائر الجارح .

ــ ماذا تعنى بكلماتك ؟

ـــ علينا نتف ريشك قبل أن تخطف الكتاكيت وتعلو بها فى الفضاء .

ـــ اى كتاكيت وأى ريش ؟

أخذ يدور حولى .. يرقص .. يغنى وهو يشير على اشارات مبهمة « الحدأة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا الريش » صيحات الرجل تتوالى فى غناء ردىء .. حقا ان لأنكر الأصوات لصوت الحمير .. بعدها بلحظات كانت تحيطنى شرذمة من الرجال يرقصون حولى .. يزعقون .. يرددون نفس الكلمات .. زعيمهم يرتدى قلنسوة سوداء .. ورداء أحمر .. يتقدم نحوى يتحسس عجزى .. جسدى .. يتمتم :

ـــ جسده طرى كجسد النساء .

ثم يستطرد قائلا :

ـــ وقعت فى الفخ يابن اللئيمة .

أنهم يرقصون حولى كما يرقص أكلة لحوم البشر .. مجموعة من المجانين . جنة مجانين .. مهاويس .. رفع زعيمهم عصا فى الهواء ثم أخذ يرتل كلمات منظومة غير مفهومة وهو يهزها بعنف وانفعال بعدها انقض على رجلان زنة الواحد منهما طن !! الأيادى تحاصرنى تشج ثوبى .. تحملنى عاريا الى ساحة كبيرة .. حولى المجانين يتغنون « الحدأة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا « الريش » جموع من الهمج تلتئم فى دائرة ضيقة حولى .. والخاطر يتمكن منى وزعيمهم يزعق :

ـــ أوقدوا النيران .

النار ترتفع السنتها .. يسكبون الزيت فوق جسدى .. الخاطر يتمكن منى أكثر وأكثر وزعيمهم يعلن :

ـــ جهزوا السيخ .

أين مناع .. هل تبخر .. أين أتباعى .. زعقت .. لا احد يسمعنى يريد أن يسمعنى .. صخب .. تتخلله كلمات السخرية والازدراء أين الهاتف .. قدراتى .. معجزاتى . لقد تبخرت هى الأخرى .. كم أود أن احولهم الى قردة .. أن أذبحهم .. ولكنى لا اقدر لا استطيع .. هباءا منثورا .. ما أفكر فيه .. لماذا !! قلتها مرات ومرات دون أن أجد اجابة ..

ان هؤلاء القوم لا يؤمنون بى صيحات الاستنكار والسخرية والازدراء وانا اصيح فيهم :

ـ هل خبلتم .. ألا تعرفون مولاكم ورب نعمتكم .

لا فائدة .. لا جدوى .. وأحدهم يأتى بسيخ ضخم .. يتقدم نحوى وزعيم القوم يصدر أوامره :

ـ هيا لنرشقه من دبره ليصل الى فمه .

قلت فى سذاجة وبلاهة :

ـ ولكنه سيخ ضخم .

زعيم القوم يقترب منى .. يقول فى سخرية :

ـ لن تشعر بشىء .. مجرد وخزة بسيطة يغوص السيخ بعدها فى أحشائك .

فى تلك اللحظة واتتنى قوى خارقة .. انها قوى الخلاص من الشر .. كنت فى داخلها أشبه بعصفور تمضغه انياب ذئب .. بفأر مذعور يلفظ أنفاسه الأخيرة بين براثن قط .. رغم هذا الضعف .. وهذا اليأس فقد كنت اشعر أننى أمتلك العالم كله .. املك كل هؤلاء الناس استطيع ان اعلو بهم فوق اقدارهم .. بدأت ارتجف وزعيم القوم يقترب بالسيخ منى .. وكلماته كلها سخرية :

ـ حانت لحظتك .

فى لحظات كنت أحتوية داخل قوتى .. أصبح أمامى شيئا من الاشياء اسيره كما اشاء .. نظرت اليه .. أحسست ان ارادته تخور كلبا مستسلما أحركه بطوق فى رقبته .. على أن آهجم بشراسة .. بقسوة .. قلت له متسائلا :

ـ ماذا تنوى ؟!

ـ ألا ترى هذا السيخ .. سأمزق به احشائك .

ـ أى سيخ ؟!

دهش الرجل وهو يجيبنى :

ـ هذا الذى فى يدى !!

ـــ ما معك ليس سوى ثعبان ضخم !!

تردد الرجل قليلا .. وهو ينظر الى السيخ .. فجاة قذف به وصرخ :

ـــ الثعبان .. الثعبان .. انقذونى .. انقذونى .

الزعيم يتلوى .. يحاول انقاذ نفســـه من قوى مجهولة .. لقد تحول السيخ الى ثعبان ضخم يحيط برقبته .. الناس تنظر اليه فى دهشة .. لقد خبل زعيمهم .. انه يستنجد :

ـــ انقذونى .. انقذونى .. الثعبان يعصرنى .

اقترب منى .. ســـجد .. قبل قدمى .. ابتهل .. خلع قلنســـوته السوداء .. عفر رأسه بالتراب .. صرخ :

ـــ انقذنى يامولاى .. انقذنى فانا لست سوى عبدك الذليل .

الناس دهوش .. هاموش .. لا يفهمون مغزى مايحدث .. ولكنهـــا الحقيقـــة مارآها زعيمهم . الســـيخ يتحول الى ثعبان يحاول قتله . حـــل الصمت .. علا الوجوه الوجوم .. التساؤل .. وأنا أسأله :

ـــ ماذا تظن أنى فاعل بك ؟

ـــ مولاى ورب نعمتى .

ـــ اذهب فأنت طليق .

الصمت من جديد يطبق على الساحة .. لا تســـمع فيها سوى همهمة الحيوانات المقدسة .. النار تخبو .. قلت والدهشة تحتوى الجميع :

ـــ اشـــعلوا النيران .

اســـتطردت بعدها قائلا :

ـــ عليكم بالحيوانات المقدسة .. تخيروا منها ما شئتم .. ارسلوها الى النار .. أكلا شـــهيا للقاطنين .. فاليوم هو عيد الضـــحية الأكبر .. عيد الانقاذ .

تعالت الهتافات .. الصرخات .. وأنا أستطرد قائلا :

وهذا الوادى المقدس الذى حرم على الناس أن يطئوه .. واســـتأثر فيه الخاصـــة بالنعم والخيرات .. واستمتعـــوا فيه بأكل « البغاشـــة » و « البقلاوة » !! من اليوم يصبح مشاعا للجميع .. ملك لكل شـــعبى من

اقاصى الأرض ومغاربها .. بكل مافيه من متسع طعاما كان أو شراباً امراة او ولدانا لا فرق بين الخاصة والعامة .. الكل سواء . صرخات التاييد .. عبارات الثناء .. صلاة شكر طويلة .. تعالت فيها كلمات المساواة .. الحق .. العدالة .

- ٢٠ -

شردت افكارى .. ذلك المعبد الذى يتوافد عليه الناس فرادى وجماعات .. يطوفون حوله .. يتزاحمون ليقبلوا جدرانه .. يبصقون فى وجه الشيطان .. يصرخون طالبين المغفرة .. انهم يتالمون بلا دموع .. بلا مشاعر الم الحيوان .. عذاب القرود .. رجال الدين يرتدون الرداء الأحمر والقلنسوة السوداء .. يطوفون معهم يصرخون صرخات الألم والعذاب .. يتطوحون .. يترنحون فى سكرة .. كسكرة الموت .. وفى داخل المعبد حيث تمتد ساحته آلاف الأمتار .. يتسكعون .. يتجالسون .. يعاقرون الخمر يأتون النساء والاطفال .. يعربدون انها الجنة .. كل شىء مباح .. سألت مناع الشكوك تزاحم عقلى :

— الى متى يا مناع هذه الطقوس ؟

رد على فى ريبة :

— سبع أيام وسبع ليالى .

— لماذا يا مناع ؟

— النقيضان يا مولاى عندما يجتمعان .

— تقصد الحب والكراهية .

— نعم يا مولاى .. النور والاظلام .. سبع أيام وسبعة ليالى .

— ولماذا سبعا ؟

— الارض خلقت فى سبع ويوسف حلم بسبع والالوان سبع .. والسموات سبع هذه مشيئتك ..

الشكوك مازالت تزاحم عقلى .. تقهره .. هل هذه هى الجنة حقا .. مجموعة من البلهاء يقبلون الحائط .. يبصقون على الشيطان

سألت مناع :

ـ اين هذا الشيطان يا مناع ؟

ـ مسجون فى قمقمه .

ـ خذنى اليه .

اتجه بى الى باب فولاذى ضخم .. فتحه على مصراعيه لأجد أمامى فوق قاعدة من العقيق صندوق من الذهب صنع ببراعة .. وقد طوقته السلاسل والأصفاد .. ضحكت .. استطالت ضحكتى .. دمعت عيناى

قلت بعد أن سكنت ضحكاتى :

ـ فى هذا الصندوق يسكن الشيطان .

ـ هل تشك فى هذا يا مولاى ؟

ـ وتطوقونه بالسلاسل خشية أن يهرب .

ـ تسخر من عقيدتنا التى أوحيت بها الينا .

ـ خرافة .. خرافة يا مناع .

ـ تقصد الشيطان !

قلت له فى حسم :

ـ آتنى ببلطة .

حملت البلطة الى قمقم الشيطان .. رفعتها فى الهواء .. صرخ مناع :

ـ لا تفعل يا مولاى .

توقفت وجسد مناع ينطرح على القمقم وأنا أحذره :

ـ ابتعد يا مناع .

مناع يستجدى .. يقبل قدمى .. يتضرع :

ـ سيتحرر الشيطان من سجنه الى عقول الناس يوسوس لهم .

دفعته بكل قوتى صرخت وأنا اشق الهواء بالبلطة اهوى بها على القمقم :

ـ لن تجد فيه سوى الهواء العفن .

الجموع التى صـــمتت منذ دقائق وهى تســـمع حوارى مع مناع .. تجرى مذعورة .. تصرخ :

ــ الشيطان .. الشيطان .

توجست خيفة خامرنى الشك للحظة قصيرة فى جدوى ما أفعله .. فى حقيقة هذا الشيطان .. ترددت قبل ان أهوى بالضربة التالية .. حسمت ترددى وأنا أهشم الصندوق الى شظايا صغيرة .. وصيحتى تسبقنى :

ــ أنظروا مابداخله .

ايقونة وخرقة باليه خيطت جيدا بداخلها بقايا قضيب رجل متهرئ .

* * *

حادثت مناع .. سألته عن الأرض الملعونة الححت فى الســؤال .. استعصى على .. أسواره محصنة بالرفض والاصرار أجابنى :

ــ أنك تبحث عن الفناء يا مولاى .

ــ لـــماذا يا منـــاع ؟

ــ لأن الحقيقة تعنى الموت .

ــ وصفوة القوم الذين ارسلوا للضياع .. كيف نستردهم ؟

لم يرد على .. نهض فجأة من مكانه .. اختفى .

- ٢١ -

زحام .. هتافات .. اصوات غاضبة متناثرة .. جماعة من النسوة يقتحمن على القصر فى غضـــب جامح .. فزعت من نومى .. اسرعت خارج الحجرة .. مناع وقد علا وجهه الشحوب .. يحاول وقف التيار العاتى .. يصرخ فى فتاة جميلة :

ــ ما دهاك يا يســـمينة ؟!

النساء .. ساخطات .. شققن الثياب فبانت الصـــدور والنهود .. والبطون .. عبثا ما يفعلون ياسمينة تصرخ فى وجه مناع :

ـــ خلى بنا المكان نرى مولانا .

تقدمت نحوى .. تمتمت :

ـــ جئنا نستعيذ بك من الشيطان .

ـــ اى شـــيطان ؟

ـــ الرجل يا مولاى .

ابتسمت .. غمغمت :

ـــ بات الرجل شـــيطانا .

ـــ ولسنا له سوى سقط المتاع .

ـــ تناوشـــين القـــول .

ـــ مولاى .. ما نصيب المرأة من الجنة .

ـــ الكثـــير .

ـــ بل اقل القليل .

ـــ كيف وانتم تشاركون الرجل فى كل المتع .

ـــ مولاى .. للرجل أن يختار المرأة التى يشـــتهيها وله منها آثنان واربعون جارية .. أما المرأة فمســـلوبة الارادة والحقوق .. ليس عليهـــا الا أن تقنع بامتاع الرجل والطاعة العمياء .. قلت بحسم :

ـــ ماذا تريدين ؟

ـــ العدل يا مولاى أن يكون للمرأة مثل ما للرجل .

ضحكت .. استرابت يا سمينة .. وأنا اسالها :

ـــ تريدين أن يكون للمرأة اثنان واربعون رجلا محظياً .

تغامزت النســـوة .. خبط منـــاع كفا على كف تعالت الهمســـات واحداهن تعقب :

ـــ وماذا تفعل المرأة اذا رغبها كل هذا العدد فى ليلة واحدة ؟

شـــهقت الثانيـــة :

ـــ يا وليتاه كيف ولا تملك سوى ثقب واحد !!

قالت ياســـمينة بذكاء :

ـــ ليس هذا مقصدى يامولاى .

ـــ اوضحى .

ـــ نعود الى قانون الأرض .. امرأة لكل رجل .

ـــ وماذا بعد ؟

ـــ المطلب الثانى .

ـــ تكلمى .

ـــ الأمومة يامولاى .

ـــ تقصدين المطب الثانى .

ـــ نريد ان نعود لطبيعتنا الأولى .. نحمل ونلد .

تساءلت فى دهشة :

ـــ لكن الأمومة تعني عودة العذاب .

ـــ وماذا تقول عن العمل .

حلت فترة صمت قصيرة .. قبل أن تستطرد ياسمينة قائلة :

ـــ لم ننسى غرائزنا يامولاى .. نريد أطفالا نشقى بهم .. نسعد معهم .

ـــ لكن الا تعلمين أن الانجاب يعنى الموت .

الأصوات تتعالى .. تتحد فى حزمة الاصرار :

ـــ نريد الأمومة .. نريد الموت .

تزاحمت الصرخات .. تداخلت الآهات :

ـــ الموت .. الموت .

قلت بضيق مكتوم :

ـــ جنة قاطنوها مجانين وأنا لست سوى واحد منهم .

ـ ٢٢ ـ

البسطاوى متهم بالسرقة .. أول سرقة تحدث فى تاريخ الجنة .. أتانى مكبلا .. سألته فى لين :

ـــ الا تعلم أن السرقة جريمة .

ـــ ليس بعد للجوع شىء يامولاى .

ـ ولماذا لا تعمل حتى تأكل ؟

ـ وعدتنا بالجنة التى لا عمل فيها وأخلفت وعدك .

ـ كل ما أريده لكم هو الجنة الحقيقية .

ـ الناس راضون .. سعداء .. بجنتهم .

ـ رضـــاء مؤقت بالتخلف .. لأنهم لم يعرفوا الحضـــارة .. فاذا مارسوها لم يعد فى استطاعتهم العودة الى قانون التخلف .

ـ دعهم وشـــأنهم يامولاى فهم يأكلون ويشربون وينامون ويتمتعون بمتعهم الحســية ..

ـ من اجل هذا فقدتم الابتسامة .

ـ الابتسامة تعنى العذاب والعمـــل يعنى العذاب .. ارحل عنا .. فمنذ أن حللت ديارنا .. حلت علينا الفـــوضى والخـراب وودعنا ســفينة الســلام .

ـ ما تسميه الفوضى والخراب هو نتاج التحول .. هو آلام الوضع .

ـ لماذا .. وقطوف الجنة دانيـــة .

ـ ضاق صدرى بنقاشك .. فقد جئت الينا متهما بالسرقة والامتناع عن العمـــل .

ـ للمتهم الحق فى الدفاع عن نفسه .

ـ بماذا تدفع تهمتك .

ـ اننى لم أخرق قانون الجنة .. فكل شىء فيها مباح .

ـ الاباحة مرتبطة بالعمل .. ومن يرفض العمل ليس مكانه هنا .

ـ أى مكان أفضل من هذا الجحيم .

ـ اننى لن اســـجنك .

قال بســـخرية :

ـ اذن فاقتلنى !!

ـ بل سأرسلك للأرض الملعونة .

فى تلك اللحظـــة .. جثا على الأرض .. قبل قدمى عادت أنظـــاره

لتفرش وجهى .. انه يرتجف ارتجافات الخوف .. يبتهل يستجدى :
ــ لا .. لا يامولاى .. اننى امتثل لقانونك .

* * *

عــدت الى ســـفينى الخاطر .. بعد أن فككت عن بســطاوى قيوده وانفرجت عنه .. كيف حوله الرعب من موقف العناد الى استسلام كامل ..

ما هذه الأرض الملعونة التى يرفض الجميع الحديث عنها .. لماذا يخشى الناس منها .. سفينى الخاطر بلا ربان بعيدة عن الشاطىء عن بر الامان .. تتلاعب بها الأمواج يظلل ســمائها الغمــوض .. تهب عليهــا أعاصــير الفصول .. لا تجد من ينقذها .. يساعدها ليصــل بها الى بر الحقيقة .. معى الأيقونة التى عثرت عليها فى صندوق الشــيطان .. أطالعها علنى اعثر على اجابة شافية لما يعتمل داخلى من اسئلة .. هذه الرسوم ماذا تعنى ؟ ! الجمجمة تعنى الموت .. المصـــباح يعنى المعرفة .. ولكن هذا الوجه الذى أراه محفورا بعناية ماذا تعنى رموزه انه وجه قرد فى جســـد انسان .. فهل هذا تنبؤ لمستقبل الانسان هل يستحول الانسان الى قرد ؟! وذلك النهر الى أين ينتهى .. انه ينتهى الى الجمجمة .. الى الموت .. هل الأرض الملعونة هى نهاية هذا النهر .. وتلك الشمس التى تشــع فوق صــفحة المياه .. تحرقها كيف ؟! الأسئلة تحاصرنى دون أن أعثر على أجابة شافية .. ولكن هناك فى هذا الوادى الملعون ينام السر تحت قشرة من الغموض .. سر هؤلاء الناس .. سر وجودهم .. خلودهم .. كلهم يخشـــون الحديث عن هذا الوادى الملعون .. على أن اعثر على الحقيقة ..

حاول منـــاع أن يثنينى عن عزمى دون جدوى فقد قررت الرحيـــل .. اعددت كل شيء الطعام والماء .. ومعدات التســـلق والحفر .. تدفعنى ارادة المعرفة لتخطى هذا المجهـــول الجاثم على بعد أميـــال .. وفى فجر أحـــدى الأيام .. حملت أمتعتى فوق بغلين وبدأت رحلتى .. وقبل أن اصـــل الى نهر الشيطان وجدت شبحا فى انتظارى .. لم يكن سوى ياسمينة ســـألتها أجابتنى :

ـــ اريد صـــحبتك !!

أصرت .. اســـتسلمت لاصرارها .. بدأت معها مســـيرة رحلـــة المجهول .. سألتنى فى فضول :

ـــ الى أين يا مولاى ؟

ـــ الى الحقيقـــة .

ـــ الحقيقة لن تجدها .

ـــ حتى اذا عجزت عن العثور عليها .. فهى تســـتحق المحاولة .

ـــ مولاى .. أنك تبحث عن الحقيقة فى أعماق الوهم ..

* * *

وصـــلنا مجرى الشـــيطان .. ثلاثة أيام .. نواصـــل فيها الليـــل بالنهار .. مجـــرد ســـويعات قليلة نقضـــيها فى الراحـــة نعود بعدها الى السير .. اقتربنا من دغل كثيف استطلعت المكان .. مستنقعات هائلة .. فى عمق مياهها يحوم الخطر .. الثعابين والتماسيح عدت الى مكانى .. رأيت ياســـمينة تنتفض .. تتمتم « اللعنة .. اللعنة » على مقربة منها البغـــل « أرقم » يهتز اهتزازات الموت .. وعلى مسافة قريبة ثعبان ضـــخم يتلوى مبتعدا عن المكان .. ربت على كتفها .. أخذت رأسها فوق صدرى ..

ـ لن نحتاجه بعد الآن فطريقنا الماء .

بدانا في صنع قارب بدائى .. بعض فروع أشجار ربطناها جيدا .. سفينة نوح .. قذفنا بها الى مجرى الشيطان فوق سطحها احمالنا واجسادنا .. البغل « انشراح » ينظر الينا فى عتاب لفراقنا له والموج يحملنا الى المجهول .. يومان والموج يلاطم القارب .. أخرجت الأيقونة .. ارتعدت ياسمينة فور رؤيتها صرخت !

ـ أيقونة الشيطان .

سألتها :

ـ ماذا تعنى بكلماتك ؟

اجابنى :

ـ طريقها طريق الشيطان يامولاى .

* * *

احسست بالرغبة فى النوم .. رسوت بالقارب على الشاطىء .. ياسمينة تعد مكانا بجوارى .. وضعت جسدى .. رحت فى نوم عميق .. قمت من نومى مفزوعا .. صوت فية بحة ألم ورعب .. يردد .. « ملعون .. ملعون » فرشت بعينى المكان .. ياسمينة تنام بجوارى نوم الملائكة .. نهضت من مكانى ر يت شبحا يجرى كأنه الشهب .. ترددت وأنا احاول اللحاق به .. أسرعت أعدو خلفه .. توقف عندما اقتربت منه عاد يمتطى الرياح .. والسؤال الحائر .. ما هذا الشبح .. لماذا يدفعنى الى تعقبه ؟! صرخت بأعلى صوتى :

ـ من أنت وماذا تريد منى ؟!

ما سمعت سوى الصمت .. وهمسات الريح المجنونة .. الشكوك تساورنى .. هل ما أراه حقيقة أم أنها خيالات .. اضغاث احلام .. ماهذا الشىء الذى أعدو خلفه .. انسان .. حيوان .. شبح .. طيف مجرد

سراب ؟! وفى اللحظة التى قررت فيها العودة .. اقترب الطيف منى ..
ازداد اقترابا .. التصاقا .. حاولت تبين ملامحة .. خطوت نحوه ..
انتابني الذعر ارتجفت .. وانا اراه يرتفع فى الفضاء لسان من لهب يحرق
فى طريقه الاشجار .

بدات اتحسس طريق العودة .. لقد ضللت الطريق .. درت دورتين .. عدت من حيث بدأت .. حل الظلام .. صرخت .. « ياسمينة .. ياسمينة » صدى الصوت يتردد .. لا أسمع سوى زفرة الريح .. حفيف انفاس الكائنات قبل أن تغفو .. أحسست بالأعياء .. الحمى تجرفني الى بؤرتها جسدى يشتعل حرارة .. رأسى تنفجر .. لم أستطع الوقوف .. تهاوى جسدى .. ارتطمت بالأرض غبت عن الوعى .. افقت .. رأسى تتوسد فخذ ياسمينة .. نظرت اليها من خلال سحابة داكنة .. سألتها :

ـ كيف عثرت على ؟

تمتمت .. لم أسمع كلماتها فقد رحت من جديد فى غيبوبة .

* * *

اجتزت مرحلة الخطر .. بعد أيام كنا نستقل القارب من جديد .. فوق موج مجرى الشيطان .. بدأنا نجدف .. ياسمينة تسألنى ؟

ـ مولاى .. ان الالهه لا تصيبهم علة .. ولا مكروه .

ضحكت .. استرابت .. وانا اجيبها :

ـ اذا كانوا حقا آلهة يا رفيقتى .

ردت متسائلة والدهشة تعصرها :

ـ قلت رفيقتك يا مولاى .

ـ مهلا يا يسمينة ما قصدت بك سوءا .

ـ مولاى .. فداك نفسى وحياتى أن تشرفني بكل هذا المقام الرفيع فكيف للعابد أن يرتقى للمعبود . ضممتها الى .. رغبتها .. قبلتها

استسلمت ليدى .. همست لى :
ـ خذ من أعماق البحر كنوزه .
قلت لها وأنا اغطى جسدها العارى :
ـ الاله لا يسطو على نفائس البشر .
القارب المتسكع ينحدر فوق صفحة المياه بسرعة مجنونة نحو شلال هادر .. بدأت استجمع ارادتى .. خيوط أفكارى .. انه الموت .. وهذا الشىء من جديد .. لسان اللهب على بعد أمتار يتراقص فوق الشلال .. يجذبنا .. يشدنا .. سألت يا سمينة :
ـ هل ترينه .
أومأت بالنفى .. صرخت :
ـ انقذنا يا مولاى قبل أن نضيع فى الأعماق .
لا أدرى هل هى الصدفة عندما تلعب دورا مهما فى حياة المخلوقات .. ام انها صرخة يا سمينة .. ام انها احد معجزاتى وفرس النهر يحمل القارب فوق جسده الضخم الى الشاطىء .. الى بر الامان .. ويا سمينة تقبل قدمى :
ـ احدى معجزات مولاى .. انتشيت .. سرى بداخلى اعتقاد أننى هذا الاله .. ابتسمت وياسمينة تستطرد قائلة :
ـ كم أحب مولاى .
كم هو رائع ذلك الشلال نقاط من الفضة تتساقط فوق مياه النهر الزرقاء .. تذوب فى بحيرة واسعة .. نهاية نهر الشيطان .. الأرض أمامى منبسطة .. شاسعة .. أين أذن هذه الأرض الملعونة .. لاشىء سوى السماء وهى تنطبق على الأرض .. وقول مناع مازال يتردد فى أعماقى عندما تصل اليها تفقد اثرها .. كيف أصل اليها ثم أفقد اثرها ؟! بدأت اجول الأرض .. ثلاث ليالى ونحن نتخبط فى أرجائها .. وصلنا جبل شاهق .. ياسمينة تصرخ :
ـ جبل الشرود .
بدأت اصعده .. ابيض اللون .. على قمته تتراكم كتل الجليد ..

اليأس ينشب مخالبه وأنا أعتلي القمة .. لا شيء خلفها .. كثبان رملية تحيطها من كل جانب .. هبطت الجبل .. خطواتي حذرة فوق سطح الجبل الأملس .. فجأة تقفز الى دائرة رؤيتي ظبيا أبيضا .. دهشت .. ازدرت ريقي .. لم أذق اللحم منذ ان حللت الأرض .. اقتربت من الظبي .. أو اقترب مني .. لا أدري .. لم يجفل لرؤيتي سحبت السكين من غمده .. ازددت اقترابا منه .. التصاقا .. أمسكت برقبته هويت بالسكين عليه .. رفع رأسه نحوي ذعرت فقد كان رأسه يحمل وجه انسان .. حاولت السيطرة على مشاعري والظبي يختفي من أمامي .. يذوب في شعاب الجبل .. للحظات قصيرة تسمرت قدماي .. لم أستطيع التقدم خطوة واحدة .. اسأل نفسي .. هل ما رأيت حقيقة أم هو التعب والارهاق .. مجرد خيالات .. لكن الظبي كان حقيقة لمستها .. وهذا السكين الذي شهرته ومازال في قبضة يدي حقيقة .. وتلك آثار حوافره فوق الصخور الجيرية الملساء ايضا .. حقيقة .. اذن فأين هو الوهم ؟!

عدت الى السفح .. ياسمينة في انتظاري .. الشحوب والقلق باديان على ملامحي .. سألتني .. لم أجبها فالاله لا يشكو .. ولا يعترف بضعفه وقلة حيلته .. في تلك الليلة بت أفكر .. أين تلك الأرض الملعونة .. الأيقونة .. نعم الأيقونة .. بتلك البحيرة الصامتة التي يصب فيها النهر وهذه الأصابع الممتدة التي تقبض على شعاع الشمس الساقطة فوق المياه .. ماذا تعني تلك الأصابع .. هذا الشعاع الساقط ؟!

كيف يعجز الاله عن تفسير سر أيقونة الشيطان .. لا يمكن أن يكون مثل هذا العجز لاله .. ضقت بنفسي .. ياسمينة تواسيني .. تخفف عني :

— مولاي لا تحمل هما .

— ياسمينة أنها هموم البحث عن الحقيقة .

استيقظت من نومى .. حاولت النهوض .. لم أستطع .. لم اقدر .. تبضات قوية غير مرئية تشل حركتى .. ساقى .. قدمى .. يدى .. تعوقنى عن الحركة .. عن التقدم .. وطنين فى اذنى .. لا تطأ تلك الأرض الملعونة ــ حاولت التخلص من تلك التبضات القوية .. بلا جدوى .. أصفاد كبلت بها اطرافى .. صرخت صرخة مدوية :

ــ كيف تفعلون هذا يالهكم !!

انفكت القبضات .. ورياح عاتية تقتلع الأشجار .. أعقبها دوى هائل .. فرقعة .. فرقعات . الأرض تميد بى .. تهتز .. تنشق .. ما هذا .. ماذا أسمع ؟! صليل سيوف .. ضربات خناجر .. أزيز سهام .. قوى هائلة تحيطنى .. تحمينى انها معركة بين قوى الخير والشر .. غير مرئية ولكنى أحس بلهثات المحاربين .. بالحركة تموج حولى .. بسنابك الخيل اعتليت ربوة .. صرخت :

ــ قاتلوهم .. اذبحوهم .. هيا جنودى .. الموت للشياطين .

احتدمت المعركة .. علت صرخات الموت وصوتى مازال يحث .. ويشجع :

ــ تعقبو فلولهم .. لا تتركوا شيطانا واحدا يفلت من عقابكم .

بعدها هدأت الأصوات .. عم السكون .. احتوى المكان الصمت .. ياسمينة تقف مشدوهة .. والسماء تنزف قطراتها .. لم تكن سوى قطرات دم !!

انها نهاية المعركة .. والطنين من جديد :

ــ مولاى .. نحن جندك المخلصين .

أحسست بنشوة غريبة .. جند متخفى .. تذود عنى .. تصون ذاتى .. ترفع رايتى تستشهد من أجلى .. بات الكون ملكى .. تحت قدمى .. طوع ارادتى .. أسيره .. أحركه .. صرخت بأعلى صوتى :

ـ أنا الاله .. أنا الاله .

لن تستطع بعد اليوم أى قوة على الأرض مهما عظم شأنها أن تتحدى ارادتى او تنال منى وتلك القوى الخفيــة تحمينى .. وهذه الجنــود المؤلفة قلوبها على حبى تدافع عنى .. صرخت من جديد :

ـ الاله يناديكم .. انصتوا جيدا فلتخشــع الكائنات .. وليســجد الوجود .. للاله الأعظم . فى تلك اللحظة سمعت أنشودة شكر .. سيمفونية رائعــة .. صــوت الريح وهفهفة الأشــجار وزقزقة العصــافير وهمس المجهــول .. كلها فى حزمة صــوتية واحدة .. خلعت على الكون ثوبا من الألفة .. من المحبة .. من السعادة .. تراقصــت أفنان الأشــجار .. سجدت الكائنات فى صــلاة صامتة .. اتجهت بانظارى الى الســماء .. رفعت يدى شددتهما الى أعلى .. قفزت قفزة هائلة .. صرخت :

ـ لقد ملكت الكون .. لقد ملكت الكون .

انزلقت قدمى .. لم أدر بعدها الا وجسدى يتدحرج لسفح الجبل .. الألم ينشب أظافره فى جسدى .. لقد التوى كاحلى ولأول مرة أرى ياسمينة وقد كلل وجهها الحزن والألم تتمتم :

ـ كنت قلقه عليك يا مولاى .

أخذتها فى أحضــانى .. طفرت الدموع من عينيها .. صحت مهللا :

ـ ياسمينة أنت تبكين !!

قفزت فوق الأرض .. ترقص .. وتغنى .. وتزغرد .

***

جاءنى الهاتف .. الطيف من جديد :

ـ عد الى قومك .

ســألته :

ـ لمــاذا ؟

ـ ساء حالهم .. وتبدلت أمورهم .. انظر .

استيقظت ويد ياسمينة تهزنى .

ــ مولاى .. مولاى أنك ترتجف .

هدأت انفاسى تمتمت :

ــ ما رأيته افزعنى .

ــ ماذا رأيت يا مولاى ؟

ــ كان كل شىء حطاما .

* * *

تجادلت وياسمينة .. شقت على عصا الطاعة .. اغوتنى .. اتهمتنى بالخنوثة .. صرخت محتجة :

ــ لماذا ترفضنى .. الست فى جمال تلك المرأة التى اختليت بها وانجبت منها طفلا !!

ازدادت حدة ثورتها .. حاولت تهدئتها .. لكنها رحلت عنى وهى تهدد .. وتتوعد ..

الهاتف من جديد يأتينى فى صورة لم أعهدها .. جسد انسان ورأس طائر له شفتان .. وعشرات من الأجنحة تحمله وهو يفهفه بها فوق رأسى !!

تعجبت فكيف للطيف هذه الابتسامة الغريبة .. أنه يبتسم لا أدرى سخرية أم رثاء .. وقد قبض باحدى يديه على شىء لامع .. أثار انتباهى .. وهو يهمس لى :

ــ انظر ..

ــ أنظر الى ماذا ؟

ــ الى هذا اللوح المكتوب .

فك قبضته .. لم تكن سوى الأيقونة .. استيقظت منزوعا .. لأبحث عن الأيقونة .. أنها مازالت معلقة حول عنقى .. حقا أنها تحمل سر الملكة الملعونة .. نهضت من مكانى .. مازلت ارتعد .. همس المجهول يتحول الى صرخات .. زعقات داخلى .. « أنت منقذ الناس .. » خفف عنهم

آلامهم .. امسح عنهم احزانهم » تمكن منى هذا الهاتف .. لست سوى الاله فى ثوب بشرى .. حل بك .. وخلطت به .. انت هو .. وهو انت .. صانع المعجزات القاهر .. القادر .. الساحق .. أرتقيت ربوة عالية رفعت يدى الى أعلى زعقت :

ــ يا شمس اغربى .. ويا سماء امطرى .. كررتها مرة واثنتين وثلاث .

احتوتنى الدهشة .. لا الشمس انصاعت لأوامرى ولا السماء نفذت ارادتى .. أن الطبيعة تتمرد على الهها .. ليس أمامى الا أن اعاقبها .. صرخت من جديد القى باوامرى :

ــ أيا فرسان النار الى السحاب اذيبوه .. بددوه .. حتى لا يتمرد مرة ثانية .. ايا فرسان الظلام الى الشمس اظلموا افقها .. فتتو اجزائها وانثروها فى الكون .. عقابا على غرورها ..

بعد أن هدرت كلماتى فى الفضاء .. رأيت الرعد يدوى .. والبرق يأتى .. والشمس تختفى خلف السحاب .. والمطر ينهمر .. ثيابى يبللها الماء وانا اقفز فرحا .. وأصرخ :

ــ عفوت عنكم .. عفوت عنكم

* * *

فككت الأيقونة عن عنقى .. تجولت عيناى فوق نقوشها .. تلك الأشعة التى تخترق المياه .. هل هى المعرفة .. هل تخفى تلك المياه سر الملكة الملعونة وعلى المعرفة أن تصل لأعماقها .. ثم ماذا تعنى تلك الأصابع التى تقبض على الشعاع .. هل هو العقل .. أم هى الارادة .. وتلك البحيرة الراكدة التى أراها الآن أمامى أليست هى هذا المخطوط المحفور بعناية فوق الأيقونة ؟؟ . لهفة المعرفة ترفع راياتها .. وأنا اتزحلق حول شطئان البحيرة .. أين حدودها .. الى أين تنتهى ؟! انصرم النهار ومازلت أتجول .. الشمس ترسل أشعتها الى البحيرة .. المياه راكدة .. على بعد أمتار أبصرت نافورة ضخمة المياه تتدفق منها .. تذكرت .. أننى رأيت تلك

النافورة على الوجه الآخر من الأيقــونة .. فحصــتها بدقة .. حقا أنهــا هي .. ساءلت نفسى وقتها هل أنا فى الطريق الصحيح ؟!

* * *

استيقظت على أصوات ولولة .. وبكاء .. نظرت حولى .. بجوارى امرأة عجـوز .. ضــاعت ملامحها وقد حفرت الســنون خطوطهــا فوق وجهها .. ارتعدت فرائصى وصوتى يضج بالسؤال :

ـ من أنت ؟!

لم تجبنى .. بكت .. عاودت سؤالها وأنا ابتعد عنها .. أجابتنى بصــوت وهن :

ـ لا تذهب هناك يا مولاى .

ـ أى مكان تعنين ؟ .

ـ المدينة الملعونة يا مولاى من وطئها ملعون ومن عاد منها ملعون .

قلت وقد احتوانى الذهول :

ـ أنت ياســمينة .

ـ لم أعد كذلك بعد أن واريت الخلود قبره .

شق على أمرها وهى تبكى .. تولول .. تستعطف :

ـ انقذنى يا مولاى .. أعد لى صــباى .

سألتها فى نهم شديد بالمعرفة :

ـ أين .. أين تلك الأرض الملعونة .

تبخر تســاؤلى وهى تبتعد عنى مسرعة يذوب طيفها فى جوف الآفاق تصرخ وقد احتواها اليأس :

ـ لست سوى أكذوبة .. أكذوبة .

فى تلك الليلة لم يغمض لى جفن .. وفى اللحظــة التى قررت فيهــا العودة الى شعبى .. أتانى الهاتف يهمس لى :

ـ انهض .. انهض . فقد حان ميعاد الرحيل .

وعنــدما سألته :

ـ الرحيل الى اهلي وعشيرتى ؟

اجابنى :

ـ بل للرحيل للحقيقة .

سـألته من جديد :

ـ اية حقيقـة ؟!

اجابنى فى رقة ونعومة :

ـ لتباركها وتطهرها من لعنتها .

تجادلت مع نفسى .. جدالا شرسـا .. عنيفا .. قاسيا .. معركة احتدمت فيها للحجج والأسـانيد سـاحة صراع بين العودة والبقاء رغبتى الجارفة فى للوصول الى الحقيقة .. ياسمينة التى تحولت الى عجوز شمطاء بعد أن وطئت الأرض الملعونة .. عجزى عن اعادتها لشـبابها .. خشيتى أن أصبح مثلها .. لكن الآلهة لا يعتريهم الوهن ولا تصيبهم الشيخوخة .. وقبل أن تنتهى لحظات الصراع .. سمعت صرخة .. صرخات .. أسرعت أتعقب صدى الصوت .. أنها ياسمينة تنزع شعر رأسـها تلف وتدور حول نفسـها .. تمسـك بحجر تهشـم به رأسها .. أسرعت نحوها أحاول منعها صرخت :

ـ دعنى وشـأنى .

لقد خبلت ياسمينة .. حاولت من جديد تطويقها فكت قبضـتى عنها ابتعدت .. صرخت من جديد :

ـ أكذوبة .. أكذوبة .. كل الآلهـة أكذوبة اندفعت ترتقى قمـة الجبل .. بعد ذلك بلحظات رأيته جسدها يتدحرج فى الهواء الى سفح الجبل وصـوتها يردد :

ـ أكذوبة .. أكذوبة .



اخيرا .. داســت قدماى الأرض الملونة .. نثرت ترابها .. جلت ارجائها .. ابحث عن حقيقة تهدينى لسر اللعنة .. تطلعت الى وجهى على صفحة مياه جدول مازلت كما انا لم يعترينى الوهن أو الكبر ابتســمت .. هكذا الآلهة لا تصيبهم اللعنة .. بدأ الظلام يكســو كلشىء بردائه الرمادى وصمته المهيب .. انتحيت ركنا فى سفح الجبل لاقضى فيه بقية الليل وقــد ملك اليأس على نفسى أن أعثر على سر هذه اللعنــة .. عدت بذاكرتى الى الأحداث التى مرت بى .. الأيقونة وياسمينة والهاتف الذى خاصــمنى منذ ان حللت الأرض الملونة .. لم يعــد يأتينى .. غفــوت لعله يحادثنى دون جدوى .. وعندما اســتيقظت .. كنت أحمل هما ثقيــلا .. انتابنى فزع هائل .. بريق يخطف بصرى .. على بعد أمتار .. الأرض تشــع ضــوءا كيف .. اتجهت الى الضــوء .. أين مصــدره .. هــل هى حيــوانات فوسفورية ؟! أمســكت بحفنة من التراب .. نثرتها .. تناثر عنقود من الضوء فى الفضاء .. ضحكت بهستيريا .. اهتز جســدى .. وجدانى .. صرخت :

ــ حتى الأرض تحتفى بالالة .. وقبل أن تسكن كلماتى فى فضــاء الصمت رأيت أمامى كهفا .. بنلية .. مسحت عنها التراب .. نفس رسم الأيقونة .. الشعاع النافذ الى الأعمــاق فى هذه اللحظــة .. تأكد لدى .. ان الأعماق باطن الأرض .. وليس .. أعماق البحيرة .. بدأت من فورى فى فتح باب الكهف .. صخور مدببة تغلق عنى الحقيقة .. أحاول بالمعول أن أفتح ثغرة .. يوم كامل وأنا أكرر محاولاتى .. اخيرا نجحت .. وقبل ان اعبر الى داخــل الكهف لملمت حاجياتى وأشــيائى المبعثرة .. المؤونة والماء والمعــدات .

مســيرة يوم داخل الكهف دون أن أصــل لشىء تعــودت عينى على الظــلام .. بدأت أتبين معالم الطريق الذى أســلكه .. انحدار هائل .. تشبثت بالصخور .. تدحرج جســدى .. الى أسفل الى الأعماق .. فوق سطح بحيرة آسدة .. صــحت فرحا وأنا أسبح الى شاطىء البحــيرة .. وشعاع يفيض بضــوئه على ســطح مياهها لقد قاربت الحقيقــة .. لكن

ما عثرت عليــة .. أصــابنى باليأس .. بالاحباط .. فلم أصــل لنبع الشعاع .. ولم اســتطع ترجمة رســم الأيقونة لأصــل للحقيقة وسؤالى الحاضر .. وماذا بعد .. اى طريق أســلك وامامى عدة سراديب .. بدأت استطلع المكان بعين فاحصة علنى اهتدى الى سرداب الحقيقــة .. خارت قواى وأنا اطعم بعض الاعشاب بعد أن تبعثرت مؤوننى فى شــعاب الكهف ولم أستطع العثور عليها .. احساس غامض ينتابنى أننى صريع هذا المكان وأنا اعثر على جماجم بشرية وســؤال يهز وجدانى .. كيف بالعودة .. والى متى سأظل صامدا ؟! .. فى الليل جاءنى الهاتف مبتسما .. ســعدت برؤيته .. فقد هجرنى فترة طويلة .. طمأننى :

ــ لا تخشى فكلنا فى حراستك .

قررت بعدها ان اخاطر .. آن اكمل مسيرتى بلا طعام او ماء فالقوى الخفية تحرسنى حتى من الجوع والعطش .. بدأت اتحسس طريقى .. نعم هذا هو الطريق الذى على أن سلكه .. خطوات سريعة .. واثقة .. التعب بدأ يحل بى .. الجوع والعطش ينشبان مخالبهما فى جسدى كم أريد قطرة ماء ترويني .. لم اعد استطيع التقدم خطوة واحدة .. أنها النهاية لا ريب فى ذلك .. صرخت قبل أن تحتوينى الغيبوبة :

ــ كيف تتخلون عن الهكم !!

ــ ٢٥ ــ

صور غريبة مشوشة تمر بى .. رجل وقد ثبت فوق جبهته مصباح كهربائى .. صاح لزميله :

ــ أنظــر ماذا وجدت .

زميله يرد عليه ســاخرا :

ــ جئنا نبحث عن الآثار والمخطوطات لا عن بقايا القرود .

قال وهو يسلط على وجهى شعاع مصباحه :

ــ هل رأيت هذا الوجه من قبل .. أو هذا الشعر الكث .. هيا احمله

معى . فقد يفيد معامل الأبحاث . الصور تتابع .. سيارة اسعاف تحملنى بسرعة رهيبة الى احدى المستشفيات .. أودعونى فى احـدى حجراتها .. جرعات قوية من العـلاج .. فقد كنت فوق قارب الموت .. وعندما استفقت رايت جسدى مشدودا الى سرير .

***

ســألت :

ــ لمـاذا ؟ ؟

اجابنى أحدهم :

ــ انت الانسان القرد .

ضحكت .. دهشت المرضــة .. استدعت الطبيب .. ســألنى أن اضحك مرة ثانية .

ــ غرقت فى الشكوك .. اين أنا ؟ وما هؤلاء الناس ؟!

انهم من عوالم متقـدمة .. فكل شيء لديهم يدار بالأزرار .. حركة الأبواب .. النوافذ .. الجدران .. الاثاث .. ما على الانسان الا أن يضغط على زر .. فيلبى طلبه فى الحال زر للطعــام .. للشراب .. بل أكثر من هذا نوع الطعام أو الشراب .. أو اسلوب الترفية .. المستشفى كله يعمل بالكمبيوتر والانســان الآلى .. لا يوجد فى المســتشفى من البشر ســوى ثلاثة .. المدير ومساعداه .

فور لقائى بالطبيب الح على أن اضحك سالته :

ــ لمـاذا ؟ !

اجابنى والفضول يعصره :

ــ كيف للقرد القدرة على الضحك ؟

ــ لا أدرى من منا هذا القرد !

لم يعر لأهانتى انتباها .. سالنى من جديد :

ــ حاول أن تضحك فقد يفيدك هذا عند محاكمتك .

امامى ممرضـــة جميلة .. رفعت طرف ثوبها .. مثل ما كنت أفعل عنــدما كنت نزيل احدى المستشفيات .. ساعتها كانت ضـــحكتى ترن .. لكننى اصبت بالدهشـــة فلم ار سوى كمبيوتر بين فخذيهـــا .. أصـــابنى الوجوم .. كيف هى بهذا الاتقان وتلك الدقة فى الصـــناعة .. للدرجة التى لم اكتشف أنها امراة آلية .. صاحت الممرضة معلقة :

ــ أنظر يادكتور ماذا اعترى القرد ؟

فى تلك اللحظـــة انفتحت كوة صـــغيرة فى جدار ذاكرتى .. حقا أى مستشفى تلك التى كنت أمارس فيها هوايتى المفضلة .. فى أوقات ينحسر الثوب عن فخذان لا يسترهما سروال .. ويتحول وجه الفتاة الى قطعة من اللحم الأحمر خجلا .. وفى مرات أخرى أرى سروالا كله ثقوب .. مهلهل .. لينفذ منه الهـــواء والماء !! وتلطمنى كلمات الســـباب .. والتحقـــير .. بلا جدوى .. لقد اصبحت احدى عاداتى السمجة عندما أكون نزيل أحـــدى المستشفيات .. الكوة تزداد اتساعا .. نوال الحكيمة عندما اختليت بها فى حجرة بالمستشفى .. كنت وحيدا .. أتت الى تعرض بضاعتها .. خلعت ملابســـها أخذت تخطـــو امامى عارية .. رائحة غاوية .. جسدها قـــوى البنيان ..رائع التقاسيم بالونتان لم تتهدلا بعد .. الشعر يكسو أســـفل البطن .. شعر اســـمر داكن .. اغرتنى .. ثم بدأت تربت على جســـدى بيدها الرقيقة .. تهمس لى :

ــ كم أنت عنيـــد .

يدها تتزحلق الى أسفل .. الى أسفل .. وأنا اغوص الى الاعماق .. الى اسفل .. الى اللحظة التى انفتح فيها الباب لنرى أمامنا مدير المستشفى وهو يقف متأملا الجسدان العاريان جسدا واحدا لا يسترهما سوى فضـــاء الحجرة .. وضجيج تأوهات نونو الخليعة .. الكوة تزداد اتساعا .. نوال فصـــلت من عملها .. أتت الى باكية .. تطلب الثمن .. رفضـــت زواجها انتحرت .. استيقظت والممرضة تصرخ :

ــ أنه يبكي يادكتور .. القرد يبكى .

عادت الكوة تنغلق من جـــديد .. والدمـــوع تنهمر .. لا ادرى لم ..
ولكننى كنت فى حالة من اليأس غريبة .

***

بعد أيام وبعد أن اســـترددت عافيتى بدأت الابحاث .. تحليلات .. واجهزة .. وصور أشعة .. وعينات من كل جسمى حتى الشعر اخذوا منه عينة لتحليلها .. كنت أشـــبه بفأر التجارب وهم يجرون على ابحاثهم .. ويدرسون عن قرب كل ظواهرى الانسانيـــة .. من ضـــحك وغضـــب .. وابتسام .. وكلام .. وانفعالات حزن أو فرح .. وانعقـــدت المؤتمـرات العلميـــة للحديث عن هذه الظاهـــرة الفريدة كيف لقرد كل هذه الظـــواهر الانسانية ؟! كيف لقرد أن يتكلم ؟! افردت الصـــحف والمجلات صـــفحات للحديث عنى .. وبث التليفزيون والراديو برامج تتحدث عن تطـــور القرود الى هذه الحالة التى شق عليهم تفسير ظواهرها .. وأسلوب حياتى .. كيف انام .. وآكل .. وأشرب .. والهـــو .. اعتبروها معجزة المعجزات التى عجزوا عن تفسير أسبابها .. شهور وأنا تحت الملاحظة الدقيقة .. الى أن بدأت الشـــكوك تنتابهم .. فقد قاموا بتحضـــين حيوان منوى ماخوذ منى داخـــل رحم قردة .. وآخر داخـــل رحم امرأة وكانت النتيجـــة مذهلة غير متوقعة .. فقد نجح زرع الحيـــوان المنوى داخل المرأة بينما مات مثيله فى رحم القردة .. وقتها قامت القيامة .. وخابت معظم التوقعـــات وبـــدأت افتراضات جديدة .. تضمنتها مانشيتات الصحف .. « زائر من كوكب آخر » « جاســـوس من كوكب متقدم » « القرد الانســـان » « اين الحقيقة فى القرد الآتى من السماء ؟ ! »

أخيرا وقفت متهما أمام محكمة الحقيقة .. أو كما اطلقوا عليها محكمة التاريخ .. رئيس المحكمة يســـاعده قاضـــيان .. وكمبيوتر تغذيه أقوالى واقوال الأدعاء واسئلة هيئـــة المحكمة .. واجاباتى .. ليساعد القاضى فى اصـــدار الحكم .

سـألني المـدعى :

ـ من أنت ؟

ـ انا زائر من الجنة .

ـ وأين الجنـــة ؟

ـ خارج هذا الكهف .

ـ وكيف أتيت ؟

ـ بمساعدة جنودى .. للقوى التى تحرسنى !!

ـ وكيف هى ؟

ـ قوى خفية .. لا يمكن وصفها .

ـ وأين هم الآن ؟!

ـ معـــى !

ـ هل تستطيع ان تدلنا عليهم ؟

ـ نحسهم لكن يتعذر علينا رؤيتهم .

ـ اذا كنت لا تستطيع رؤيتهم .. فكيف عرفتهم ؟

ـ الاله دائما له حراسة وجنوده .

ـ كـــلامك غريب .

ـ والاغرب منه حديثكم .

قال المـــدعى :

ـ ان ما تقوله تهويمات وخرافات .

ـ بل ما أقـــوله حقيقة .

ـ أنت اذن الاله .

ـ أنا هو .. وهو أنا .

عاد الصمت يطرق ابواب المكان .. وأنا اسأل :

ـ لكن ما هى تهمتى ؟

ـ التخلف والبدائية .

ـ اذن لماذا هذا السجن الزجاجى ؟

ـ ليس ســـجنا .. بل صـــندوق زجاجى نقى به الناس احتمالات

العدوىَ التى قد تنتقل منكَ .

ـــ ولكنكم قضيتم على كافة الفيروسات التى كنت احملها بتعقيمى .

ـــ معظمها .. وليس كلها .

ـــ ومتى يتحدد مصيرى ؟

ـــ بعد انتهاء المحاكمة .

قلت ســـاخرا :

ـــ اعددتم أذن مسودة حكم الاعدام .

فى تلك اللحظـــة ارتجتّ ارجاء القاعة .. عدة انفعالات متباينة تنتاب الجمهور وهيئة المحكمة .. شعور بالغضـــب بالازدراء .. بالدهشـــة .. بالحيرة . مرت لحظات كانهاٍ دهر .. خلت بعبارتى تلك أننى قد اتيت امرا فريا والمدعى يسألنى يستوثق من كلماتى الفائته :

ـــ ماذا قلت ؟

ـــ قلت أنكم اعددتم مسودة حكم الاعدام .

فاجانى بقـــوله :

ـــ الاعدام كلمة شـــطبت نهائيا من قاموس قانون مملكتنا منذ آلاف السنين .. بل أكثر من هذا لقد شطبت نهائياً كلمة العقاب .

ـــ تقصد أنه لا عقاب على جريمة .

ـــ المجرم عندنا مريض نعالجهُ ونقومه ولكن لا نعاقبه .

ـــ وتتركون عقابه للاله

ـــ أى أله تقصـــد ؟

ـــ لكل عقيدة الهٌ يذود عنها ويحميها .

ـــ الهنا هو القانون .

ـــ اذن فلا ثواب ولا عقاب ولا بعثٌ .

ـــ الاثابة احدى المبادىء الأساسية التى تقوم عليها حضـــارتنا .. وكذا البعث .. لكن ما نقصـــده بالبعث هو بعث الانســـان أثنـــاء حياته لا بعد الموت .

ـــ والشياطين والملائكة والجن الصالح والطالح .

ـــ وهو ما تعنية بجند الله .. خرافات دفنت منذ ثلاثة آلاف عام .

ـــ والجنة والنار ؟

ـــ الجنة هى ما تراها امام عينيك .. حضارة شعبنا .. والنار هى التى نشوى عليها اللحم .

ـــ وهذه الحضارة كيف وصلتم اليها ؟

ـــ بالعلم واعمال العقل والارادة والاستفادة من عبر التاريخ .

ـــ رغم أنكم تعيشون فى باطن الأرض .

ـــ لهذا المكان تاريخ وحضارة وذكريات مريرة .

ـــ كم أود أن اســـمعها .

ـــ هجرنا الى باطن الأرض هربا من الموت .

ـــ مثلكم مثل نـــوح .

ـــ شتان مابين الأثنين فنوح هذا أشهر على الناس تهديده ليبتز منهم ايمانهم .. أما نحن فلدينا اختيار تام تؤيده وثائق ومستندات .

ـــ لكن انكار الاثابة والعقاب بعد البعث يعنى الفوضى .

ضحك بسخرية أعقبها قولته :

ـــ كما تراها الآن فى مجتمعنا !!

ـــ قد تكون حضـــارتكم مؤقته .. كالبرق الذى يومض فجاة لينطفا بعد ثـــوان .

ـــ تقصد بحديثك حضارة الأرض .

تفكرت قليلا فيما قاله .. سألته فى ريبه :

ـــ وهل هى كذلك ؟

ـــ يا اله القرده .. أن أنكار فكرة الاثابة والعقاب يوم البعث العظيم وحتى أنكار وجود الاله لم ولن يهدم مجتمعا .. انما الانحلال ياتى من داخل المجتمع نفسه بتحلل خلاياه .. فالحضارة بعناصرها الأســاســية من أرض وشعب وارادة عمل لا صـــلة بينها وبين الاعتقاد بوجود الجنـــة أو النار أو انكار وجودهما .. بمعنى أنه لا ارتباط بين الحضـــارة وبين هذه المعتقدات فقد توجد حضارة بين شـــعوب لا تؤمن بهذه المعتقدات .. وبالعكس قد تجد

البدائية والتخلف فى شعوب تتمرغ فى وحل هذه الخرافات . والدليل على ذلك أنتم ونحن .. وبعض الشعوب القديمة التى كانت تمثل قمة الحضارة رغم انها لم تكن تعتقد فى وجود الاله كما صورته الأديان فالثواب والعقاب بعد البعث لم يعد حافزا للمجتمعات على الأخذ باسباب الحضارة .

بل وانقلب لضده وأصبح الوسيلة لاجترار الظلم ، الحمار الذى يمتطيه الحاكم وحوله حوارييه من رجال الدين يخوض به برك الفقر والجوع مهنيا قاطنيها بالجنة بعد الموت .. طالبا منهم الصبر على بلائهم انتظارا للآخرة التى سيجدون على جنتهـا الراحة التى افتقدوها فى حياتهم والتى سينعمون فى ظلهـا بكل متع الدنيـا التى حرموا منهـا .. من لم يتزوج سيجد الحور العين .. ومن لم يعثر على حظيرة يسكن فيها سيقطن الجنة .. وتدفع هذه الآمال الكاذبة قطعان البشر للاستسلام للظلم والاستبداد والقهر والاستذلال والجوع والحرمان أملا فى جنة أخرى غير أرضية يقطف ثمارها الانسان بعد موته وكان هذا هو الحادث عندنا قبل أن نثور .. الحكام يمتطون شعوبهم .. يهزون أرجلهم وحولهم حوارييهم يتشدقون بالجنة دون أن يسألهم سائل « ولماذا لا تحرمون أنتم أنفسكم من متع الدنيا .. أملا فى تلك الجنة العذراء » . والغريب أن الناس صادقو وصدقوا من كان يطعنهم من الخلف بكلمات المواساة والتى تحمل فى ثناياها كل الغش والخداع .

هل قرأت أو سمعت عن مجتمع إنهار لأنة لا يؤمن بوجود يوم البعث والحساب ؟!

لم أرد .. استطرد قائلا :

ـ المجتمعات تنهار عندما تنهار اخلاقياتها وتسمو عندما تسمو .. الأنهيار والحضارة مرتبطة أساسا بارادة الشعوب فى البقاء ومقومات الحضارة ليس من بينها هذا الاعتقاد ومع ذلك فان فلسفة العقاب والثواب لا يمكن انكارها فى القوانين الوضعية فهى التى تضع حد المسموح به والممنوع .. وعن فلسفة العقاب الدنيوية هذه أخذت الأديان فكرة العقاب الى مابعد الموت وأخذت أيضا ما ارتبط بفلسفة العقاب تلك .

قلت متسائلا :

تقصد القانون والحاكم الذى ينفذ القانون .

اجابنى :

ــ هذه بديهيات .. بل أقصد بعض الأمور التى يشترك فيها الحاكم مع الاله حق العفــو المقرر للحاكم ويقابله حق المغفــرة لله .. للحاكم يملك الأرض ومن عليها .. ويقابله الله ملك السموات والأرض .. الحاكم يرى بعيــونه (جواسيسه) والله يرى ويســـمع هو الآخر واحــدى وســائله ملائكته .. الحاكم يخرج عن طاعتــه خــوارج .. والاله خرج عن طاعته ابليس .. وفى نهاية المطاف نجد تطابق غريب مع تحــوير ذكى فى الأديان . وهذا ما يدفع للتساؤل لماذا فشــلت فكرة الاثابة والعقاب فى دفع الانسان للتحضر .. أن الذى ينتظم تصرفات الفرد باعتباره أحدى الخلايا فى نســيج مجتمعه ليست فكرة الجنة والنار .. بل الاختيار .. فعندما يمتنع الانسان عن ارتكاب جريمة فليس مبعث هذا الامتناع الايمان بفكرة الاثابة والعقاب يوم البعث .. بل مبعثه الآختيار الممنوح له من خلال التفكير فى آثار الفعل والمحاذير والضوابط والممنوعات التى وضعت على هذا الاختيار .. قد يكون الأحساس الدينى فى بعض المجتمعات البدائية وما يستتبعه من فكرة الجنــة والنار .. قد يكون هذا الاحساس احد أسباب الممنوعات .. لكن لا يمكن أن ننكر حتى فى وجود مثل هذا الباعث الأسباب الأخرى التى تدخل فى بلورة صورة الاختيار النهائى .. كوضع الفرد الاجتماعى وقدرته على وزن الأمور والأختيار بينهما .. وقوة الردع الوضعى كالخشــية من عقاب القانون .. أو لاعتبارات أخلاقية قد يدخل فيها الشعور بالخوف من الاله أو اغضابة .

قلت متسائلا :

ــ ومع ذلك فتوجد أمور لا يعاقب القانون مرتكبهــا ومع ذلك فقــد أجمعت المجتمعات على نبذها وأنكارها فمثلا الكذب والنفاق والغش والخداع والنميمة لا عقاب دنيوى عليها فاذا كنا ســترفض بشأنهــا عقاب الله .. فما عقاب مرتكبها ؟؟

ــ طرح السؤال بهذه الصورة يعنى فهم خاطىء لمعنى العقاب .. ذلك

انه توجد قاعدة جوهرية علينا ألا نتناساها وهى أن الكذب .. والغش .. والخداع .. والنميمة مسميات قديمة .. الحد الفاصل فيها بين الحلال والحرام حسب صيغة الأديان .. وبين الخطأ والصواب حسب صيغة القوانين الوضعية هو عنصر الضرر .. اذا تحقق ضرر نتيجة الاتيان بهذه الأفعال .. أى نوع من الضرر سواء أكان ماديا أو معنويا يعتبر خطأ .. اما اذا لم يحدث فيتراجع الفعل الى دائرة النية التى لا يعاقب الانسان عليها .. والنميمة التى وصفت فى بعض الاحيان بأنها أكل لحم الميت .. اذا كانت تقييما يدثره الواقع فلا خطأ فيها ولا حرام .. تماما كمن ينعت السارق بوصفه .. فهو لا يخرج عن نطاق التقييم المباح .

ـ معنى هذا أن يفلت المجرم الذى لم ينله عقاب القانون اذا كنا سننكر عقاب الآخرة .

ـ أيها القرد الكبير لو استطعت ان تفهم بعقلك فلسفة الحياة لما وجدت غرابة وأنت تطرح مثل هذا السؤال .. أن أحد نواميسها الصراع بين قوى الخير والشر .. فالشر واحد من أعمدة الحياة لا تستقيم بدونه وجه قبيح له وجه آخر حسن . فالموت شر يحاول العلم الاجهاز على أسبابه بشتى الطرق ومقاومته وتأجيل يومه وهو أيضا خير . فماذا يحدث لو اجهزنا على الأمراض وبالتالى على أسباب الموت فى تلك الحالة لن يكون امام المجتمع الا خيارات صعبة منع الانجاب أو التقتيل .. فما يعتبر شرا قد يكون واحد من أسباب ابقاء .. واذا انتهى الشر كواحد من نواميس الحياة .. فلن تستقيم الحياة بدونه .. رغم أنه من ألد أعدائها .. تحاربه وتحاول ان تقضى عليه .. ولكن لا يمكن القضاء عليه لأن فى القضاء عليه نهاية لمعنى الخير .. نهاية لمعنى الصراع .. نهاية لمعنى التقدم الانسانى ولا عجب اذا كانت الزهور تزهر .. والأوراق تخضر على مخلفات الحيوان .

ـ لكن هل تنكر أن الايمان بالجنة والنار كانا من أحد أسباب التقدم الانسانى على مر العصور :

ـ ليس هذا بالضبط .. لكن الايمان بهما كان حافزا للانسان ليموت

من أجل تثبيت دعائم الأديان .. فقد سيطرت هذه الملحمة الفريدة على كل صـــغيرة وكبيرة فى حياة الناس فى حقبات معينة .. وانبثق من هذه الملحمة اقتناع الناس بالبعد عن المعاصي فاصــــبح المحور الرئيسى للمحظور والمباح هو الخوف من نار حارقة او الرغبة فى جنة وارفة وليس من داخل مسببات التحريم أو الاباحة ــ لذلك فعندما بدأت فكــرة الاثابة والعقاب تضـــمحل ويقل تاثيرها بدأ موج الدين ينحسر تدريجيا خاصـــة بعد أن فقدت فلســـفة الترهيب والترغيب والتى كان لها مفعول السحر فى العصور المتقدمة تاثيرها فى العصور اللاحقة ذلك أنه اذا كان منطقيا ترغيب الانسان البدائى المتعطش للماء والجنس والطعام بالجنة التى تجرى من خولها الأنهار بقطوفهـــا الدانية وجواريها والخمر المعتقة .. لم تعد مثل تلك المغريات تثير اهتمام الانسان المتحضر .. فالماء حتى مثلجا والمرأة حتى عارية والفاكهـــة فى غير أوانها لم تعد تلك الأمور تجتذب حتى الفقير أو تشحذ ايمانه ليفعل الخير أو ينتهى عن الشر بعد أن دانت له قطوف العلم واختراعاته .. ومع ذلك فالعقل يقف حائرا أمام تساؤلات عدة تنخر بنيان فكرة الجنة والنار التى عششت على العقول وهيمنت على الفكر الانسانى خاصـــة ونحن لا نجد اجابة شـــافية على تلك التســاؤلات لا من خـــلال العقل البشرى ولا فى الكتب .. ولا فى الحـــواش والهوامش .. العقل يقف أمام باب سد بالاسمنت المســلح يحتاج لعشرات من أصابع الديناميت . أول ما يخطر على بال اى مفكر كيف يعود الانســـان للحياة فى هذا الفندق الالهى .. ثم ماهى صورة الانســـان عند بعثه ؟! ثم ماهى نوعية هذه الاجساد ؟ .. هل ســـتخضع لناموســـها البشرى ام ان قانونا جديدا سيشملها .. ويغير من خصائصها البشرية .. عجينة أخرى لا تحمل من البشر سوى الاسماء ؟؟ ثم ماهى اللغة التى يتحدث بها قاطنى الجنة ؟ . وأين يقطنون ؟ . هل فى بيوت مؤثثة تاثيثا حديثا بأحدث الأجهزة من تكييف وثلاجات أم أن قاطنيها سيقطنون الخلاء ؟ . ثم ماهى نوعية هذا المجتمــع أى قانون ســيحكمه ؟! .. وماذا عن الخـــلافات التى تحدث بين الناس .. كيف تحسم .. وماهى أداة الحسم .. شرطة أم قضاء أم حاكم ديكتاتورى ؟؟ وماذا عن حاجة الانسان اليومية من طعام وملبس ومسكن ..

مئات من اللماذات والتساؤلات تختلج بها النفس .

فى هذه اللحظــة خط على قلبى نسر يمزقة .. ان كل ما يثــيره ليس ســـوى انكارا للجنـــة التى اعيش بين ســـكانها !! ان الأجابة على هذه التساؤلات من خلال ما رأيتة .. وما أعيشة يعنى أمر واحد اننى لست على أرض الجنة .. شردة قصيرة عدت بعدها الى محدثى وهو يستطرد قائلا :

ــ فلنبدأ بصورة الانسان عند بعثة . الاقرب الى التصـــور العقلى أن الانسان يبعث بالصورة التى مات عليها الطفل طفلا .. والشاب شابا .. والكهل متكهلا لكن فى اطار قانون النمو وخاصية الشبوبية .. فلكل شباب رغم انه ينمو .. ترى على الكهل آثار السنين بتعبيرات وأخاديد بشرته .. لكنه يحمل جسد شاب .. بتوقد ذهنه .. بوميض خاطره .. بقوة جسده المحصـــن بطبيعتة ضد الأمراض والتى لا وجود لها !! وبالتالى ســـيصبح للطفل لعبته .. وحضـــانته .. ومربيته ولففة .. ومدارســـة .. وللكبار هواياتهم من الطعام والمرأة وضروب اللهو المختلفة ..

قاطعته متسائلا وعقلى تدوسه الحيرة .. وتنهشه التساؤلات :

ــ لكن كل هـــذا يحتم وجـــود مرافق من مبانى .. وملاعب وأدوات مدرسية ومواد أولية كالأسمنت والحديد والطوب والورق .. فكيف يتسنى ذلك وأهل الجنة لا يعملون   بل يستمتعون فقط بملذات الحياة ؟!

أجابنى بســخرية لاذعة :

ــ الأقرب الى التصور أن الذى يعمل لخدمة أهل الجنة هم أهل النار هم الكادحون .. ينظفون الشـــوارع .. ويقيمون المبانى .. وينشـــئون المرافق .. ويجمعـــون القمامات .. ويطهـــون الطعـــام .. ويعملـــون فى المصانع .. كل المصانع من الابرة الى الصاروخ عدت أسأله من جديد علنى أضـــيف الى معارف مليثرى عقلى ويبـــدد عنـــى الســـحابة القاتمـــة .. للغموض الجاثم :

ــ معنى هذا أن اجساد المبعوثين ستخضع لناموس الطبيعة البشرى بمعنى أنسجة وخلايا ودم وأجهزة وبالتالى مخلفات صـــلبة وســـائلة ..

وما يستلزمه هذا من وجود دورات مياه .. وحمامات للاغتسال من الجنابة ورائحة العرق !!

قاطعني رئيس المحكمة قائلا :

ــ وقد تخضع لقانون آخر غير بشرى .. أجساد بلا مخلفات سائلة أو غازية كعادم السيارات .. لذلك فلا ضرورة لأجهزتهـا الداخلية من قلب وامعاء ومعدة . ومن ثم يخضع الجسد لقانون آخر غير قانونه البشرى .. وبالتالى يتحول هؤلاء المبعوثين الى نوع آخر غير انسانى لا يحمل صـفات البشر .. مجرد عجينة اخرى لا تحمل من البشر سوى الأسماء والسؤال من اذن سينعم بالجنة .. ومن سـيتعذب بالنار وقد تحول الانسان الى بديل آخر لا يشترك مع الأصـل الا فى الاسم فقط؟! وبعد أن يتحول الشىء الى نقيضه كيف نثيب هذا النقيض أو نعاقبه على فعل ارتكبه غيره !! ؟

مرت فترة صمت قصيرة .. استطرد بعدها متسائلا :

ــ فهل هذا هو ماعندكم فى الجنة ؟!

لم أنطق .. حل الصمت بالقاعة وهو يوجه الى سؤالا آخر :

ــ واللغـة التى تتحادثون بها فى فندقكم .. كيف يمكن التفاهم بين بدائى لا تصدر عنه سوى همهمات .. وبين متحضر ارتاد الفضـاء .. بين قاطن القمـر وقاطن الكهف .. كيف اسـتطعتم فى جنتكم التغلب علـى تلك الصـعوبة ؟

قلت فى بهجة المكتشف :

ــ اراك تحاول أن تدق بهذا التحليل مسمار الأخير فى نعش جنتنا .

قاطعنى فى حماس زائد :

ــ وأين تقطنون .. فى العراء أم داخل كهوف أم فنادق مكيفة أم داخل اكواخ من الطين .. أم فيلات فوق السحاب !!

ثم ماهى نوعية المجتمع لديكم .. أسرة وأولاد أم مجتمع فردى انانى يغيب عنه الاحساس بالتضحية والسـعادة والحب والاخلاص والتفانى .. لأنها معانى مفتقدة لدى مثل هذا النوع من البشر لأنه لا يمكن الاحساس بها الا مع الألم .. وبالتالى يصـبح الانسـان مجرد حجر صـلد أجوف ..

فلا اجهزة داخل تجويف بطنه أو صدره او رأسه .. فهو ليس سوى تمثال من الصلب الأجوف .. ثم كيف يروح الانسان عن نفسه لديكم .. اسرافيل يغنى على انغام جوكة الملائكة مع رقصات السامبا للجن الأزرق والأحمر وزعقات الشياطين وهز بطن أبليس العاق .. الذى سيمتطيه رواد الجنة كما يمتطى السائحون الجمال .

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق ورئيس المحكمة يستطرد قائلا :

ـ والثياب .. هل يمكن اقتناع القردة بارتداء الثياب والسراويل .. خاصة وأن احدى المحرمات شديدة اللهجة تقضى على الفتيات بارتداء الملابس « للحشمة » ثم كيف بتجهيز هذه الثياب .. وتلك السراويل هل لديكم مصانع لتصنيعها .. يديرها الملائكة والجن الطالح !!

لم أرد .. سخريته لاذعة .. عاد الصمت يلف القاعة .. وعاد صوته جهوريا .. قويا .. واثقا :

ـ لقد قلت أن الانسان لديكم خالد لا يتألم .. فى هذه الحالة ستراه على طبيعته العذرية بعد أن فقد احاسيس الحياة .. من حب .. وخجل والطعام .. الحق يقال أنه لا يمكن أن يقتصر على ثمار الفاكهة فقط فكل ما يطلبه الانسان يجاب فى غمضة عين .. يصفق بيديه فتأتيه الموائد كما فى الف ليلة .. أما كيف فهذا علم لدنى !! لا يعرفه البشر .. فهل عرفته أنت يا اله القردة وعرفتنى به .. كيف يأتيكم الطعام مطهيا مزخرفا أنواعه .. أم يأتيكم فى الاحلام فقط ؟!

قلت مقاطعا :

ـ خلاصة قولك انك تنكر الجنة .

لم يأبه لسؤالى بل استكمل حديثه قائلا :

ـ ثم اين يقع هذا الفندق الالهى .. اين موقعه فى الاجرام السماوية ؟

أجبته :

ـ فى السماء السابعة .

ـ واين تلك السماء السابعة ؟

ـ يفصلها عن الأولى ست سماوات !!

ــ تقصد بالسماء الأولى تلك التى بنيت بغير عمد .. وعليك أن تعد سبع اسقف بعد البدروم .. لكم نود جميعا رؤيتها .

سألته فى بلاهة :

ــ الجنة أم السماء ؟!

ــ ما أقصده هو الجنة .

ــ اشحذ ذهنك فقد تستطيع ذلك كما فعل الأولون !!

فى تلك اللحظة أضاء الكمبيوتر بعبارة :

ــ « اجابة تدل على عقل بشرى متقدم » .

اعقب ذلك قول رئيس المحكمة :

ــ قم بوصفها لنا .

ــ ليست سوى حديقة وارفة الظلال .. تجرى من تحتها انهار العسل واللبن والخمر .. ويلبس قاطنوها ثيابا سندسى واستبرق ويتحلون بالجواهر ويتكئون على الارائك ويطوف عليهم ولدان مخلدون وتنحنى اغصان الاشجار ليلتقم قاطنوها الفاكهة .. وتجد ايضا قاصرات الطرف لم يطمثهن انس ولا جان كانهن الياقوت والمرجان وكواعب اترابا اجسامهن من المسك مبرأة من نقائص البشرية وآثامها لم تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسادهم .. ولكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل ..

قاطعنى رئيس المحكمة :

ــ يا اله القردة لسنا فى حاجة لهدم هذا المفهوم الى ادلة خارج مقاطع الحروف بعد أن استكشف الانسان بعقله آفاقا أخرى للاستمتاع الحسى والعقلى تفوق مثل هذه الأوصاف والتى أصبحت نقطة فى محيط الأعاجيب والتى نراها كل يوم فما عاد الانسان يشغله أن يكون طوع بنانه الطعام متمثلا فى الفاكهة والتى تنحنى أغصانها ولا عشرات من النسوة أغفل السلف الصالح عن تبيان كيفية الاستمتاع بهن هل بالقبل والأحضان أم بالمعاشرة أم بالنظرة الزانية .. ولا الجواهر والنفائس التى يمتلكها اهل الجنة .. رغم أن مثل هذا التملك يحمل معنى الردة والأنانية وحب للذات

والصراعات من خلال غريزة التملك والتى تنبع من احساس الانسان بقيمة الشئ الذى يرغب تملكه نتيجة التنافس عليه بعكس ما اذا كان هذا الشيء مباح .. ومتوفر فلا يصبح لاقتنائه معنى أو مضمون ذلك أن قيمة الشيء ترتبط وجودا وعدما بالتنافس على اقتنائه .. ولن يحدث هذا التنافس طالما ان الشيء قد فقد قيمته نتيجة توفره فى أى وقت حال طلبه .. يعنى هذا ان الوعد بالفضة والذهب لن يحمل أى معنى للاغراء طالما أن هذه المعادن تفقد قيمتها نتيجة تلبية حاجة طالبها وقت طلبها دون عناء ..

حل الصمت .. داعبت الحيرة العقول .. وهو يستطرد قائلا :

ــ أن المتفقهين حاولوا سد هذه الثغرات بالالتجاء الى قاعدة نادوا بها حتى بحت أصواتهم من كثرة الزعيق رغم أنها قاعدة تخالف التفكير العقلى وهى الايمان بكل مافى الاديان من نقائص تحت حجة مظلة حظر النقاش لكل امر يصعب على العقل ادراكه حتى لو خالفت احكامه البديهيات المنطقية .. وانتهكت حرمة قدسية العقل .. لأن من يجرؤ على مثل هذه الفعلة الشنيعة مآله للنار خالدا فيها حيا أو ميتا .. وبالتالى يصبح اليقين فى الخرافات أقوى من اليقين فى المنطق .. وكان أن وقعت تحت هذا البند مئات من جرائم الدعارة الفكرية واستبيح كل ما يرفضه العقل وذبح التقدم بنصل التخلف واريقت دمائه .. واستفحل غول الارهاب الفكرى الدينى محاولا تحطيم البديهيات العقلية تحت ستار هذا الخطر الالهى المفروض على كل نقاش لأحكام الأديان .. ولكن ماحدث لدينا غريب .. لقد حاول البعض أعمال العقل والفكر والمنطق .. ولكن قوبل من رجال الدين بالاتهام بالكفر والردة .. والسحر الأسود !!

لكن ذلك لم يثنه عن عزمه .. وظل يضرب فى قسوة بسياط العقل على أجساد هذه المسلمات الهشة لاستظهار الحقيقة خلف كل صرخة الم .. وبعدما اختفت اشباح كثيرة من المسلمات فى جب النسيان وبدأنا عهدا جديدا أصبح العقل هو الفارس الوحيد الذى يعتلى صهوة الفكر يقفز به فوق فيافى الجهل وقمم الخرافات .

قلت فى سذاجة عفوية :

ـ لقد انكرت الجنة رغم أننى آت فيها .. فما بالك نالنار ؟

فى تلك اللحظة ضجت القاعة بالضحك .. والتصفيق .. حتى الكمبيوتر علق على شاشته الصغيرة « نكتة ظريفة » ..

المدعى يتصدى للاجابة فى لهجة غرورة :

ـ تقصد احدى المسلمات التهويمية التى انشغل علماء الفقه منذ مئات السنين فى تثبيت دعائمها وتقوية أساسها لتصبح واحدة من أعتى أساليب الارهاب والتخويف من العذاب فى الدار الآخرة مع أنها تستمد جذورها من فكر بدائى قديم يقوم على التعذيب الجسدى .. انتقلت عدواها الى الأديان بعد أن تحورت فكرتها من التخويف البشرى الى التخويف الالهى .. فقد هيمن هذا الفكر الالهى على الأديان لأن أصحاب الدعوة اليها لم يكن يملكون السلطة أو القوة لتطبيق تعاليمهم .. لذلك فلم يكن أمامهم سوى الالتجاء الى الترهيب أو الترغيب الغير منظور .. فتحدثوا عن الحياة الأخرى التى يحياها الانسان .. اعتمدوا على الفكر الخفى ليدعموا دعوة حقيقية لا تسندها سلطة أو قوة على أرض الواقع .. فلجأوا الى التخويف بالنار بعد البعث أو الترغيب فى الجنة بعد الموت .. وكان أن سيطرت فكرة الجنة والنار على العقلية السائدة فى العصور القديمة واستحوذت على كل نبض فيه الى أن خاض الفكر الانسانى عندنا معركة رهيبة فى مضمار ملعب الحقيقة واستطاع فى النهاية أن يطرح هذه الأفكار أرضا .. ويدوسها بقدميه زاعقا زعقة الانتصار فوق الجسد المحتضر أما عن فكرة النار فهى ليست سوى هرطقة عقلية .

قلت بأسى وألم وضيق افق :

ـ كيف ؟!

ـ العذاب بالنار يستلزم لتحقيقة وقوعه على شىء محسوس ، بعد الموت يقع هذا العذاب على الجسد بعد بعثه حيا .. أما داخل القبر فقد اصطدم الفكر الدينى بعقبه كؤود .. كيف يتحقق مثل هذا العذاب المادى على ذرات .. مخلفات بشرية لا تحس الألم !! لذلك لم يكن أمام هذا الفكر سوى الالتجاء للفكر الخفى .. القول بعذاب الروح .. واساس هذه التفرقة

الغريبة بين عذاب الجسد فى الآخرة وعذاب الروح فى القبر .. هو عجز الفكر الدينى عن تفسير مدلول هذا العذاب داخل القبر . فربط العذاب وهو معنى محسوس بالروح وهو معنى خفى غامض من شأنه تمويت القضية . ولتصبح مثل غيرها من الخرافات غير محددة .. وغير مفهومة لكن على العقل ان يقبلها على علاتها دون أن يناقش صحتها مع مافى هذا القول من خطل .. وخطر كثير فالقول بعذاب الروح وما يحمل العذاب من معانى محسوسة يتنافى مع ابسط قواعد العقل الواعى .. ذلك انه لا يمكن بناء حقيقة على وهم فكيف يقع العذاب وهو « معنى نعرفه جميعا » . على الروح التى نجهل كنهها أو مدلولها مثل هذا القول يدل على هروب الفكر الدينى من مواجهة الحقائق الملموسة والتى يدركها الانسان العادى فهو يرى الجسد بعد أن يوارى التراب والدود ينخر فيه ليتحول بعد ذلك الى رماد وهو يدرك أن الجسد بعد الموت يفقد الاحساس بأية مؤثرات خارجية من زمهرير أوحر أو لفح نار مع هذه الحقائق الملموسة لم يكن أمام الفكر الدينى سوى لم أذيال الخيبة والهروب الى كهف الوهم والمناداة بعذاب الروح حتى لا يصطدم بالحقائق الملموسة والحجج الدامغة .. ثم اذا كان الفكر الدينى قد نفى علمه بمدلول هذه الروح فكيف أذن يتحدث عن النار التى تسوم هذا المجهول ؟ !!

فى تلك اللحظة تملكنى العناد .. التحدى .. رغم أن مايقال لا يخالف العقل ولكنى صرخت بأعلى صوتى .. لا دفاعا عن القضايا التى يثيرونها .. بل دفاعا عن نفسى .. عن وجودى .. عن كينونيتى .. أن كل ما يقال يهدمنى :

— تنكرون علينا عقيدتنا .. وايماننا وأسلوب حياتنا .

لم يأبه رئيس المحكمة لتعليقى بل استطرد قائلا :

— واذا انتقلنا الى صورة هذا العذاب البعث العظيم .. الانسان الذى يشوى ويقلى على جنبيه .. ويكوى على جبهته .. ويتغير جلده لتعود عليه الكرة .. الانسان الذى يشرب من ماء النار والوقود الذى هو الناس والحجارة .. والطبقات السبع الذى ينقسم اليها المعذبون .. كل طبقة تتناسب مع الذنب الذى ارتكبه الانسان العاصى .. والزمهرير .. والأحذية

التى تصنع من النار .. كل هذه صور مادية بحتة على الانسان أن يؤمن بها دون أن يناقش صحتها او جدواها بل عليه أن يتقبلها وان يؤمن معها بالبعث والذى ستكون من علاماته ضعف ايمان الانسان وفساد أخلاقياته وكثرة حروبه .. وسيكون الانذار بنفختان فى الأولى يهلك كل الناس ماعدا جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت والذين يموتون بعد حين .. ثم يحيى الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الموتى ويتهيأون للحساب .. فى تلك اللحظة يتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جمعاء .. ثم توزن الحسنات أمام السيئات « ولا ندرى أى ميزان هذا الذى يمكن أن يزن الأعمال » .. الا اذا كانت الأعمال ستترجم فى النهاية الى أثقال وموازين !! ثم يحاسب الانسان على ماقدمت يداه .. هل يداه فقط أم ماقدمه عقله ويشهد الأنبياء على الكافرين ثم يسير الأشرار والأخيار على الصراط المعلق فوق الجحيم وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف فيسقط فى الجحيم الأشرار ويجتازه الصالحون الى الجنة .. كل هذه الأوصاف المادية لو أخضعناها لميكرسكوب العقل لوجدنا آلاف الفيروسات التى تقضى على الفكر قضاء مبرما ..

أول هذه الفيروسات .. هو غياب الحقيقة العقلية من خلال ماورد من أوصاف لا تتفق والعقل لغياب الحكمة التى تكمن وراء هذه الأوصاف .. ثانيها اذا ما حاولنا ربط كل هذا بقضية الوجود المطلق والوجود الحقيقى لما وجدنا حقيقة تؤيد هذا المجهول أو الموجود المطلق ليتحول الى وجود حقيقى لذلك فيبقى مجهول غير معلوم لا يمكن تصديقه .. ثالثا أن فلسفة العقاب من اختراع الانسان .. فاذا ما تغيرت تلك الفلسفة على أساس أن المجرم مريضا وليس مخطئا تبدلت جهنم لتصبح مصحات للمرضى والخطائين .. كما هو عندنا .

سكت محدثى .. اتجه نحوى .. ابتسم . سألنى :

— الآن جاء دورنا لاكتشاف حقيقة تخلفك من خلال أسئلة نوجهها لك :

بلع ريقه .. أخذ نفسا عميقا .. استطرد متسائلا :

ـ الانسان .. ماذا كان قبل أن يصبح انسانا ؟

ـ للاجابة على سؤالك توجد نظريتان متعارضتان متصارعتان .. الأولى الانسان ليس سوى مخلوق أرضى جاء نتيجة تطور مذهل فى عالم مادى عمره ملايين السنين نتيجة تفاعلات كيميائية منذ اللحظة التى انقسمت فيها خلية الامبيا ليشملها التطور الى الانسان أرقى الحيوانات ..

رد المدعى معقبا : « برافو .. برافو » ورايت بعدها على شاشة الكمبيوتر عبارة (تفكير علمى مطلق) ٠

قلت مستطردا :

ـ اذا كانت تلك النظرية صحيحة فالانسان ليس سوى نظرية مادية بحتة .. وجد بالصدفة وسيموت بالصدفة وبموته يصبح مجرد ذكرى فى اروقة الحياة فلا اله ولا ثواب لا عقاب ولا جنة ولا نار ولا جن أزرق أو احمر ولا ملائكة بيضاء أو خضراء تهفهف بأجنحتها والرسل ليسو سوى مجموعة من الدجالين .. والأديان صيغ بشرية ذكية .. والانسان ابن الطبيعة .. خالق نفسه . هو الأوحد والأقوى والافضل والجبار والمتكبر وبالتالى فقد وجد بالصدفة .. وسيفنى جنسه البشرى أيضا بالصدفة وعلى البشرية فى هذه الحالة الأخيرة أن تبدأ للمرة الثانية من نقطة الصفر .. اى من نقطة البداية .. وقد يختلف شكل المخلوق القادم عن الانسان المندثر بعد فناء العالم ٠

علق رئيس المحكمة قائلا :

ـ ومن ادراك قد يكون هذا الانسان الذى يسيطر الآن على مقدرات عالمنا خليفة فصيلة من البشر سبقته أقل حضارة واندثرت هى الأخرى بعد أن قضت عليها الكوارث نتيجة فشلها فى تحقيق رسالتها على الأرض .. أكمل .. اكمل .

استطردت قائلا :

ـ ما قلته هو الفرض الأول أما الفرض الثانى هو وجود ارادة عليا ترسم لهذا الكون تابلوهاته الرائعة وتخطط وتهندس له مشاريعه وان الانسان ليس سوى صورة من الصور التى ارتضاها هذا الرسام الماهر

لتحقيق مبادئة وان صلة الله بالانسان هي تماما كوصلة تيار الكهرباء من محول ضخم يغذى مصابيح صغيرة .. هذه المصابيح ليست سوى البشر .. تنطفأ وتموت اذا انفصل التيار عنها .. يرتبط بهذا الفرض الثاني قضية الخلق .. صلصال فبعث للروح في الصلصال .. فحياة .. فما رأيك أنت .

سحب رئيس المحكمة نفسا عميقا اجابني في هدوء غريب :

ـ ما تحدثت عنه ليس سوى حديثا بالشفرة نستطيع حل رموزه من خلال متناقضات عدة أولها أنه تصوير مادى ساذج لخطوات في الخلق يعجز العقل البشرى عن فهمها صلصال فتمثال .. فنفخ .. فانسان .. كيف يتسق هذا التصور مع حقيقة القانون الكامل أو الوجود المطلق ثم كيف يتفق هذا التخيل مع الحقائق العلمية .. ثم ماهي الحكمة التي تكمن خلف اتباع هذه الوسائل بعينها ثم لماذا لم يخلق الانسان كما خلقت الأرض كما يقال من العدم ؟! واذا كان الانسان قد خلق حقا من قطعة صلصال بعد النفخ فيها .. فماذا كانت الوسيلة في خلق الحيوان هل صنعت منه اشكالا وأحجاما وانواعا مصلصلة ثم نفخ فيها هي الأخرى . فانبتت الأرض سحالي وديناصورات وقرود .. واسود .. وظباء وثعالب أم أن الارادة الالهية تدخلت بصورة من الصور نجهلها فخلقت الحيوان وانبتت النباتات اذا كان هذا كذلك فلماذا حبس عنا كيفية نشوء الحيوان بينما بولغ في وصف نشوء الانسان .. ثم اين كانت تلك الجنة التي هبط منها آدم .. ثم كيف هبط . بباراشوت أم بصاروخ ؟! القضية في الحقيقة هي قضية القانون الكامل ..

قضية القانون الكامل تعني أن قانون الحياة على الأرض قانون صارم وضع بدقة شديدة لا يحتاج من الارادة الالهية التدخل كلما عن لها ذلك .. والا كان ذلك معناه .. نقص أو عيب شاب أحد فروع الناموس الالهي يستدعي التدخل الالهي بين كل آونة واخرى لسد هذا النقص .. أو رتق هذا العيب .. ورواية الخلق التي تحدثت عنها ليست سوى تدخل مباشر من الله لصنع انسان وتعني في النهاية أن قانون الله ناقص استدعى

تدخله المباشر لصنع انسان .. مع أن قانون التطور من الامبيا الى الانسان يسد مثل تلك الثغرات وهــذا النقص .. فالكون ليس فى حاجـة لتدخـل مباشر او غير مباشر من الارادة العليا لعلة اصـلاح ما أفسده الدهر .. لأن القانون الالهى ليس ثوبا يبلى يحتاج بين كل آونة وأخرى الى رتوق تغطى بدنه العارى ورواية الخلق بهـذه الصـورة تعنى أمر واحد فقط عقل بشرى حاول أن يجد لنشـوء الخلق أسبابا مقنعة .. فانتزعها من عادات وتقاليد وأساطير .. وخرافات شعوب سبقته بمئات السنين ثم عاد ليؤكدها بدعوة ألبسها ثوب الهى .. حتى يصـدقها الناس .. ولم يجد بديلا آخر فالبديل تحكيم للعقـل ثم انصراف عن الداعية لها لذلك فقد لجأ العقـل البشرى الى الصاق مثل هذه الروايات العاجزة وغـيرها بالقدرة الالهية حتى يكسـبها حصانة ضـد أى مناقشـة علمية .. منطقية .. وحتى تصـبح الاجابة دائما .. هكذا أراد الله .. ردا على أى نقد أو تحليل او تجريح او استنتاج عقلى يخالف أســاس العقيدة .. اذن فالقانون الالهى قانون كامل متكامل لا يختلف على صحته اثنان وتعثر الانسان فى رحلته نحو حقيقة هذا القانون وهو يخطىء ثم وهو يصحح ليستكمل مسيرة ملايين السنين .. مثل هـذا التعثر لا ينتقص من القانون الالهى الكامل أو يقلل من قيمته .. فهى عثرات البشرية للوصول الى المعنى الحقيقى للقانون المتكامل .. فاذا ما وصـلت البشرية لحقيقـة معناه .. فلا تغيير ولا تبـديل فقانون كقانون الجاذبيـة الأرضية لا يختلف حول صحته أحد .. ودوران الأرض حول نفسها ايضـا قانون متكامل ومثله قانون الطفو .. كثير من هذه القوانين ثبتت أقدامهـا أمام عواصف البحث والاستقصاء .. وباتت فى سـجل العلم قوانين كاملة لا يعتريها .. ولا يشوبها عيب ..

سكت محدثى يسـتعيد انفاسـه اللاهثة .. عدت انغزه بسـؤالى الحاضر :

ــ ما حدثتنى به هو القانون الكامل .. فكيف بالوجود المطلق هنا .

ــ حتى يتحول الوجود المطلق الغير معلوم الى وجود نسبى ملموس يجب أن يستند الى حقيقة علمية او استنتاج عقلى .. وقضـية الخلق كما

صورتها الأديان لا تستقيم مع الحقائق العلمية ولا مع الحقائق العقلية .. لذلك ستبقى هذه الروايات وغيرها فى جعبة الخرافات حتى تؤكدها حقيقة علمية أو تاريخية أو انسانية أو يسندها استنتاج عقلى .

ـ ورسالات الأنبياء والرسل .. أو ليست من عند الله ؟!

سكت محدثى قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ حتى نعرف اذا كانت تلك الرسالات من عند الله أو من تأليف البشر .. علينا أن نبحث أولا هل ما تثيره الأديان من قضايا تعتبر حقائق كاملة لا يختلف عليها أحد بحيث يمكن أن نطلق عليها القوانين الالهية الكاملة .. ثم هل هذه القضايا تسندها حقيقة أو استنباط عقلى .

ـ الأجابة بالنفى على السوالين معا . ومع هذا فالبعض ينكر وجود الله .. فهل ينفى هذا الاختلاف وجوده ؟!

ـ قضية وجود الله .. ليست قانون سنة الله لدوام بقائه .. واستمرار حيواته على مر العصور .. بل هو قانون لا ينفصل عن ذاته .. بمعنى أنه اذا كان لا يوجد خلاف حول وجود قانون يحكم الكون بدقة شديدة .. وأن خلف هذا القانون ارادة منظمة .. امتزجت به حيث يمكن القول ان القانون هو الله .. والله هو القانون .. وأن البديل لغياب هذا القانون هو الفوضى .. اذا قلنا بذلك وقلنا أيضا أن محاولات البعض لتصوير الاله بالصورة البشرية لتقريب مفهومة للعقل البشرى قد باءت جميعها بالفشل ونتيجة لهذا باتت صورة هذا الاله غامضة .. تناولتها الشكوك .. واذا كان الاستنباط العقلى هنا تتوفر أركانه من حيث قيامه على حقيقة حتمية وهى وجود القانون الذى يحكم الكون وارتباط الله بهذا القانون وجودا وعدما .. بحيث يمكن القول أنه تعبير لمضمون واحد سمه ماشئت الله .. القانون .. الوجود .. فهى كلها أسماء بشرية لا دخل للاله فيها لكنها تعبر عن فكرة جوهرية .

قلت مقاطعا :

ـ نعود الى موضوعنا الرئيسى .

اكمل محدثى بنفس الهدوء الغريب :

ـ نستطيع القول بلا لف او دوران أن القانون الالهى قانون متكامل غير منتقص يصلح دائما لكل زمان ومكان .. لا يحتاج لتدخل مباشر أو غير مباشر لتبديله أو تغييره لأنه يحمل فى ثناياه الكمال الدائم .. والحل الأمثل . والرسالات ليست قانون الله لأن ذلك يعنى اذا اعتبرناها قانون الهى امر واحد فقط أن القانون الالهى منتقص غير كامل .. يقوم الله بتعديل نصوصه ونسخ أحكامه كلما تبين له خطأ فى المنهج الذى وضعه لتسيير دفة الكون .

ـ خطير كلامك .. خطير .

المدعى يحاول استدراجى من جديد فى شرك صنعه ببراعة :

ـ نعود الى سؤالنا الذى سبق ان طرحناه وخاب ظننا فى اجابتك حتى أننا اعتقدنا أنك أحد القردة .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ قلت أنك الاله ؟

ـ نعم .

ـ وكيف اصبحت كذلك .

ـ الناس نصبونى الها .

ـ تقصد ملكا !!

ـ لا .. بل الها .

ـ وما صفات الاله ؟

ـ الآمر الناهى .. امره لا يرد .. وكلمته نافذه .. وله حق الموت على البشر فى تلك اللحظة اضاءت شاشة الكمبيوتر « ما يتحدث عنه جاء فى صحائف للتاريخ الاله من البشر ثم انتقلت عدوى هذه الفكرة لصحائف الأديان .. الاله الخفى القادر الماحق والذى لا يحد سلطته قانون ولا يقف فى طريقه بشر » .

عاد المدعى يستكمل اسئلته بهدوء شديد :

ـ لكن كيف للبشر بفكرة الاله ؟

اجبتــه :

ــ الله يحل فى اجســـادهم فاذا هم مثله او أبنائه يحملون صــفاته وقدراته .

ــ حدثنى عن تلك القدرات .

ــ بعضــهم أحيى الموتى وشـــفى المرضى والبعض الآخر قاد ثورة فى الفكر والعلم والسياسة والنظريات الاقتصادية والفلسفية ..

ــ وأنت ؟

ــ احرك الريح والمطر واخسف بالشمس واعيــد الحياة للأنســان والطــير !!

ــ الله قانون .. فهل أنت هذا القانون ؟

ــ انا الكل داخل الجزء .. وانا الجزىء داخل الكل !

ــ أزاهد أنت !!

قلت وقد تملكنى الضيق :

ــ الى اين تتجهون بمحاكمتكم ؟!

ــ الى الحقيقة .

ــ وما شأن التهمة بما نتحدث عنه .

ــ أنهــا ليســت محاكمة لشخصــك .. بل محاكمة لعصرك .. فالحضارة تحاكم التخلف .

ــ والنهاية ؟

ــ قبلها تعطيك المحكمة فرصة اخيرة لتثبت فيها صدق دعوتك .

بعد لحظات كان رئيس المحكمــة يقبض بيده على طائر .. ذبحه ثم اعطانى اياه وهو يتمتم ساخرا :

ــ هيا اكشف لنا عن قدراتك .. ارنا كيف يطير الذبيح .

فشــلت .. بكيت .. أول مرة التقى بالدموع والعجــز والاحبــاط ورئيس المحكمة يرفع الجلسة بعد ان اصدر قراره ..

ــ يسمح للمريض بزيارة المدينة ومعالمها .. ليتعرف على اســباب حضــارتنا .

سيارة لا تسير على الأرض بل على وسادة من الهواء سمكها نصف متر تتحرك فى الشوارع .. الأطفال والرجال والنساء على جوانب الشوارع يلوحون لى بأياديهم . الشوارع نظيفة .. عارية من ثوب القذارة .. مرصوفة بطبقة بلاستيك بيضاء .. البيوت زجاجية .. النوافذ بلاستيك ملونة .. الاشجار والأنبتة تغطى مساحات كبيرة .. الملاعب وحمامات السباحة والحدائق والملاهى منزرعة فى الميادين . أشياء لا يصدقها عقل بشر .. ولا يصل اليها خيال شاعر أو كاتب .. ان ترى الشوارع خالية الا من البشر .. أما كافة وسائل المواصلات .. من سيارات ومترو .. فهى تسير فى الأنفاق .. ان تجد الجو مكيف والهواء الرطب يداعب وجهك .. أن ترى الابتسامة دائما على الوجوه .. لا غضب ولا حزن ولا الم !!

السيارة تتوقف أمام بناية ضخمة .. مرافقتى تفتح باب الزنزانة الزجاجى .. تطلب منى ارتداء بذلة .. كبذل رواد الفضاء .. فجأة انفتح كهف ذاكرتى عن كوة صغيرة ثلاثة رواد أنا واحد منهم يسبحون فى الفضاء داخل سفينة احدهم يصرخ « لقد انقطع اتصالنا بالارض » الكوة تزداد اتساعا والسفينة تحط على ارض ذلك الكوكب .. نعم ذلك الكوكب الغريب الذى استقرت عليه السفينة بعد أن فقدنا نهائيا الاتصال بالارض .. ولكن كيف ولماذا ؟؟

بدأت الكوة تزداد اتساعا .. ازيز الصاروخ .. ابتسامات اصدقائى اياديهم تلوح لى قبل ان ارحل فوق السفينة .. والكوة تنغلق .. أحاول أن افتح الثغرة من جديد .. بلا جدوى .. لقد توقف كل شىء حتى قطار الذكريات على محطة المجهول .. وأنا اسأل نفسى أسئلة لا أستطيع لها اجابة .. كيف رسوت على ارض الجنة .. هل هو بعث جديد بعد أن انفجرت المركبة وقضى على لأبعث من جديد فى ثوب حياة هذا الانسان الذى اكونه الآن .. حاولت مرارا ان أحرك قاطرة ذكرياتى .. بلا جدوى فقد نفذ كل مالدى من طاقة .. ميسورة تطلب منى بادب جم أن ارتدى الرداء

الفضائي .. وبعد أن ارتديته همست برقة ونعومة :

ــ هيا معــي .

ســـألتها :

ــ الى أين ؟

ــ ارشيف الحضـــارة .

هبطنا من السيارة الى بناية ضخمة .. دلفنا من بابها .. مجرد أن تمتمت ميسورة بكلمة السر انفتح الباب على مصراعيه .. ميسورة تسألني :

ــ بأى جناح تبــدأ ؟

أجبتهــا :

ــ العلــم .

تحركنا .. ميســـورة تسألني ونحن ندخل لقاعة هائلة .. ارشـــيفا هائلا تنتشر فيه شاشـات الكومبيوتر . ميسورة تهمس لى وهى تضغط على أحد الازرار :

ــ هيا اطرح ما تشاء من اسئلة .

قلت بلا اكتراث :

ــ نيل أرمسترونج ؟

ذهلت والأجابة تضيء فوق شاشة الكمبيوتر « عام ١٩٦٩ أحد رجلين مشيا فوق سطح القمر .

سألت من جديد :

ــ نيكولاس ؟

ــ الأجابة تضيء حروفهـــا فوق شاشـــــة الكمبيوتر .. نيكولاس كوبرنيكس .. أول من نادى بان الشمس مركز الكون .

ــ اورانوس ؟

ــ كوكب يبعــد عن الشـــمس ٢٨٧٠ مليون كيلومتر طول قطــره ٤٧١٠٠ كيلومتر .

سألته من جديد :

ــ هل صعد اليه رواد فضاء ؟

اجـــاب :

ــ اربعة بدات رحلتهم فى ينـاير ١٩٩٠ .

قلت بلا تفكير وبتلقائية غريبة :

ــ ليسوا اربعة بل ثلاثة .

الكمبيوتر تضىء كلماته :

ــ حقا . . ثلاثة . . لكن كيف استطعت تحديد هذا العدد بهذه الدقة ؟

ســـألته من جديد :

ــ متى وصـــلوا ؟

ــ لا اجابة .

ــ ما مصـــيرهم ؟

ــ لا اجابة .

بدات اوجه له كل ما تخايل على ذاكرتى من اسئلة والاجابات تصلنى دقيقة . . حاسمة . . الى ان سألته :

ــ اينشـــتين ؟

دهشت وأنا ارى امامى فوق الشاشة فراغ .

ســـألت من جديد :

ــ كيف تجهلون انشتين وهو مكتشف نظرية النسبية ؟

ســـألت من جديد :

ــ التفجير الذرى الانشطارى .

ــ لا اجابة .

سألت ميســـورة أجابتنى :

ــ كل هذه معلومات تعمدنا اسقاطها من ارشيف العلم .

ــ لمـــاذا ؟

سألتنى هى الأخرى :

ــ كيف لك بكل هذه المعرفة ؟

اجبتهـــا بصـــدق :

ـ لا ادرى !

تمتمت ونحن نتوقف داخل جناح التاريخ :

ـ انك تخفى سرا .

عاودت الاسـئلة وأنا اتف مبهـورا أمام ما يحتـويه الجنـاح من معلومات .. واجهزة .. وامكانيات .. بدأت بسؤالى :

ـ التاريخ ؟

اجابنى :

ـ كمادة أم علم ؟

ـ كمـادة ؟

ـ وقائع حدثت ودونتها الاجيال .

ـ الملائكـة ؟

ـ خيـال بشـر .

ـ الشياطين والجن ؟

ـ خرافات .

ـ الجنة والنار ؟

ـ لا دليل عليها .

ـ البعث لحياة أخرى ؟

ـ تنبـؤ .

ـ الكتب السماوية ؟

ـ الهـام .

ـ الحرب العالمية الثالثة ؟

لم اكن أقصد من طرح هذا السؤال سوى المزاح .. الا اننى فوجئت بشاشة الكمبيوتر وقد نقش عليها :

ـ ما بين سنة ٢٥٠٠ حتى ٢٥٠٥ !!

للحظات تسمرت فى مكانى .. كنت أشبه بقطعة جماد .. صخر .. قذف بها من قمة جبل الى السطح فتحولت الى شظايا صـغيرة .. للحظات

احسست فيها بالعجز .. بالضـــعف .. بالهوان وانا أعجــز عن فهم كل ما يدور حولى هل حقيقة ما قرأته على شاشة الكمبيوتر .. هل حدثت هذه الحرب ؟ وكيف انتهت ؟ خرجت من شردتى وميسورة تســـحبنى من يدى الى الخارج .. الى السيارة .. لحظات توقفت بعدها الســيارة غادرناها الى مكان فسيح .. امام بناية ضــخمة .. تحيطها الاشــجار وتنمو فى ثنايا ساحتها أزهار .. ورياحين .. وياسمين .. فى تناسق غريب .. وفى رسم هندسى بديع .. دلفنا الى الداخل ميسورة تتمتم :

ــ احدى المصــحات .

ــ احدى المصــحات ؟!

استطردت ميسورة بعدها :

ــ سنبدأ بزيارة الحالات الصعبة ثم نتبعها بالحالات البسيطة .

سرنا فى سرداب طويل .. انتهينا الى حجرة .. انفتح بابها على شاب بشـــوش يبتســـم لنا وامامه كمبيوتر يحــرك مفاتيحه يلعب علية مباراة كرة قدم ..

سألت ميســـورة :

ــ ما جريمته ؟

ــ تقصد ما مرضـــه .. لقد تأخر عن عمله دقيقة .

سألت فى دهشـــة :

ــ من أجل دقيقة واحدة تودعوه مصح ؟!

ــ الثانية لها حساب عندنا .. لقد ترتب على تأخيره تشابك الدوائر الكهربائية وانصهار احد الصهاريج التى تغذى المدينة بالماء .

ــ وكيف يعالج ؟

ــ أولا نتقصى الاسباب التى دفعته للتأخير .. ثم نوصى له بالدواء المناسب .

ــ وهل وصلتم الى اسباب المرض ؟

ــ ارهاق عصبى .

ـ والدواء !

ـ جبـال الباهاما .

ـ عقاب هـذا أم اثابه ؟!

ابتسمت عادت وأكدت على قولها :

ـ كم أنا معجبة باسلوبك الفريد فى الحديث .

قالت ذلك ثم استطردت قائلة :

ـ هناك فوق هذه الجبال فندق عشرة نجوم يقضى فيه المريض فترة نقاهتـه .

واجهتنا حجرة أخرى .. اسـتقبلتنا فتاة جميلة .. ما رايت أجمـل منها قدا .. ولا أهيف منها جسدا .. ميسورة تسألها :

ـ كيف حال مريضتنا اليوم ؟

لم تجب .. ابتعدنا عنها وميسورة تجيب عن تساؤلى :

ـ لأنها صرخت فى وجه حبيبها بعد أن اشتهته ورفضها .

سألت فى دهشـة :

ـ وهذه ايضا جريمة .. اقصد مرض ؟

ـ نعم فالصراخ واحد من الامراض البدائية .

قالت ذلك .. اخذتنى من يدى .. استطردت قائلة :

ـ هلم معى .

سرت خلفها الى احدى الحجرات .. رايت جثة رجل ضخم تنام على سرير .. غطيطه عال .. سالت مرافقتى :

ـ ما جريمة هذا السجين ؟

ـ بصق فى الطريق .

ضحكت .. مال جذعى الى الوارء .. قلت معقبا :

انهم يبصقون على الناس .. ويضربوهم بالبرطوشة .

ابتسمت ميسـورة :

ـ اعجابى يتزايد بك .. هيا الى الحالات البسيطة .

جناح دخلنا اليه .. رجـل وامرأتان .. جلسـنا قدموا الينا مشروبا ساخنا .. سألت مرافقتى :

ـ ما بالهم ؟

ـ هذه المرأة الجميلة تشكو من سـوء معاملة زوجها وذلك الرجل زوجهـا .. وتلك الفتاة طبيب تحاول رأب الصدع بينهما ..

اسرعنا الى الخارج .. الى حجرة اخرى .. شـاب نحيل يجلس وفى يده كمان يلعب عليه لحنا شـجيا .. بقينا دقائق نستمع وفور أن انتهى صفقنا له .. ابتسم .. تمتم فى حزن :

ـ اشـكركم .

قلـتُ :

ـ لحن جميل ولكنه حزين .

ـ هيـا .

اخذتنى مرافقتى من يدى وهى تبتعد .. سألتها :

ـ وما جريمتـه ؟

ـ نافق رئيسه .

خذينى الى الخارج .. قبل أن يغمى على .

وفى المساء كنت فى احضان ميسـورة ارتشف اللذة .. نصـف ساعة واذا بها تنتفض فى حزن وأسى .. سألتها :

ـ ماذا دهاك ؟

ـ لقد انتهى الوقت المحدد .

ـ لكننى لم انتهى بعد معك .

ـ سنزودك بفتاة ميكا آلية فافعل معها ما يحلو لك .

ارتدت ملابسها .. تركت الحجرة على عجل .. فى نفس اللحظة التى شرفت فيها الفتاة الآلية .. رفعت طَرف فستانها .. قالت :

ـ شبيك لبيك انا فتاتك بين ايديك .. كيف تريدنى ؟!

ضحكت .. اول مرة اضـــحك من كل قلبى .. تمنيت فى قرارة نفسى ان ابقى .. وصوتى يرن فى ارجاء الحجرة :

ـــ لا اريدك .. ولكن كل ما اريده فنجان شاى يافتاة الجيشا ياحلوة

اختفت من الحجرة وصوتها يسبقها :

ـــ اشـــكرك .

- ٢٧ -

فى قاعة المحكمة من جديد .. القاضى والمدعى والكمبيوتر والناس .. تقاطر الناس فى ذلك اليوم تقاطر الذباب على نسـســـل امتـــلأت القاعة عن آخرها والمدعى يسالنى .. لا ادرى لقد تغير أسلوب استجوابه .. بعد أن انتحى به منحى الاتهام :

ســـالنى :

ـــ من أين اتيت ؟

ـــ من الجنـــة .

ـــ واين هـــى ؟

ـــ فوق هذه المدينة وعلى بعد أميال قليلة .

ـــ فوق هـــذه المدينـــة وعلى مدى آلاف الأميال لا يعيش احـــد فمن أين أتيت ؟

ـــ سبق أن اجبتك .

ـــ تصر على اقوالك .

ـــ لأنها الحقيقة .

ـــ وكيف وصـــلت الى هذه المعرفة العلمية .

أجبتـــه :

ـــ لا ادرى !

ـ. هل اتيت من كوكب آخر ؟

ــ لا .

ــ اذن فكيف عرفت كوكب اورانوس ؟

ــ لا ادرى !

وكيف استطعت تحديد عدد رواد ذلك الكوكب ؟

ــ ايضـــا لا ادرى .

ــ لقد غذينا الكمبيوتر بمعلومات خاطئـــة عن عدد زواد ذلك الكوكب حتى نعرف هويتك وكان تصـــحيحك للعد ســـليما .. فكيف وصـــلت الى هذه المعرفة .

فى تلك اللحظة دهمنى خاطر .. حقا كيف تسنى لى تصويب الخطا .. كيف عرفت أنهم ثلاثة رواد .. وليسوا اربعة .. والكوة من جديد تنفتح فى جدار ذاكرتى .. نعم ثلاثة حطوا على كوكب اورانوس .. انا واحد منهم .. لكن كيف والوصول الية يستغرق عشرات السنين .

المـــدعى يردد ســـؤاله من جديد .. دون أن يعثر على اجابة .. عاد يسألنى من جديد :

ــ هل كنت أحد الرواد الذين حطوا عليه .

همهمات غريبة .. الرؤوس تتقارب ثم تتباعد .. والكمبيوتر يضىء بعبارة « احتمال قوى » .

ــ لكن كيف استطعت الحياة هذه الحقبة الطويلة دون أن تموت ؟!

أجبتـــه :

ــ لا ادرى !!

الكمبيوتر يرد على السؤال :

ــ قد يكون لأسباب خارجة عن ارادته او لأســـباب علمية .. ولكن لا توجد اجابة حاسمة .

فى تلك اللحظة فجر المدعى اتهامه :

ــ هل أنت جاسوس ؟

ضحكت .. شر البلية ما يضحك اجبته :

ــ انت تخــرف .

حل الصمت والمدعى يضغط على زر .. أمامنا شاشــة صــغيرة .. بعدها .. كان صدى صــوتى يتردد فى ارجاء قاعة المحكمة وصــورتى أنا وميسورة عاريان على الشاشة .. صرخت فى حدة :

ــ اوقفوا هذه الخسة والدناءة .

صوت رئيس المحكمة يعلن فى حسم :

ــ على المتهم أن يلزم الصمت ..

الصورة على الشاشة الصغيرة .. ميسورة تتقلب فى أحضــانى .. تبتعد والرعب يسيطر عليها وهى تتملى جسدى تهمس :

ــ انت لست فى حاجة الى فتاة بل الى بقرة !!

ــ لا تخشى منى فانا قوى كالثور ناعم كاللحن .

الصمت يطبق على القاعه .. ذابت حتى الهمســات وانا اطبق عليها بجسدى وصوتها وقد دغدغته الرغبة :

ــ ليس هكــذا .

ــ ذوبى فى احضانى حتى ينقشع عنى ضباب الماضى .

ــ اريدك كما انت بحاضرك وماضيك .

ــ أنا رجل بلا ماضى .

ــ ايا كان فأنت رجل لحظتى .

الجســدان يتلامسان .. يتلاصــقان .. يتداخــلان .. وصــوتها ندى رطب :

ــ انت تؤلمنى هكذا .

ــ الم اللــذة .

وتتوه معى .. واتوه معها .. وهى تغمغم فى غنج :

ــ كم ارغبك رغم أنك تمزق احشائى .

لحظات وصوتها يصلنى فى حيره :

ــ من انت ؟

اجبتهــا ضاحكا :

ـ أنا الحاضر اعانق المستقبل .. استروح عطره ونسماته .. ولذعة لذته .. كم أريد أن التهم كل شطيرتك !!

ابتعدت عنى متألمة وهى تتمتم :

ـ لقد اصبتنى بنزف .

تعالت الضحكات والتعليقات .. والكمبيوتر يعلق على شاشته الزجاجية :

ـ اتهام الجاسوسية يحتاج الى اسانيد وادلة جديدة ؟!

صرخت محتجا :

ـ عمل حقير .. حقير .. فليست هذه هي الحضارة .. بل التخلف .. الردة .

رئيس المحكمة يسألنى :

ـ ما أوجه دفاعك ؟

سألته ؟

ـ فى مواجهة أى تهمة ؟

ـ الجاسوسية !

ـ اتهام بلا اسانيد .

ـ ودخول المملكة عنوة ؟!

ـ أنا لم ادخل فقد نقلنى جنودى اليكم بعد ان أصبت بالأغماء .

ـ تقصد عمال الحفريات .

ـ لم يكونوا سوى اداة فى يد جنودى .

تعالت الضحكات من جديد والمطرقة فى يد القاضى تدق بعنف وهو يعلن :

ـ الحكم بعد المداولة .

سبع ساعات وهيئة المحكمة داخل الحجرة المغلقة .. بعدها خرج القاضى ليصدر القرار :

ـ يتأجل اصدار الحكم مدة ثلاث أيام .. يزور المتهم خلالها أرشيفا للتحضر والحضارة .. يتعرف على أسبابه .. فقد يساعده هذا على التعرف على الفصيلة التى ينتمى اليها .

* * *

عشت فى ذهول .. وميسورة تطوف بى ارجاء الارشيف ..

وسؤالى لها :

ــ أو ليس هذا ما مررنا به .

اجابتنى مبتسمة :

ــ هذا ارشيف التحضر .

ــ وما الفرق بين ارشيف التحضر والحضارة ؟

ــ ارشيف الحضارة تاريخ .. أما التحضر .. فعلم .. اسباب واسانيد وادلة .

امامى كل ما يشغل الانسان .. تطوره من الاميبا الى القردة الى الانسان بالصورة .. بالكلمة .. بالحفريات .. اسانيد وادلة ومقارنات واستنتاجات ارشيف هائل .. به من ثمار المعرفة الكثير .. وميسورة تشرح لى الغامض من الأسباب .. أمامى التحضر أنهل من مائة العذب .. ادب وفن وعلم واختراعات وفلسفة ومنطق .. الاسئلة تتزاحم .. تتراص وميسورة تجيب على كل خاطره .. شارده فى ذهنى .. سالتها فى نهاية جولتنا :

ــ هذه حضارة ثلاثة آلاف عام .

ــ نعـــم .

ــ وكيف وصلتم الى هذه الحضارة .. اقصد نقطة البداية .

ــ سؤال يدل على ذكاء .. أعنى ذكاء القردة .. ويدل على خواء أقصد خواء العقل البشرى . .

ــ للحضارة تعتمد على ثلاث الانسان والأرض والعمل .. اما التحضر فيعتمد على فكره .. على دعوة .

ــ وأنتم كيف وصلتم .

ــ بدعوة التنوير .

ــ من صاحبها .

ــ نجهل صاحبها .. فقد اختلفت الروايات بشأنه .. فمن قائل انه أتى من السماء ثم اختفى .. ومن قائل انه دفن فى مكان مجهول ومع ذلك

لقد بقى فكره على مدار السنين محفوظا لا يتغير ولا يتبدل .. تلقفه تلاميذه لينتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم .

مرت فترة صمت قصيرة قبل ان تستطرد قائلة :

ـ هل تريد أن تسمع المزيد .

ضغطت على زر .. اضاءت الحجرة كلها بالأنوار ثم عادت وانطفأت .. وهى تهمس لى :

ـ انظر الى الشاشة .. وسترى مفكرنا بالصوت والصورة .

سألتها مندهشا :

ـ لقد قلت منذ لحظات أنكم تجهلونه .

قالت فى سخرية :

ـ أنه تسجيل للأحداث يا اله القردة اسمع ماذا يقول .

فور أن القت ميسورة بتلك الكلمات بدأت الصور تتتابع فى هوادة ورفق .. وأنا إسمع واتأمل .. وارى .

* * *

- ٢٨ -

افقت من غيبوبتى لأجد نفسى فى العراء .. الشمس تصهرنى .. الرمال تحرقنى .. فى مكان لم اطأه من قبل . ساورتنى الشكوك .. اين أنا .. وماذا حدث بدأت أستعيد الأحداث الفائتة .. آخر ما اتذكره أننى مثلت أمام المحكمة .. واصدر القاضى حكما بابعادى عن المدينة مبعوثا الى قومى انقل اليهم ما بشوه اياى من علم ومعرفة .. لكن كيف اتيت هنا .. بدأت أستعيد الأحداث منذ اللحظة التى دخلت فيها الكهف .. اين ذلك الكهف .. بدأت ادور حول الجبل .. لاشىء .. لا أحد .. تحسست لحيتى .. ملساء ناعمة .. الشكوك من جديد تزاحم عقلى .. والشريط يمر بطيئا .. هل كنت احلم .. اهذى .. كيف !!

الشكوك تهز شجرة يقينى من جذورها . وأنا احاول ربط الأحداث هل ما مر بى كان مجرد حلم .. وميسورة .. والمدينة الفاضلة بشوارعها وانفاقها واناسها .. لا .. لا .. لم يكن حلم .

بدأت استجمع ارادتى .. استنهض نفسى من خلال عشرات الأسئلة التى تناوبت على وانا إرى على ذراعى آثار حقن .. ومع امتعتى كتاب .. تصفحته .. أنه كتاب «التنوير» الذى أهدتنى اياه ميسورة .. حملت أمتعتى لأعود الى ديارى وعشيرتى .. لأجد فى انتظارى نمرود وعصابته يتبضون على يضعون فى يدى الأصفاد .. وفى رقبتى مقود يسحبونى الى سجن الماضى .. انتظارا للمحاكمة .

***

لم يكن الطريق الموصل الى المحكمة طويلا .. باب واحد انفتح على دهليز طويل الى قاعة المعبد الرئيسية حيث تعقد جلسات المحاكمة .. القاعة معدة .. مكتظة بالبشر .. فى الخارج وقف الآلاف ينتظرون

الحكم .. حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف أعضاء المحكمة .. وممثل الادعاء .. دوى النفير يعلن قدوم هيئة المحكمة .. ابتسمت .. بسطاوى فى المقدمة وخلفه سليم والدهل وسليط ودحروج .. وفى الطرف الآخر نمرود ممثل الادعاء . يتجه نمرود نحوى متباهيا .. طاووس عجوز أجرب .. ينذرنى بقولته :

ــ سأعصرك .

لم يكن أمامى سوى أن ابصق عليه .. وأنا اتمتم :

ــ سنرى من سيفعل ذلك بالآخر .

بسطاوى ينظر الى شخرا يتمتم فى وقار :

ــ فكوا اغلاله .

ثم يستطرد بصوت جمهورى :

ــ باسم الله .. مولانا .. ورب نعمتنا .. وباسم الحق والعدل تبدا المحاكمة .. المتهم حاضر .

أجبته :

ــ نعم .

قال من جديد :

ــ الادعاء يتلو التهمة .

نمرود فى غرور :

ــ انتحال صفة الاله والتجديف .

سألنى رئيس المحكمة :

ــ مذنب أم برىء ؟

أجبت :

ــ مذنب .

اسقط فى يد الجميع .. حجر ثقيل سقط على رءوسهم افقدهم التوازن الصمت المطبق معبق بالقلق والحذر .. بسطاوى يسألنى من جديد :

ــ دون أن تبدى دفاعا .

ــ لماذا والحكم قد صدر باجماع الآراء قبل أن تبدأ المحاكمة .

نمــرود ينزحلق من على المقعــد واقفا على قدميــه يروح ويجيء ثم يشير الى وهو يحادث هيئة المحكمة :

ــ سيدى الرئيس .. انها مناورة خبيثــة من المتهم .. حتى يؤلب علينا الناس .. وايضا لأنه لا يملك دليلا واحدا يدحض به الاتهام .. لذلك فانا مصر على استجوابه حتى يثبت أمام الجميع صدق الاتهام الموجه اليه .

بسطاوى يســأل :

ــ ما رأى المتهم ؟

ــ أريد نقاشا الغلبة فيه للعقل لا استجوابا .

عــوى نمرود :

ــ يا سيادة الرئيس انه شرك جديد يريد المتهم أن يوقعنا فيه .

قلــت :

ــ لماذا تخاف ايها القرد وقد اعددتم مسودة حكم الاعدام .

قال بسطاوى مهددا :

ــ نحذر المتهم من اهانة الادعاء مرة ثانية .

أعقب ذلك فترة صمت .. اقتربت فيها رؤوس هيئــة المحكمة ليعلن بسطاوى بعدها :

ــ المحكمة ترى أجابة المتهم لطلبه بشرط أن لا يخرج بمناقشــته عن موضوع التهم الموجهة اليه .

سأل نمرود فى صفاقة :

ــ حدثنا عن الاله الذى هو أنت .

قلت معقبا والابتسامة لا تفارق شفتى :

ــ أنتم الذين صنعتم منى الها .

فى تلك اللحظة هاج نمرود .. صرخ :

ــ سيدى الرئيس يجب منع المتهم من الابتسام وهو يدلى بأقواله .

قال بسطاوى فى ضيق :

ـ على المتهم الامتنـاع عن اتيان اى افعال تؤثر على ضـمير هيئة المحكمة او الأدعاء سواء كان هذا بالابتسام او الايماء .

سكت بسطاوى يلتقط أنفاسه ثم استطرد قائلا :

ـ الآن تكلم .. ولكن أوجز فخير الكلام ماقل ودل .

قلـت :

ـ تريدون حديثا عن الله .

رد بسطاوى :

ـ نعـم .

ـ فلنبدأ اذن بماهيته .

ـ نحن منصـتون .

ـ هذا الاله الذى تتحدثون عنه تنكره الأغلبيـة بينما الأقلية مازالت تدرس وتتامل لذلك فانا اريد منكم الصمت والأصغاء .

قاطعنى نمرود بصوته المقزز :

ـ لتفاهاتك .. الاصغاء لتجديفك .

اسكته بسطاوى باشارة من يده وبكلماته :

ـ لك هذا الحق ايها المتهم .

ـ فلنبدأ بلفظ الله .. الذى اختلفت فيه لغات العالم مما جعل البعض يردد انه لو كان الله موجودا لأطلق على نفسه لقبا واحدا تشـترك فى نطقه كل لغات العالم بلهجاتها المختلفـة ولكن لفظ الله يختلف من لغة الى أخـرى ويدللون بهذا على ان الله كجوهر ايضا صيغة بشرية من اختراع الانسان .. اللفظ والجوهر معا ..

قال نمرود فى زهو المنتصر :

ـ البـداية حرجة .

ـ وحتى تكون لغتى مفهومه لديك ولبـسائر البشر الأغبياء امثالك فليس امامى الا ان أكون مترجما للقانون الالهى الى اللغـة البشرية العادية لماذا ؟ لأن الانسـان لا يسـتطيع ان يفهم قانون الله الا من خـلال انسان

آخر .. لذلك كان الوسيط فى صورة انســـان .. مخترع .. فنان .. اديب موسيقار .. مصـــلح .. مبدع وليس مخلوقا من نوع غير بشرى .. ذلك حتى يتمكن البشر من فهم قوانين الاله الأعظم .

قال نمـــرود :

ــ لقد افترضت هنا وجود اله .. وقانون يضعه هذا الاله .. وبهذا نكون قد اعطينا الحكم قبل الحيثيات .

ــ كل ما ارجوه أن لا تتعجـــل وتصـــمت حتى لا تضيع منى الكلمات بثرثرتك الفارغة .

قال بسطاوى بحسم موجها حديثه الى :

ــ لك هذا الحق .

استطردت مستكملا :

ــ قبل أن نخوض فى تعريف محدد لله .. ماهيته وجوهره .. نقول ان الأكوان منظورة او غير منظورة تحكمها أنماط معينة من القوانين التى تنظم سيرها ومسيرتها وحركتها ..من هذه القوانين الثابتة على مر الدهور والأزمان أن لكل شيء سببا .. ولو شـــبهنا الله بخلية ابدية لا تفنى وأن مخلوقاته ليست ســـوى انقسام لهـــذه الخلية الأبدية ولكن بعد اضـــافة مواد أخرى كيمائية (مواد بشرية) اكتسبت بها خواص جديدة ظاهرية بالاضـــافة الى خواص الخلية الأبدية .. اذا قلنا بذلك فنحن لم نبتعد عن جادة الصـــواب ولكننا فى نفس الوقت لم نقترب كثيرا من الحقيقة ..

ثم اذا اعتبرنا الانســـان قبل أن يتوحد بثوبه البشرى جزءا من نظرية الله الهندسية ثم البسنا هذا الجزيء الثـــوب البشرى بما فيه من غرائز .. فتتغير بالتالى خصائص تلك الخلية الأبدية لتصبح خلية بشرية تحمل صفات جديدة .. هذه الصفات الجديدة لا تمحى الخاصـــية الجوهرية الالهيـــة بل تمتـــزج بها .. اذا قلنا ذلك فقد قطعنا شـــوطا كبيرا نحو المعرفة الكليـــة لحقيقة الاله .

ســالنى بسطاوى بتؤده :

ــ حتى الآن لم تقل لنا ما هو الله ؟

ــ الله هو تلك الخلية الأبدية وكذلك مخلوقاتة من انســان وحيوان ونبات وجماد لا فرق فى ذلك بين الشمس والبقرة والقمر والشــجرة والنجم الثاقب والطفل الخائب .. كلها مخلوقات الله انقســمت من الخلية الابدية بعد ان ارتدت ثوبها المادى .. كلها حتى الجماد يحكمها العقل الواعى رغم أن ظاهرها الجمود .. وحتى نقترب أكثر من مضمون تعريف الله نسأل أولا ماهو الانسان ؟! هو ذلك المخلــوق المتطــور العاقل الذى دنس الأرض منذ ملايين السنين والذى هو جزء من هذا العقل الواعى حتى ولو اكتسب ظاهريا صفات لا يحملها الله وهى صفاته المادية التى ترتبط به وجــودا وعدما ويختلف بها عن الله .. فالله لا يجوع .. ولا يعطش .. ولا يأكل .. ولا يرتوى ولا يرغب امراة .. ولا يبول .

سأل نمرود وكأنه امسك الذئب من ذيله :

ــ اذا كان الله فى تلك المخلوقات فكيف يسن القانون الذى يعاقب به نفسه فى مخلوقاته ؟!

قلت فى برود :

ــ مثل هذا التساؤل ســطحى ويمكن الرد عليه بالرجوع الى القاعدة الفكرية البشرية واحد اعمدتها أن القاعدة الصــحيحة تســتمد وجودها من قاعدة أعم واشمل صحيحة أيضــا .. فرع من فروع قانون الاله .. فالأب ينجب الأولاد من صلبه ومع ذلك لا يتوانى عن عقابهم وبتطبيق تلك القاعدة البشرية على الله .. نجد أن عذاب الله لأبنائه من البشر ليس بمستبعد .. ولكن حتى مثل هذا الرد سطحى .. ذلك ان الحقيقة تكمن فى أعماق البحر فى سن العقاب كمبدأ .. هل هو من صــنع الله أم صــيغة بشرية تداولها البشر بعد أن قاموا على تأليفها .. وبالتالى فلا عقــاب فى الآخــرة .. ولا جهنم .. ولا نار .

قال نمرود فى غرور .

ــ اراك تقفز على حصان أشــهب فوق تلال الســحب لتنزلق الى الادانة .

ــ يا صديقى اللدود .. اذا اردت رؤية الله مجســما فتأمل الشمس

والنجوم والحيوان والانســـان والنبات .. اما القول بأن الله يجلس على عرش .. وأن له مكانا محـددا يجلس فيـه يمكن التحـدث معه بلســان طلق .. فهذه أوهام صنعت بمهارة وصدقتها عقول تعيش فى دروب الجهالة المفرطة .. ولكن اذا اردت معرفة الله فليس أمامك ســوى أن تعـرف كل القوانين التى تحكم الكون ولن يتسـنى لك ذلك الا اذا تحولت لكينونتك السابقة على ارتدائك للثوب البشرى .. وحتى فى هذه الحالة لن تستطيع نقل هذه المعرفة للبشر لأنك لن تكون سوى قانون :

— تقصـد نص قانون .

— اذا قلت لك قانون عاقل فستضرب رأسك فى أول جدار يقابلك .

— قانون وعاقل كيف ؟؟

— فى منتهى البساطة .. القانون يفهمه الانسان ويقوم على تفسيره وشرحه ... والنظرية الهندسية أيضا يستظهرها ويستنتج منها المنطوق . هنا عقل الانسان منفصل تماما عن النظرية الهندسـية أو نص القانون .. ولكن فى حالة القانون العاقل فالقانون يمتزج تماما بالعقل .. وحدة واحدة والنظرية الهندسية هى الانسان قبل ان يدخل اطار بشريته المادية .. هنا لا توجد تفرقة بين القانون ذاته وبين العقل فيعتبر قانون عاقل .

— لقد مسحت كل ما تلقنته البشرية اياه عن الروح التى تهفهف على الميت بعد وفاته .

— الروح ماهى الا كلمة تحمل معنيان العجز والتاريخ .

— تقصد التاريخ من خلال العجز عن تفسير كينونة الانسان .

— نجحت فى استنتاجك لذلك لن ابخل عليك بمعلومة أخرى .

— ان كلامك كله يدور حول ماهية الله .. ولكن اما كان من الاجدى ان نبحث عن وجود الله قبل ان نبحث عن ماهيتـه .. فهل حقا يوجد اله ينظم هذا الكون ... أم ان هـذا الكون ينظم نفســه ذاتيا دون ما حاجة لقوة منظمة .. متحكمة .

— أن السؤال المطروح خطير .. والاجابة عليه حرجة ذلك لأنه ليس فى جعبتنا أمام هذا التاريخ الطويل ادلة مادية ملموسة على وجود الاله ..

كل حصيلة الانسانية مناقشة تاريخية مثيرة بين الماديين والمؤمنين لم تنته الى نتائج حاسمة فكل له حججه القوية .. ونحن ننحي تلك المناقشات جانبا .. لنبدأ حوارا مع أنفسنا حول قضية وجود الله .. والتزامنا فى هذا الحوار الصعب يعتمد على الأخذ بأسباب العقل والمنطق .. بمعنى رفض ما يرفضه العقل .. وقبول ما يستسيغه العقل والمنطق الخلاب .

قاطعنى بسطاوى فى ضيق :

ــ نعود الى سؤالنا هل الله موجود أم غير موجود .

ــ قبل الاجابة على هذا السؤال أود أن اطرح عليك انا الآخر سؤالا آخر .. ماهو مآل الأسرة خلية المجتمع الأولى اذا لم ينتظمها قانون يلتزم افرادها به .

ــ وما صلة هذا بذاك .

ــ من فضلك اجبنى .. ماذا يحدث لو استباح كل فرد فى الأسرة لنفسه أن يفعل مايريد دون أن يحد رغبته قانون .. فيطىء الشاب أخته .. ويمتنع الأب عن الانفاق على أفراد الخلية .. وتهمل الأم صغارها ويعبث الاطفال بكل مايقع فى أيديهم .. يحطموه أو يقذفوا به .

ــ أنها الفوضى اذن .

ــ واذا انتقلنا من فوضى هذه الخلية المصغرة الى فوضى أوسع نطاقا .. فوضى المجتمع كله .. عندما يرفض الانسان العمل فى مصنعة او حقله أو مكتبه .. عندما تضاء اشارات المرور لا تجاهين متضادين فى وقت واحد عندما يزج بالبرىء فى السجن .. عندما يحكم القاضى حسب اهوائه ومزاجه الشخصى .. عندما يقتل القوى الضعيف دون حساب .. عندما تنفث الوساطة والمحسوبية سمومها السرطانية داخل خلايا المجتمع .. عندما تترك السيارات فى عرض الطريق .. ويتوقف المرور .. عندما ترمى القمامة على ارصفة الشوارع .

صرخ نمرود بدهشة :

ــ هل تسمعون حديث الملحد .. والغازه عن المرور والسيارات والقمامة .

ــ أن ما قلته ليس سوى مدخل لقضيتنا العويصة بعد أن انتهينا

الى انه فى غيبة القانون تحل الفوضى . فلابد لأى مجتمع كبر ام صـــغر ان ينظمـــه قوانين ويحكم تصرفات البشر الالتزام بهذه القـــوانين .. ومن هذا المنطلق نســـتطيع القول أنه اذا كان القانـــون والالتزام به ضرورة حتمية للاسرة كخلية من خلايا المجتمع ... وبالتالى ضرورة حتمية لجسد المجتمع الذى ينتظم هذه الخلايا .. فما بال هـــذا الكون الهائل الذى يمثل الانسان داخله أحد عناصره .. لقد ثبت علميا أن هذا الكون تنتظمه قوانين عـــدة تسير حركته يقوم العلماء باكتشافها على التوالى ... وما اســـتطاع العلم اكتشافه رغم ضخامته .. وتنوعه ليس سوى نقطة فى محيط .

ــ انى لم أفهم حتى الآن الصلة بين وجـــود الله وتلك القوانين التى تحكم الكـــون .

ــ رويـــدا .. رويـــدا .

صـــاح نمرود :

ــ سفسطه سيدى الرئيس .. سفسطه .

ــ عـــودة معى الى الأسرة .. الخليـــة الأولى .. اذا تمعنا نجد أنه يوجد داخل الاسرة ثلاث عناصر اساسية تمثل مثلث الحيـــاة .. قاعدة هذا المثلث الانسان وضلعاه القانون الأسرى ومنفذ القانون . فوجود القانون يستلزم وجود منفذ القانون وكذا من يطبق عليه هذا القانون .. واذا عبرنا خطوة أخرى تجاه تطبيقات تلك النظرية الى الكون نجد ان المثلث ينقصه ضلع وهو منفذ القانون على اعتبار ان الكون أحد أضـــلاع هذا المثلث والقانون هو الضـــلع الثانى فالقانـــون لا يختلف عليـــه أحد وهو الذى ينظم حـــركة الكائنـــات الذاتية وكذلك ينظم كيفية وجـــود ونشـــوء وبقاء تلك المخلوقات .. وكذا علاقتها بغيرها من الكائنات .. فالانسان والقمر والشـــمس والنجوم لها خصائصـــها الذاتية وقوانينها التى تحكم حركتها ووجودها .. وأيضـــا تحكمها قوانين تحدد الصلة بينها وبين غـــيرها من الكائنات .. لأن حتمية وجود مثل هذه القوانين يترتب عليها انتظام الكون فلا الشمس تقترب من الأرض فتصهرها ولا الكواكب تتناطح كالثيران فيفنى الكون .. ولا الأرض يتوقف دورانها فتضمر فيها الحياة فلو لم ينتظم الكـــون كل هذه القوانين

لحلت الفوضى ... هذه القوانين ليست وليدة الصــدفة .. لأن قانون تلده الصدفة يصبح هشا يمكن أن يتغير بعكســه تماما بين لحظة وأخرى .. وتصــبح الفوضى هى قانون الكون .. لذلك فان هذه القوانين التى تحكم الكون قوانين عاقلة ملتزمة .. وكذا الكائنات التى يطبق عليها هذا القانون حقيقة لا خـــلاف على وجودها .. فبدون الكائنات تنتفى الحكمة من وجود القانون ذاته .

ــ حتى الآن تلف وتدور كالنحلة دون أن تلــدغ .. فأين مكان الله فيما أثرته من قضايا .

ــ اثبات وجــود الله هنا لن يكون عن طريق القهــر الفكرى الذى لا يحتاج لاثباته الا لكلمات قليلة « الله موجــود ومن ينكر وجوده فهو ملحد مآله النار خالدا فيها » بل اثباتـه سيتم بالطريق العقلى .

ــ نحن فى شوق لمعرفة نتيجة هذا التجديف .

ــ اذا كنا قد انتهينا كنتيجة حتمية بوجــود قانون ينظم حركة الكون وعمله .. واذا كنا قد قلنا بحتمية وجود أجهزة لتنفيذ القانون .. كالعائل فى الأسرة .. والحاكم فى الدولة واذا قلنا بنظرية تطابق المثلثات نجــد أن اضلاع المثلث الوضعى تتمثل فى القاعــدة وهى المجتمع الذى يطبق عليــه القانون وســاقا المثلث وهما القانون والجهاز الممثل فى الحاكم .. وهذا هو المثلث الوضعى اما المثلث الالهى فنجد أنه مثلث ناقص ضلع ويتمثل هذا الضلع فى حاكم الكائنات .. اى الله الذى ينكــره البعض . ذلك أن ضـــلعا المثلث الآخران وهما القانون والكائنات لا يجحدهما أحد .... اذن فالخلاف حول الضلع الثالث هو الحاكم أى الاله .. وسبب هذا الخلاف ... أو الجحود أو الانكار هو الفصل بين القانون وبين الله .. وذلك أنه فى المثلث الوضـــعى القانون ليس للحاكم بل منفصـــل عنه تماما .. أما الله فى مثلث الكائنـــات فهو غير منفصل عن القانون .. فالقانون هو الله .. والله هو القانون . وهذا هو وجه الخـــلاف بين النظرية الهندســـية الوضـــعية والنظرية الهندســـية الالهية ... فى النظرية الوضـــعية ينفصـــل الحاكم عن القانون .. ويتغير الحاكم رغم استمرار القانون .. بعكس النظرية الهندسية الالهية .. القانون

هو الله وبالتالي لا يتغير الله بل هو موجـود وباق لأن هذه أحدى صـفات القانون . بمعنى آخر هما ضلعان في ضـلع واحد !! وبالتالي فانه اذا كان للحاكم في المثلث الوضعي يحتاج لجهاز مستقل لتنفيذ القانون .. كالجهاز التنفيذي والتشريعي فان الحاكم (الله) في المثلث الالهي لا يحتاج لهذا الجهاز المستقل لأنه مندمج فيه .. وبالتالي لا يمكن فصل الله عن قانون الكون بكل دقائقه والذي يحوى بداخله أجهزة تسييره فالانسان والحيوان والنبات وكافة الكائنات ينظمها قانون له بداخلها أعـوان (أجهـزة) تقـوم بتنفيذ هذا القانون .. هذا القانون ليس سـوى فرع من فروع القانون الاشمل والاعم وهو الله ..

بحيث ننتهي الى أن المخلوقات والكائنات سـواء التي نحركها أو التي لا نعرف عنها شـيئا محكومة في نشوئها وفي حركتها .. وفي فنائها بقوانين عدة هي في النهاية احـدى فروع القانون الأكبر وهو الله .. واذا كنا نريد معرفة كنه الله فعلينا أن نحيط بكل أفرع هذا القانـون الأكبر وان تتسـع مداركنا للمعرفة الكلية بهذه القوانين صـغيرها وكبيرها لأن هذه المعرفة هي الطريق الوحيـد لمعرفة ماهية الله .. هذه المعرفة معرفة علمية تقـوم على حقائق واستنتاجات .. وليست مجرد انشاد في كتب دينية .. هذه المعرفة تتطلب الالمام بكل اسرار القوانين التي تحكم الكون ..

سألني بسطاوي :

— وهل هذا ممكن .

أجبتـه :

— ولم لا .

— متـى ؟

— هذا هو جوهر المشكلة .. أن الفكر الانسـاني مازال متخلفا .. كما وان الوصول الى مثل هذا الهدف يستلزم تكثيف الجهود العلمية واحتضـان العلم للعقل .. وقد يستغرق ذلك آلاف السنين .. والانسان يمكنه اختصار هذه المسافة الزمنية الطويلة اذا ماركز عقله على اكتشاف القوانين التي تحكم

المخلــوقات وربط بينها وخرج بنتائج محددة .. فكل قانون يرتبط بقانون غيره .. بل واعتقد ان العقل البشرى اذا تعمق للعلم وكشف المعرفة واستوعب العلوم الانسانية يستطيع أن يصل الى ما يعتبر معجزة من الصعب تحقيقها وهى صناعة الانسـان .. فالانسان اختراع كالطائرة والتلفزيون .. بل يمكن تطوير هذا الاختراع بصورة أفضل .. لننقل صناعة الانسان من صورتهـا البدائية الى أخرى صاروخية .

قال نمرود فى غرور وثقة :

ــ سؤال اخير ياسيادة المتهم .. قلت انك وباقى المخلوقات تنتظمون فى قانون هو أحد فروع للقانون الاشمل الذى هو الله .

ــ صــدقت .

ــ اذن فانت لست سوى فرع من فروع هذا القانون .

ــ صــدقت .

صرخ من جديد :

ــ كما سمعتم أنه يدعى الالوهية .. أو كما قال بعضــهم ليس فى الجبة غير الله .

قال بســطاوى بتحدى .

ــ حتى الآن لم تجبنى على تساؤلى .. كيف الله ؟؟

ــ للأجابة على هذا الســؤال سـنتبع هنا قاعــدة اساسـية تحكم المجتمعـــات منذ وجــودها منطقيــة فى نشــوئها وفى اســتمراريتها على مر الاجيــال هــذه القاعــدة تســتلزم ان يكــون للحاكم أدواته فى تســيير دفــة البشر فى المجتمـــع وهى ما عبرنا عنهــا بالأجهـــزة التشريعية والتنفيذية .. وكذلك الكون لابد أن يكون هو الآخر له أدواته .. هذه الأدوات هى الاجهزة الذاتية التى تسير حركة الكون من شموس وأقمار وكائنات والعقل الانسانى ليس سوى واحد من تلك الاجهــزة باكتشافاته واختراعاته وحتى لا نضيع وسط هذا الزحام الهائل المتلاحق من الاســئلة والاجابات نعود الى السؤال ماهو الله خاصــة وقد جاءت الاديان خلوا من

اجابة مقنعة لهذا التساؤل .. وهذا ما حدا البعض أن يتســاءل فى خبث « اذا كانت الاديان من قبل الله والرســل قد تحدثــوا الى الله مباشرة أو بواسطة ملائكة فلماذا لم يسر لهم بكينونته .. لماذا لم تصل الينا صــورة هذا الاله الأعظم .. ولسنا هنا فى مجال الرد على هذه الاتهامات فانها تحتاج لشرحها مجلدات .. ولديكم والحمد لله شيوخ وكهان يغطون فى سبات الكتب القديمة ويرتمون فى احضــان الخرافات والخزعبلات .. ولكن ليس أيضــا مستحبا ان يتصــف الله بالأوصــاف البشرية .. فنطلق عليه أوصــاف الجبار .. والمتكبر .. وغيرها وهى أوصاف يمجها الانسان العادى ويرفض اتصافه بها فكيف بالله اذن ؟؟ الصــعوبة فى تحديد ماهية الله ناتجة اساســا من الفكر الذى يســيطر على العقل وهى تحجيم الله بنظرة بشرية لذلك فقد شبهتموه بالملك الذى لا ينلم ويجلس على العرش وحوله أعوانه المخلصين من الملائكة وغيرهم .. لذلك فعندما يوصف الله بأنه قانون الكون .. وان القانون هو الله يصــبح لزاما علينا هدم اسس هــذا الفكر ومنها تحجيم الله وكذا ما ارتبط به من أوصاف وبالتالى هجر ما ادمنتة الأديان من وصف الله بالملك القدوس الذى يجلس على العرش ومعــه أعوانه المخلصــين فى الســماء من الملائكة .. وعلى الأرض أعوانه من الأنبيــاء ينفذون قانونه الذى اوحى به اليهم.. علينا أن نهجر هذا الفكر ذلك أننا نجد فيه تعارضا بين المثلث الوضعى « الانســان والحاكم والقانــون » وبين المثلث الالهى « الكائنــات والملك والقانون » .. ففى هذا الفرض ينتفى التعارض بين المثلثين بعد أن أصبح الله مندمجــا فى (القانــون) والقانــون مندمجــا فى الله وبالتالى لم يعــد ثمة حاجة للاعــوان من الملائكة والرســل لأن قانون الله ينفــذ تلقائيــا ذلك لأن بداخلــه كــل مقــومات تطبيقــه .. اى أدوات التنفيــذ .. ويقتصر دور الانسانية على اكتشاف اسرارها .. ويترتب على هذه التفرقة انه اذا كان الله هو القانــون فهو قانون ابدى ازلى غير قابل للتغيير والذى يتغير عندما يكتشف العلماء نظرية ثم يتبين خطئها ليست جزئية فى هذا القانون الأبدى الأزلى بل هو تعبير عن عجز الانســان أو هى عثرات للعقل البشرى

فى طريقه للوصــــول الى الحقيقة .. فمتى وصــل العقل البشرى الى هذه الحقيقة فلا تبديل فيها ولا تغيير .. وهو مآ يعبر عنــه بالقانون الكامل أو القانون الالهى. .والله ليس هو أحد فروع هذا القانون . بل ان الله هوالقانون الكامل لهذا الكون الذى نعيش فيه أو نراه .. وحتى نصل لحقيقة هذا الاله علينا ان نلم بكل القوانين التى تحكم الكــون .. وبالتالى فاذا كنا بصــــدد قوانين تتعدل وتتغير فهى ليست قوانين آلهية وعلى هذا فاذا كنا قد ســـلمنا بوجود قوانين تحكم هذا الكون .. وبضرورة حتمية تلك القـــوانين لانتظام الحياة حتى لا تحل الفوضى .. وسلمنا بهذه الأمور تســليما لا يقبل الجدل او النقاش واذا كنا قد انتهينا الى أن هذه القوانين التى تحكم الكون ليست من صــــنع البشر .. فهى قوانين سابقة على وجـــوده لها قواعــد واسس ونظريات يقوم الانسان باكتشافها واستيعاب مضامينها ثم تطويرها ايضـــا من داخل شعاب هذا القانون .. هذا التطوير ليس ايضـــا قانون صـــنعه الانسان .. بل هو احدى وســـائله فى الوصـــول الى حقيقة هذا الكون أو القانون الشامل ... الله .. ولكن تجمد الفكر لحـــد معين يعنى فى النهاية تصور العقل البشرى عن اســـتيعاب الأسس العلمية والحقائق المنطقية التى تؤدى فى النهاية الى المعرفة الكاملـــة بهذا القانون الأعظم .. لذلك فالاعتقاد الذى يسرى فى عروق أحد الاديان عن كتابا ما او نظاما أو دعوة هو نهاية مطاف البشر وان لا قبله ولا بعده .. ليس سوى دعوة للتجمد .. والجهل. .والعودة الى احضان التخلف والنكوص عن السير فى ركب هؤلاء الذين يبحثون بالعلم عن وجود الله حتى ولو لم يكن ذلك مقصدهم .. وعلى هذا فان توقف العقل البشرى على لوح الأديان واعتبار هذا اللوح امل البشرية المســـتقبلية مع انه فى الحقيقة ليس سوى مرحلة من مراحل محاولات الفكر الجادة التى بذلت على مر العصور لاكتشاف نصـــوص هذا القانون .. والتى كانت فى ذلك الوقت احـــدى الضرورات الحتمية لانقاذ البشر مما هم فيه من معاناة وتخلف .. لم تعد مثل هذه الافكار الوسيلة المثالية والحل الاشمل والأمثل للوصول بها

الى معرفة ذات الله او الالمام بكل قوانينة .. بل أصـــبح العلم هو البحث الجديد للوصـــول الى تحديد ماهية هذا الاله بعد ان يتم الربط بين النظريات العلمية المختلفة والوصول بها الى الوحدة الواحدة التى تمثل وحدة القانون اى وحدة الله . ..

ان نهاية مطاف الأديان لو دققنا العقل فى مغزاها وضـــمونها نجد انها تعريف للانسان بمضمون الخطأ والصواب .. هذا المضمون الذى يمر بمرحلة احتضار بعد أن هجرت القوانين الوضـــعية والعرف السائد أغلب مافيه من أحكام .. وبعد أن طرحت ارضا كثيرا من المسلمات الدينية التى استحوذت على العقل فترة ليست بالقصيرة واستطاعت أن تدفن تحت أرضها فى عصور الظلام بسطوة وقوة الداعين لها نور العقل وضياء المنطق وومضـــة العلم .. لم يعد ملائما العودة الى هذا المضمون او الدعوة الى الارتماء فى أحضـانه .. مثل هذه الدعوة اذا لم يواكبها فكر مستنير .. وتطور فى المفهوم تصبح مثلها كمثل الرحالة الذى يحاول الوصول الى القطب الشـــمالى باحدى الدواب فى عصر الفضاء والمركبات .

قال نمرود فى زهـــو :

ـــ أنت اذن تنكر الأرواح .

ـــ هل تقصد بها بحر الاعاجيب .. البحر الذى لا تجد فية نقطة ماء واحـــدة .. والذى مازلنا ندرج على تســـميته بالروح .. أم تقصـــد بها « الارواح » (البمبونه) التىكانت تبعينا اياها (أم الرزق) وأنا تلميذ غر أمام المدرسة الابتدائيـــة .. ام تلك الارواح الشريرة التى تتقمص البعض فتحيل حياته جحيما .. حقا انا لا أدرى من أين أتت تلك المقولة الدارجة لكنها تعبير شائع ليس له أســـاس علمى .. ورد فى كتب الاديان وســـبقها الى الميدان بعض مخطوطات قديمة .. ثم تداولتها المفاهيم لتحاول الوصـــول بها الى تعريف جامع مانع .. ولكنها عجزت فبقيت تلك الكلمة الشـائعـــة على مدار القرون سبة للفكر .. حية رقطاء تبث سمومها فى العقـــل تعبر اولا عن عجز الانسان عن تفسير مكنون نفسه هل هو مجرد جسد ينطـــرح فى النهاية على

ارض او فى أعماق بحر أم ان بداخله قوة خفية جبارة دافعة غير منظورة وهو ما يطلق عليــه الروح .. وتعبر ثانيا عن العجــز البشرى فى فهم ماهية هذه الروح على فرض وجودها .. ويســـتدل بها ثالثا عن الادمان المســتميت لتحويل هذا المجهول المطلق الذى لا يعرفه احد .. الى وجود حقيقى دون ان تسنده حقيقة او نظرية علمية أو استنتاج عقلى .

سألنى بسطاوى خانقا :

ــ وما رأيــك ؟

ــ رأيى أن الانسان مازال وسيبقى لفترة بعيدة مخلوق مستغلق على الفهم .. قد تفهم ظواهره .. ولكن تبقى اسبابه سرا يستعصى على عصا موسى تحويله الى حقيقة مرآه ... والمدهش ان هذا المجهــول الذى عجزت الكتب السماوية عن الاتيان له بقبس من نور يضىء ظلمة معانيه .. هــذه الكتب تتحدث عن صعود هذا المجهول الغير معروف الى بارئة وتعذيبة بشتى انواع العذاب فى القبر .. كيف وهو مجهول غير معلوم .. غير معروف ... كيف يصعد الى السماء ما لا نعرفه .. وكيف يعذب ما لا نفهمه ؟؟

ــ اذا كنت ستـرفض الروح .. فماذا بقى من الانسان .. جســد ينطرح فى البيداء ..

ــ ليس أمامنا سوى مفهوم آخر يســـتحوذ على الفكر بعقلانيته .. فالانسان ليس سوى نظرية هندسية محفوظة فى عقل الله .. وبامتزاج هذه النظرية الهندســية بالنظرية المادية يتكون لدينا مخلوق يسمى بالانســـان تماما كالمخترع الذى صـــنع الانســـان الآلى .. نظــرية هندســية ومادة خلم .. النظرية الهندسية لا تختلف من انســان الى آخر .. ولكن الذى قد يختلف هو لدائن الصنع .. وبالقياس نجد ان الانســـان يتكون من نظــرية هندسية وكذا مادة .. المادة فى الانسان واحدة .. لا تختلف من شــخص لأخر .. لكن الذى يميز الانسان البشرى عن غــيره من المخلوقات ليســت المادة .. ولكن كيفية صنعها المادى وهو ما يطلق عليه بالنظرية الهندسية ..

وما تحمله من صفات وراثية .. وعندما يموت الانسان .. فالذى يموت فيه الخلايا .. اما نظريته الهندسية فتبقى خالدة .. تماما كما يحدث عندما يتحطم انسان آلى ويتحول الى قطع من الصلب . تندثر المادة أو تدخل من جديد فى صناعة أخرى كما يحدث الآن للانسان فى حالة التجديد الجزئى الذى يستعين فيها بعمليات الزرع لكن فى النهاية تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .

ـ هل تعنى بذلك ان الله هو تلك النظرية الهندسية .

ـ بل اعنى أن هذه النظرية الهندسية ليست سوى أحدى فروع القانون الألهى .. وحيث ان هذا القانون يتوحد مع الله .. أذن فالله هو القانون والقانون هو الله .

قال بسطاوى :

ـ كم نريد أن نسمع مزيدا عن هذا القانون والذى عنيت به الله .

ـ ليس القانون الذى اقصده نصا فى كتاب .. بل هو قاعدة تسير عليها حياة الكائنات وحركة الكون .. بدونها تحل الفوضى .. فاذا قلنا أن الجاذبية يحكمها قانون علمى فليس المقصود بهذا القانون النظرية التى وضعها نيوتن .. لأن النظرية لم يخترعها بل اكتشفها . بمعنى أن قانون الجاذبية كان سابقا على استظهار نيوتن لها .. كل ما فعله أنه استطاع بقدراته وملاحظته الدقيقة أن يكتشف وجوده .

سأل بسطاوى بذكاء :

ـ تقصد أن الاكتشاف مسبوق بالقانون .

ـ بل اكثر من هذا ان القانون لابد وان يكون سابقا على وجود الكون والكائنات .. لأن تلك الأكوان لم تنشأ من فراغ .. بل كان سبب نشوئها قانون سابق على وجودها .

فى تلك اللحظة علا صوت نمرود معقبا بسخرية :

ـ ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح يا ملهم .

أجبته بحـــدة :

ــ كلامك يعنى أن وجـــود الكائنات ســـابق على وجود القانون مثل هذا الفرض لا يتفق مع مسلمات المنطق فالقانون هو الذىيحكم الأشياء وينظم سيرتها .. لا الأشياء هى التى تنظم القانون .. فضلا عن ذلك فان مثل هذا الفرض يتعارض مع نظرية الســبب المنشىء .. فلكل شىء سببا .. فسبب نشاة الكون وجود قانون ينظم نشـــاته واســتمراره .. وزوال الشىء الذى أنشاه القانون لا يعنى البته زوال القانون الذى يحكمه .. فالقانون يبقى حتى مع انعدام الشىء أو موته .. كل مافى الأمر ان شروط تطبيق القانون على شىء بعينه لم تعد متوافرة لزوال هذا الشىء أو انعـــدامه .. وعلى هذا فالقانون لا يتعرض للموت أو الانقراض أو الزوال أى انه ابدى دائم .

عقب بسطاوى قائلا :

ــ تقصد الله بحديثك ؟

اســتطردت دون أن اعلق على حديث رئيس محكمة الجزارين :

ــ كذلك نجد ان هذا القانون هو الذى يحكم حركة الأشياء من نقطة البداية وأثناء دورتها حتى النهاية .. يسيطر عليها وهى تتحرك داخل نطاق تطبيقاته وفروعه المختلفـــة .. لكن هل تعنى هـــذه الســـيطرة الغاء ارادة الكائنات .. هل تعنى أنها ليست سوى قطع شـــطرنج يحركها القانون .. لا .. بل تعنى أن الكائنات تســـير داخـــل نطاق هذا القانون لا تتعـــداه ولا تنفصل عنه ولكنها وهى داخل هذا النطاق لها ارادتهـــا وحريتها الكاملة .. اى الاختيار .. فالظواهر الطبيعية من حرارة وبرد وامطار ورعد وحركة الكون من شموس ونجوم واقمار .. وحركة الانسان والحيوان والنبات .. كل هذه الظاهر الطبيعية يشملها القانون بفروعه المختلفة .. وتدور فى فلكه لا تســـتطيع أن تتعدى نطاقه الى الفوضى .. لأن الفوضى لا ترســـم لوحتها الشريرة الا فى غياب القانـــون لكن هـــل يعنى وجود قانون يحكم حـــركة الأشياء ونشـــوئها ونهايتها التزامه بها .. هل يعنى هـــذا التزام القانون بنفســـه ..

صـــاح نمرود زاعقا :

ــ تخريف وتجديف سيادة الرئيس .. يريد أن يقــول ان الله يلتزم مثل التزام البشر .

قلت والابتسامة لا تغادر شفتى :

ــ مهلا يا نمرود .. مهــلا .. والله لو كنت كلبا لبترت ذيلك حتى لا تبصبص به لصاحبك .. ولو كنت قطا لقطعت لسانك حتى لا تموء ..

قاطعنى نمرود فى حده :

ــ هل تسمع ياسيادة الرئيس ؟!

قال بســــطاوى :

ــ المحكمة ترفض البذاءه .. وتطلب من المتهم الالتزام بالموضوعية .

ابتسمت فى اللحظة التى صرخ فيها نمرود من جديد :

ــ أنه يبتسم .. أمنعوه .

قال بســـطاوى :

ــ وبعدهالك يانيابة .. خلى عندك قليلا من النظــر .. أكمل يا متهم

اكملت قائلا :

ــ هل يعنى هذا تطبيق قاعدة الالزام والالتزام على المخلوقات والاله بمساواة مطلقة .. فلا يجوز أن يخرق القانون نفسه كما لا يصح أن تخرج الكائنــات عن نطــاق القانون .. بمعنى أن الالزام يقابله التزام .. فالله عندما يلزم البشر بقانون يلتزم هو الآخر بهذا القانون .. ومن ثم فلا يجوز تعديله او تغييره . لأن تعديله يعنى الاخلال الجسيم بقاعدة الالزام التى الزم بها البشر .. فماذا هو خرق القانون .. فليس عليه أن يطالب البشر بالالتزام بالقانون .. أى الزامهم به .

سـال بسطاوى فى هدوء :

ــ اذا كان حديثك صحيحا فلماذا تخرج الكائنات على القانون الالهى

ــ الكائنات لا تستطيع أن تخرج عن القانون الذى وضع بحقبة ومهارة لأن هذا يعنى الفوضى .. والانهيار والزوال .

ــ واتيان الشر أليس خروجا على القانون .

ــ أن الخــير والشر اثنان من فروع القانون .. للانســـان الاختيار

بينهما .. فالانسان عندما يسرق يرتكب جريمـــة .. وعندما يغتصـــب فتاه يرتكب معصية ...كل هذه تفصيلات .. لكن هل يعنى اتيانها خرق القانون الالهى وانهياره .. لا .. لأن الشر والخير توأمان متصــارعان لذلك فمثل هذه الجرائم تندرج تحت نص القانون رغم أنها مرنوضة من المجتمعات .. وتعاقب عليها ..ومحظور اتيانها لأنها تسبب ضررا بالغير .. وبالمجتمع .. اذن فالقانون كامل .. والله لا يغير من كماله .. لأنه اذا فعل فسيتم تعديله لقانــون ناقص لأن القانـــون الكامــل لا يتكرر كماله مرتين أو ثــلاث فى موضـــوع واحد .

قال بســطاوى :

ـ اذا كنت تقصد بحديثك أن الله يلزم نفسه بنفسه فلماذا لا يلتزم الحكام بالقانون .

ـ صــديقى رئيس المحكمة اللدود .. أن الاجابة سهلة يســتطيع نمرود أن يجيب عليها .. فهلا وجهت اليه سؤالك .

تصدى نمرود للاجابة :

ـ اولا .. الاله يســتطيع أن يفعل ما يشــاء .. لا يلزمه قانـــون وضعه .. يغير فيه متى شاء وكيف ماشاء وبالتالى والحاكم يمثل الاله على الأرض له أيضا هذا الحق .

قلت فى استياء ظاهر :

ـ هل يصدق أحد هذه الخرافة .. أن الحاكم الذى لا يلتزم بالقانون يا سيد نمرود لا يفعل ذلك الا مع شــعب من الماعز أو الخراف .. شــعب لا يعرف حقــوق الحاكم وواجباته .. فاذا تجاوز وخــرج على القانون .. فرحوا به وهللوا .. بدلا من أن يمزقوه أربا .

فجاة دوت فى القاعة صرخة .. اتجهت بانظارى الى صاحبها .. لم يكن سوى مناع :

ـ والخوارق يا مولاى أو ليست خرقا للقانون الالهى .

بسطاوى يصرخ هو الآخر :

ـ اقعد .. اقعد .. انها محاكمة .. وليست ندوة .

أجبتــه فى هــدوء :

ــ يا صديقى قصير القامة ان الخوارق التى يكتشفها الانسان أو تلك التى اكتشفها ليست سوى أحد فروع القانون الكامل .. وتتم فى نطاق هذا القانون وما ندعيه نحن من خوارق كالمخترعات العلميــة .. أو النظــريات الهندسية أو الكيمائية ومعجزات البشر ليست سوى واحد من فروع هــذا القانــون العام الشــامل .. لذلك فلا تعتبر خوارق .. لأن الخوارق معناه خرق القانون .. والعلو عليه بمعجزة ليست فيه وهذا يتنافى أصلا مع وجود قانون كامل يشمل كل شىء حتى ما ندعيه من خوارق ..

مرت فترة صمت قصيرة .. طلب منى بسطاوى استكمال ما أنقطع .

أجبته وقد حل بى التعب والارهاق :

ــ فلنؤجل ذلك للغد يا سيد بسطاوى .

قال بســـطاوى :

ــ اذن فلنؤجل القضية للغد .

* * *

فى اليوم التالى انعقدت المحكمة .. الهيئة تجلس خلف المنصــة .. الناس يتابعون وقائع الجلســـة بشــغف واهتمام .. مناع يبتسم لى .. الوحيد الذى يستطيع الابتسام فى جنة الشقاء .. رئيس المحكمة يطلب منى وصل ما انقطع .. قلت فى هدوء مريب وانا اقلب صفحات الكتاب :

ــ موضوع الحديث اليوم مختلف يا سيد بسطاوى . بعد أن انتهينا من حديثنا عن الله .

ــ المهم أن لا نخرج بالحديث عن نطاق التهمة . هيا اقرأ تعاويذك !!

الاختيـــــار

ـ قيل أن العقل هو ما يميز الانســـان عن الحيوان .. لذلك وصـــف الانســـان بأنه حيوان عاقل .. هذا التمييز ثوب فضفاض يســـع كثير من المعانى .. فماذا يعنى العقـــل ؟ .. هـــل هو الفهم .. أم الادراك .. أم التمييز ام القدرة على التصرف .. أم هى تلك المعانى كلها وغيرها مجتمعة ؟!

قيل أيضا أن الانسان حيوان متكلم .. فهل النطق وحده يكفى للتمييز بين الانسان والحيوان مع قصـــور هذا المعنى عن اســـتيعاب كل أسباب الاختلاف الجوهرى بين الانسان والحيوان .. فضلا عن أن اللغة والتحدث بها ليس ســـوى نتاج تطـــور طبيعى قد نجد مثيلا له فى لغـــة التفاهم بين الحيـــوانات التى نكتشـــف بصيص نور من المعرفة عنها قد يوصـــلنا الى اسرارها ..

لذلك كان الاختيار بمعناه حرية اختيار البدائل هو المعنى الكلى الذى يندرج تحته كل أوجه الاختلاف بين الانسان والحيوان هو البوتقة التى تصب فيها كل العلوم الانسانية .. والاختراعات العلمية عصارة فكرها ..

فمن خلال هذا الاختيار وما يعنيه اختيار البدائل أورقت شجرة المعرفة أوراقها وبات الانسان يستظل بها قرونا طويلة .

وعودة الى التاريخ القديم .. الى الانسان البدائى والذى كان يختار فى أسلوب حياته اليومية بين بدائل كائنة وموجـــودة وبين انسان العصر الذى يختـــار بكامل ارادته بين بدائل كائنه أو بدائل من اختـــراعه هو .. بين هذا وذاك عصور أخرى هبت فيها عواصف الجهل .. تقتلع من أرض المعرفة شجرة الفكر وتقذف بها فى غياهب الظلام وعصور أخرى طرحت فيها بدائل الفكر علىساحة النقاشواستطاع العقل البشرىأن يغزو معاقل الفكرالأسود يحطمه وينحيه جانبا لينهل بعد ذلك من ينابيع العلم.. العلم هذا الامبراطور العظيم الذى اســـتطاع وحده ان يســـتحوذ على الساحة بكلل راســـه تاج

المرئية .. ويزين صدره نياشين النظريات الحديثة فى الطب والهندسة وعلم الفضاء ولكن منذ متى يبدأ هذا الاختيار ؟! .

الاختيار يبدأ منذ مولد الانســـان وينمو بنموه ويتدرج حسب مراحل حياته من طفولة .. لصبا .. لشباب .. لكهولة .. هذا الاختيار يدخل فى تكوينه عنصران الشخصية وما يؤثر فيها من صفات موروثة ومكتسبة .. والموقف وابعاده النفسية وردود أفعاله .

ونتيجة لهذا يختلف رد الفعل للحدث الواحد من شخص لآخر .. بحيث يمكن القول أن رد الفعل هو ناتج مزج الموقف بالشخصية واذا ما حولنا هذا الكلام الى أمثلة نجد ان رد فعل الزوج الذى يضبط زوجته عارية فى أحضان عشيقها يختلف من شخص لآخر حسب توليفة شخصيته .. فقد يتمثل رد الفعل فى القتل .. وقد يقتصر على الصراخ أو البكاء .. أو ابلاغ الشرطة .. رد الفعل فى هذا قد يختلف ايضا للشـــخص الواحد حسب ابعاد الموقف الذى يواجه نفس الشـــخص .. فرد فعل الزوج الذى يجد زوجته عارية تماما فى احضان عشيقها .. غير ذلك الذى يرى فيه نفس الزوج العشيق خارجا من حجرة نومه فقط !!

الاختيــــار .. بمعنـــاه الدقيـــق وهـو اختيــــار البـــدائل يعنى بالضرورة الحرية فى اختيارها أى أن الحرية احد مســتلزمات قيـــام مبــدأ الاختيار لكن هى تعنى تلك الحرية استعمالها بلا قيود أو ضوابط .. بمعنى آخر هل لكل انسان أن يختار ما يشاء وأن يفعل ما يريد ؟! .

فهم الاختيار بهذا المعنى الواسع يؤدى الى كارثة فى حالة ما اذا الحق فعل صاحب الاختيار ضررا بالغير .. لأن مثل هذا الاضرار الذى يفرض على الغير قسرا يعنى فى النهاية الحاق الأذى به دون أن يختاره .. وبالتالى فهو هدم للاختيار المكفول له !! فمثلا اذا ســـار شـــخص عاريا فى الشارع فهو يمارس حرية اختيـــاره .. ولكنه فى نفس الوقت يلحق ضررا بالغيـــر الذى يتاذى من هذا الفعل الفاضح ويرفضه وبالتالى يضع قيدا على اختياره يتمثل فى عنصر الاجبار الذى يفرض عليه برؤيته عاريا .

ولكن اذا كان ولابـــد أن يمارس حريتـــه فى التعـــرى فليكن ذلك فى مكان لا يلحق الضرر فيه بالغـــير .. على سرير رغبتـــه مـــع امـــراته او فى الحمـــام مع الماء الســـاخن أو البارد !! ومـــع ذلك فقـــد مر التاريخ بمراحل لم يكن الانسان ليتأذى من منظر العرى وكان الرجال والنساء سواء لا يسترهم حتى ورقة توت وهـــذا ما يدفعنا الى القاء الضـــوء على الموقف وابعاده النفسية .. فصاحب الاختبار عندما كان عاريا فى الحمام أو بجوار امرأته لم يلحق ضررا بأحد .. ومن ثم فينعقـــد له اختيار كامل فى العرى وارتداء امرأة لباس البحر (المايوه) فى أحد الشوارع يرفضه المجتمع .. بعكس الحال اذا كان هذا المايوه يحيط جسد امرأة فى أحد حمامات السباحة أو على احد الشـــواطىء .. فى الفرض الأول اختارت المرأة ارتداء المايوه فى الشارع فاحدث اختيارها هذا ضررا نتيجة تأذى جمهرة الناس من رؤية هذا المشهد .. وفى الفرض الثانى مارســـت المرأة اختيارها الكامل من خـــلال لائحة اجتماعية قبلها رواد هـــذا الحمام أو هذا الشـــاطىء .. هذه اللائحة تتيح لها ارتداء المايوه وتوجب على الآخرين عدم استهجان مثل هـــذا الأمر لأنهم بقبولهم اللائحة الاجتماعية يفترض رضـــائهم بكافة النتائج المترتبة على ممارســـة غيرهم أحـــد الحقوق التى كفلتهـــا تلك اللائحة ومنها ارتداء لباس البحر ..

وما يقال هنا ينطبق على مستعمرات العراة .. فليس من المقبول أن يتأذى أحد اعضـــاء هذا المنتدى الخاص من العرى ويرفع شـــعار التحجب للمرأة التى ترتاد هذا المنتدى . وينعكس الحال اذا حدث مثل هذا العرى فى شارع أو زقاق .. لذلك فلا غرابة ان توصف قبلة الحبيبين فى شارع من شوارع بعض البلدان أو فى أحد المركبات العامة قبلة زانية غير شريفة !! بل وتعـــد من الجرائم الوضـــعية التى يجرمهـــا القانون ويســـجن من أجلها مرتكبيها .. بينما تعد مثل هذه القبلة فى مجتمعات أخرى من الأمور المستباح اتيانها .. رغم أن الموقف واحد فى الحالين ويمثل قبلة عاشقين !! فلماذا أذن اختلف الأمر من تجريم لاباحة ؟! السبب فى ذلك يكمن فى الضرر .. فمجتمع ينظر الى مثل هذا الأمر نظرة تحريم وتجريم أخلاقية تسندها تقاليد وعرف

ـــــائد يرتب عليهــا ضرر اجتماعى بغض النظر عن صــحة هذه النظـرة التجريبية .. بينما مجتمع آخــر يجد فيه أحدروافد الاختيار يمتنع مـع حدوثها الضرر فاذا كنت لا تريد ان تقبل حبيبتك أو لا تسـتطيع فدع غيرك يفعل !! كما قلنا الاختيار يبدأ منذ مولد الانسـان .. أما قبل ذلك فالاختيار كان معقــودا لذكر وانثى فى مواقعة جنســية ناتجها هذا الجنين الذى يولد نتيجة هذه العلاقة حتى ولو لم يكن قصد الاثنان الحمل والولادة حتى ولو كان ما يحركهما رغبة أو نزوة طارئة أو حتى اغتصــاب مادام الحمـل احد النتائج المحتملة لتلك المباشرة الجنســية لكن بعد ان يتم التخصــيب ينعقد الاختيــار للأنثى على اعتبار أن الجنين أصــبح جزءا من جســدها الى أن تلده .. لكن بعد الانفصال الجسدى بين المولود ومشــيمة الأم يبدأ اختيار الطفل نتيجة استقلاله .. هذا الاستقلال الجزئى الذى تستعمره الأم بتلبية احتياجات المولود تبدأ دائرته فى الاتســاع رويدا .. رويدا وينمو تدريجيا حسب نمو الطفل .. وتزداد أوجه اختياره .. فيترك ثدى أمه الى لعبه .. ثم يهجرها الى أصدقائه حتى اذا ما بلغ مرحلة الشباب .. شدته المراهقة الى شـبـاكها فاذا ما تخلص منها بـدأت مرحلة النضـج وتحقيق الذات والاستقلال الكامل عن المستعمر الغاشم .. الأم والأب ...

وحتى يكتمل الاختيار لدى الانسان يجب توفر عنصران التمييز والحرية التمييز أى القــدرة على الاختيار فالمجنــون لا اختيار له .. والحرية أى الحرية فى استعمال هذا الاختيار بحيث يمكن القول ان الحرية أســلوب ممارســة .. وليســت هدف فى حد ذاتهــا .. انما الهــدف الحقيقى هو الاختيار .. كما وانها شرط لنشوء الاختيار وسبب لاســتمراره ففى غيبة الحرية لا يمكن للاختيار رؤية النور ولا البقاء حيا .. فالحــرية هى الهواء الذى يساعد الاختيار على الحياة .. بدونها يختفى .. لكن ممارسة الاختيار مشروطة أيضا حتى تحقق هدف الاختيار بعدم الحاق الضرر بالغير .. وقيد عدم الاضرار بالغير هذا شرط جوهرى حتى لا تتحول الحرية الى فوضى .. لكن التوسع فى هذا الشرط بوضع ضوابط كثيرة على الحرية بحجة الضرر .. يعنى فى النهاية الغاء الاختيار والحرية .. لذلك كان لابد من استعمال هــذا

القيد فى أضيق الحدود .. وحصره داخل دائرة الضرر الفعلى الحادث للغير وما يخرج عن نطاق تلك الدائرة فهو حق للانسان له أن يباشره بحرية كاملة ..

والديمقراطية بصورها المختلفة من حرية التعبير الى تكوين الأحزاب.. الى التظاهر ليست سوى صورة من صور ممارسة حرية الاختيار .. فى غيبتها يتوه المعنى السياسى للديمقراطية .. ويتوه الطريق الى هدف الديمقراطية وهو ادارة الانسان لشئونه وعلى هذا فحرية الاختيار لها معنيان انسانى فردى وسياسى .. الفردى يقصد به تحقيق الفرد لمطالبه دون الحاق الضرر بالغير .. والسياسى يعنى مشاركة فردية فى صياغة مجتمع يضم مجموعة افراد من خلال لائحة دستورية يشرعها .. لذلك فالنظام السياسى الذى تتقلص فيه قاعدة الاختيار أو تنعدم يطلق عليه نظام ديكتاتورى بعكس النظام الذى يتنوع فيه الاختيار .. وهذا هو المعيار الحقيقى للتفرقة بين الديمقراطية والديكتاتورية .. لهذا فرفض الديكتاتورية كنظام حكم فى اية صورة من صورها سببه أنها تمثل خرقا لقانون كامل وهو قانون الاختيار .. لأن الديكتاتورية تعنى القسر والارهاب ولوى ذراع الاختيار من اجل حكم الفرد ..

ضمنى الارهاق داخل عباءته السوداء .. الصور والاشكال تتأرجح أمام عينى .. أننى اتساقط .. تمالكت نفسى حاولت التماسك دون جدوى .. وجه بسطاوى وقد تحول لثلاث وجوه بستة اعين ضغطت على جبهتى براحة يدى .. ساقاى تتخاذلان أننى أهوى .. اتساقط كورقة خريف .. ورئيس المحكمة يعلن :

ـ ترفع الجلسة على أن تعقد غدا .

الساعى يزعق (محكمــــة)

الجميع يقف .. رئيس المحكمة « بســـطاوى » يتخايل وهو يدلف الى مكانه .. يجلس . حوله هيئة المحكمة الموقــــرة . وفى الركن القصى يجلس نمرود بعباءته الحمراء .. رئيس المحكمة يوجه حديثه الى .. يسـال :

ـــ المتهم حاضر ؟

رغم أنه فى كل مرة يرانى الا انها أصبحت عبارة مألوفة . هذه المرة لم اجبه .. استشاط غضبا صرخ من جديد :

ـــ اذا لم يجب المتهم سنوجه اليه تهمة اهانة المحكمة .

ابتسمت .. فى تلك اللحظة صرخ نمرود :

ـــ انه يبتسم سيدى الرئيس ..

لا ادرى لماذا تستفز ابتسامتى نمرود رغم أنها الصــــفة الوحيدة التى تميزنى من هؤلاء القردة .

رئيس المحكمة يصرخ غاضبا :

ـــ هل أنت حاضر يا متهم !!

قلت فى سـخرية :

ـــ نعم يا ســـيد بسطاوى .

ســـأل من جديد ؟

ـــ ماذا عندك من الطبخة ؟!

استفزنى بعبارة صرخت :

ـــ تطلق على الفكر طبخة يا جرسون الكلب .

حذرنى بقولتــــه :

ـــ تأدب يا متهم .. فأنت تخاطب من يمتلك حياتك .

هل اعددت نفسك للقراءة اليوم .

أومات .. استطرد قائلا :

ــ اذن فاتلو علينا ماجاء بكتابك الملعون ..

امسكت بالكتاب قلبت صفحاته .. صوتى يهدر كأنه الموج .. الطوفان .

ــ هل للانسان قدر .. صفحة او صفحات مدونة لا يحيد عنها ولا يبتعد عن مضمونها .. ويلتزم بنصوصها .. وينفذها حرفيا دون ان يكون له حرية اختيار النص الأصلح له .

بمعنى آخر هل الانسان مسير .. أى ليست له ارادة فى تسيير دفة اموره .. وأنه ليس سوى منفذ لقدره المكتوب .. فالايماءة والابتسامة .. والغضبة والكلمة حتى تحريك الحاجبين لمغازلة امرأة فاتنة .. كلها كتبت بمداد مجهول فى صفحة مجهولة .. تسمى القدر .. وبالتالى فان محاولات الانسان للتحضر والرقى لن تجد لها صدى سوى ما كتب بمداد هذا القدر المجهول .. بالمعنى الشائع .. « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » .

ان هذا الكلام مهما اكتسب من قدسية نتيجة تداوله والايمان به باعتباره أحدى القضايا الالهية التى لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها .. لهو اشبه بتلك الألغاز التهويمية من شياطين وجن أحمر واسود واخضر .. وأبليس ورقيب .. وعتيد .. وعوالم ما بعد الموت .. لماذا ؟

اولا لأن القدر يعنى أن الانسان يسير فى فلك اعمال واقوال كتب عليه ان يفعلها .. بل ونتائج حكم عليه بها وهذا يعنى ببساطة شديدة أن كفاح الانسان مهما عظم شأنه فهو مرتبط بنتيجة سبق أن رصدها للقدر لا تغيير فيها ولا تبديل .. فالثروة والسلطان باعتبارهما هدفين يصبو اليهما البشر يتأتيان متى شاء القدر ولا عبرة بمحاولات تبذل أو كفاح يدمى .. لأن ما هو مكتوب هو الحادث لا تغيير فيه ولا تبديل .. وبالتالى تصبح محاولات الانسانية على مر العصور فى مجالات الطب والهندسة والفضاء والكيمياء وغيرها فى فروع العلم المختلفة مرتبطة بمشيئة القدر اذا عن له

وكتبها فى صفحته فستؤتى ثمارها والا فلا ؟! وعلى الانســـان قبل أن يخطو خطــوة نحو التقــدم أن يعرف مقدما ما هو حظ هذه الخطــوة فى صـــفحة القدر المجهول ؟! ..

ثانيــا ــ أن القدر يعنى رفض علاقة السببية بين الفعل ونتيجته .. فلا ارتباط بينهما بل انفصام كامل (شــوزفرنيا) فالنتيجة لا تحدث بسبب الفعل .. بل تخضع لمشيئة القدر .. يحددها بالصــورة التى يرتئيها .. فسقوط المطر ليس سببه نظرية علمية .. بل ارادة القدر والتى يكــون من احد حوافزها ابتهال الناس ودعواتهم .. وشروق الشــمس وغروبها ليس منشأة دوران الأرض حول نفسها بل فى المقام الأول هو مشيئة القدر فلو غير القدر تلك المشــيئة لوجدنا الشــمس تشرق من الغرب وتنام فى الشرق .. والموت صفحة مكتوبة لا تغيير فيها ولا تبديل .. فمن أتى أجله يأتيه الموت ولو كان فى بروج مشيدة من الصــحة والعافية .. بلا أســـباب ظاهرة أو خفية .. يأتيه عزرائيــل يحمحم حوله .. ويلف ويدور .. ثم يطعنــه هذا الملعون طعنة نجلاء .. فاذا هو جثة هامدة ترفرف كالطير الذبيح فوق الأرض بعد أن يجذب روحه « بماشه » كتلك التى تستعمل فى التقاط جمر النار من « الجوزة » العصماء ،ومن يصاب بمقذوف نارى فى قلبه وينقذ .. ليس سبب نجاته تدخل المشرط ويد الطبيب.. بل لأن القدر يريد ذلك !!! والمريض يشفى لا لأنه عــولج بل لأنه كتب فى لوحة قــدره أن يشــفى !! ونصــدق من خلالها قصة أيوب الخرافية والذى شفى بعد أن نخر فى جسده الدود !! وننتهى بهذا الى رفض علاقة الســببية بين الفعل ونتيجته فى كل مناحى حياتنا .. فنتيجة الفعل لا يصيغها سوى القدر .. ومن ثم نعدم علاقة الســببية على متصلة التخلف .. ليصبح القدر هو صفارة الحكم الوحيدة فى الملعب يوقف المباراة متى شــاء وينهيها كما يريد لصـــالح أى فريق حتى ولو كان الفريق المهــزوم ..

ثالثا ــ أن تطبيق تلك القاعدة هكذا بلا ضوابط يعنى فى النهاية غيبة للقانون الكامل الذى يحكم الكون بمعنى أنه اذا كان للقدر اليد الطولى فلن يتم ذلك من خلال قانون محدد يحكم الكون تأتى فيه الحيثيات قبل المنطوق بل من

خــلال غيبيات غير مفهــومة .. وبالتالى يصـــبح القدر رمز للنتائج التى لا تحكمها أسباب أو مسببات .. فهى تأتى كما يشـــاء القدر وفى اى وقت يشاء .. وتصبح هكذا رمزا لفوضى ليس مكانها سطور قانون كامل استنبتت فى ارضه بذور المنطق .. وشجرة العقل بل تهويمات وخرافات .

رابعا ــ الله لا يتدخل فى حياة كل فرد تدخلا مباشرا ليرســم له لوحة حياته بما فيها من الوان باهتة وزاهية .. وخطوط متعرجة ومستقيمة .. وظلال وضباب .. واضواء .. بل الأقرب الى العقل القــول أن الانسان يجرى ويلهث ويأثم ويبتسم ويغضب .. ويضرب فى الأرض بلا هدى ويصل بعقله للنظريات العلمية .. ويحرك الســحب والمطر .. كل هذا من خـــلال قانون كامل متكامل .. هــذا القانون ليس قدرا .. ولكنه قانون يحكم هذه الأكوان .. هذا القانون لا يرسم لكل شخص حياته .. ماذا يأكل .. وماذا يشرب .. ومن يعشق .. ومن يكره .. لكنه قانون عام شامل له نظرياته العلمية والاقتصادية والانسانية كل فرد تجرى شئونه من خلال هذا القانون الذى لم يكتشف الانسان بعد من فروعه سوى القدر اليسير .. هذا القانون لا مكان فيه للحظ المطلق .. ولا مجال فيه لتحديد عمر الانسان الا اذا كان من خــلال أحد قوانين العلم .. : بريض السرطان الذى يحدد الطب آفته ووقت موته .. هذا التحديد ليس ناتج القدر أو جنينه بل سببه قوانين العلم التى اصـــبح فى مكنتها تحـــديد نوع الجنين والذى كان يعتبر فى وقت من الأوقات احدى المعجزات التى لم يسر بها الله لمخلوق !! ومن منطلق تقولات شائعـــة « لا يوجد دابة على الأرض الا وعلى الله رزقها » « ربك يفرجها » « تجرى جرى الوحوش وغير رزقك ما تحوش » « لن يصيب الانسان الا ما كتب له » « الاعمار بيد الله » « اعقلها وتوكل » من هذا المنطلق للعاجز الكســيح بدأ بعض الناس يدمن الكسل أملا فى جنة أرضــية تأتيه من حيث لا يدرى .. السماء التى تمطر ذهبا أو الأرض التى تفجر ينابيع الثروة .. وســـاعد على تقوية هذا الاعتقاد ما هو الحادث فعلا فى كثير من البلاد .. الثروات الهائلة

التى تدفقت ايضا من حيث لا يدرون فادمنوا الكسل اكثر فأكثر واصبحوا السادة الذين يشترون بملايينهم العمال الفقراء .. وعادت اسطورة ــ العبيد تدق ابواب الحاضر والمستقبل .. فاذا كان كل شىء دان .. المال والعبيد .. فلماذا الكفاح والنضال من أجل التقدم لماذا تعب (الدماغ) وهم يستوردون العلم من الخارج بخبرائه وآلاته .. لماذا العناء فى البحث والابتكار والاختراع والملايين تنفق فى شراء احدث مخترعات هذا الاله الجديد .. العلم. لكن كثيرا ما تحدث كوارث كالزلازل والبراكين، والسيول والحروب والأوبئة والمجاعات وهو ما يعبر عنه بالقوى ا ناهرة .. فما حظ تلك الكوارث من القدر ؟ حتى تلك الكوارث رغم أنها قوة قاهرة فالانسان لا يفقد اختياره أمامها .. كيف ؟! لأن له امامها بدائله واختياراته لدرء ضررها .. فهى ليست قدر ولكنها ظواهر لها أسبابها وقوانينها .. والانسان فى تقدمه المذهل نحو الحضارة يحاول جماعيا او فرديا أن يقاوم مثل هذه الكوارث .. جماعيا بعلاج الآثار الضارة الناجمة عن حدوث هذه الكوارث .. أو بالوقاية منها .. بعمل السدود او الابتعاد عن مصدر خطرها أو محاصرة اسبابها أو التحصين ضدها .. وقد تكون ردود الافعال فردية فيختار الانسان افضل السبل المتاحة لتفادى مثل هذه الكارثة أو تلك .. فاحتراق عمارة يحدث ذعر كرد فعل للسكان .. ولكن رد الفعل هذا يختلف من شخص لآخر .. لكن ثمة قاسم مشترك يجمع هذه الردود وهو محاولة الحفاظ على الحياة .. فالذى يحاول أطفاء النار .. غير الذى يهرب .. غير الذى يقفز من النافذة .. ولكن القاسم الذى يجمع هذه الافعال هو محاولة الابتعاد عن الموت هذا يعنى أمر واحد أن الجميع كان له فرصة الاختيار بين البدائل المفروضة عليه .. فالكل كان متساوى أمام فرصة اختيار بقائه حيا أما الاختلاف فهو فى كيفية درء الخطر بالتقفز من النافذة او الهرب أو محاولة الاطفاء .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل الناس متساوون أمام هذا الاختيار ..

خلع نمرود خفيه .. صفق بهما .. صاح فرحا :

ــ انه الكفر بعينه .. أنه الالحاد .. لقد دخل المصيدة .. انكر القدر .. انكر قدرة الاله .. الاعدام وليس سوى الاعدام بديلا ..

قاطعته فى حدة :

ــ أيها الكلب الازعر .. هلا سمعتنى للنهاية .

رئيس المحكمة يرد فى ثقة :

ــ وهل بعد الكفر بالقدر شىء ؟

ــ نعم .. بل أشياء .

أذن فاقرا ايها الملعون فقرات كتابك الملعون فقد اقتربت المتصلة من رقبتك أو دنوت أنت منها . هيا يا ملعون .. هيا .

صوتى يهدر من جديد . .كأنه الزمن عندما يفيق من اغمائه بعد ثورة دامية .

١ = ١٠

المساواة احد دعائم الاختيار .. بها يطمئن الانســـان على حريته ان تنهشها ذئاب القمع .. فالتفرقة يستلزم لاســـتمرارها ذبح أية صـيحة تطالب بالمساواة . ويقصد بالمساواة هنا كفالة الاختيار لكل فرد .. والفرد هنا لا يعتبر فردا مجردا .. بل فردا بما تحيطـــه من ظروف .. اى حالة اجتماعية .. الحالة = الانسان + الظروف .. .

هذه الحالة الاجتماعية يجب أن تكفل لها المســاواة فى الاختيار بمعنى آخـــر يجب ان تكفل لكل الحالات المتشابهـــة نفس الحقوق التى ترتب على الاختيار .. فلا تفرقة بين حالة وأخرى متشابهتين تحملان نفس الالتزامات لأن المساواة تعنى فى النهاية مساواة فى الحق والواجب ..

لذلك كان سبب التناقضات الاجتماعية غيبة المساواة عن ساحة التطبيق وظهور الاستثناءات .. ففى غيبة المساواة عن أرض الواقع تحفر حمم نارية بقسوة ارض المجتمع كالوساطة والمحسوبية والاستثناءات والرشوة نتيجة لفقـــدان المعيار القانونى الذى يحدد الحق والالتزام لكل حالة على حـــدة .. فيزيط اللعب ويختلط الحابل بالنابل ويعلو من لا يستحق ان يعلو ويطفو على السـطح غرقى الفكر والمتزلفين والمنافقين .. ويغوص الى القاع اصـــحاب المواهب والاكفاء والعباقرة .. ونجد الساحة فى النهاية وقد علا ســـقيفتها الضباب وحلت على ارضـــها الفوضى .. .. وغابت عنها اشراقة المساواة هذه المساواة لا تعنى فقط مبدأ تكافؤ الفرص بل ايضـــا المساواة الكاملة منذ ولادة الانســـان حتى موته .. وهذا يعنى أن تكفل له كغيره كافة الحقوق مقابل ادائه لالتزاماته التى تحددها الحالة التى يكون عليها هذا الانسان .. هذه الحقوق والالتزامات ترتبط ببعضـــها ارتباطا وثيقا تصاعديا او تنازليا

بمعنى انه كلما زادت — مسئوليات الانسان اتسع نطاق حقوقه ليستطيع من خلالها ان يواجه تلك المسئوليات .. وكلما تضاءلت مسئولياته .. ضمرت حقوقه .. وبالتالى يطرد الحق مع المسئولية اضطرادا تناسبيا .. ليتناسب مع ضخامة او صغر حجم المسئولية .. بحيث يمكن القول ان الاخلال بهذا الاضطراد وهذا التوازن يؤدى الى عواقب وخيمة .. فاذا لم تتسع دائرة الحق لتتوازى مع المسئولية .. فذلك يعنى ضآلة الحق مع عظم المسئولية .. ويعنى ايضا فى غالب الاحوال الانحراف .. واذا انقلبت الصورة وأصبح الحق الممنوح للانسان أكبر بكثير من المسئولية الملقاة على عاتقه فهذا ادعى الى الانحراف بالسلطة .. تماما كمن يرتدى جلبابا فضفاضا يتعثر فى اطرافه .. ويعوقه عن الحركة .. ويدفعه لارتكاب اخطاء . من هذا ننتهى الى أن قاعدة توازى الحق مع الواجب ضرورة حتمية بدونها تحل الفوضى دروب المجتمع .. فالطفل الذى تزيد فيه حقوقه عن واجباته ينمو طفلا مدللا .. وينعكس الحال عندما يحرم الطفل من حقه فى الرعاية والحنان والحب وكلما زاد نماء الطفل زادت رقعة واجباته وبالتالى رقعة حقوقه .. والتى تتغير حسب مراحل حياته وحسب الظروف المحيطة به باعتباره حالة .. فليس من المستساغ عقلا ان يأخذ الشباب حقوق الطفل فقط ويلتزم فى نفس الوقت باداء واجبات الشاب .. وما ينطبق على الشاب ينطبق ايضا على رب الأسرة فكلما زادت مسئولياته كلما اتسعت دائرة حقوقه تلك الضرورية و اللازمة لأداء هذه المسئوليات .. بحيث يمكن القول انه من أحد أسباب التفكك الأسرى هو عدم تحقيق التوازن سواء بالنسبة للزوجة او الزوج .. فالزوج الذى تلتهم امرأته حقوقه .. والمرأة التى يستعبدها زوجها كلاهما معول يفتت التوازن بين الحق والواجب .. ففى الصورة الأولى رجل اهدرت كل حقوقه .. وفى الثانية امراة انمحت آدميتها والحاصل فى الأسرة هو ايضا محصلة المجتمع .. فبقدر ما يعطى الانسان لمجتمعه بقدر ما يأخذ . فاذا كان عطاء الانسان اكبر من عطاء المجتمع له فهذا يعنى اختلال التوازن بين الحق والواجب .. فالواجب الذى يؤديه

الفرد لا يحصل على مقابل له .. واذا كانت هذه هى الصورة الأولى للفرد الذى يعطى دون مقابل .

فالصورة الثانية اشد اسودادا واكثر عمقا .. أنها تصنع الأخاديد والحفر فى المجتمعات وتهز البنية الأساسية .. بل وتحيلها انقاضا . صورة هؤلاء الذين ينهشون القطيع المسالم بلا حياء او خجل دون أن يقدموا فى المقابل سوى الموعظة الحسنة والتمنيات الطيبة والوعود الزائفة !! عندئذ يتراكم الاحساس بالظلم .. ليتحول من شعور فردى الى احساس جماعى وتصبح آنذاك الأرض خصبة لانبات بذور الثورة .

لكن فى النهاية يصبح التوازن بين الحق والواجب بين الأخذ والعطاء هو الفيصل فى قضية المساواة فالمساواة ليست مطلقة .. معممة .. بل تأخذ فى الاعتبار لتحقيق صورها العدالة المطلقة فى كل الحالات المتشابهة أو المتماثلة وايضا توازى المسئولية مع الحق ويمكن جدولة هذا المعنى بالصورة التالية :

الالتزام اكبر من الحق ناتجه الانحراف
الحق أوسع من الالتزام ناتجه الانحراف أيضا
الالتزام = الحق ناتجه العدالة
١ = ١ ناتجه الانصاف

تلك الجدولة تعنى بقدر ما تعمل الخلية بقدر ما تأخذ من حقوق .. فاذا انكسرت تلك القاعدة نتج عنها شرخ فى بنيان المجتمع .. فيأخذ الانسان ما لا يستحقه .. نتيجة الالتجاء للأساليب الملتوية كالرشوة والمحسوبية واذا عجز .. فينصهر هذا العجز فى احساسه بالظلم أمام الفئة المختارة وفى المقابل اذا حرم الانسان من حقوقه تولد لديه الاحساس بالظلم وخيبة الأمل والانطواء والجمود وهو يرى بعينيه جهده وعرقه وكفاح يومه يسرقهم غيره .. فمن يعمل اقل يحصل على حقوق أكثر ومن يعمل بجد لا يجد الفتات .. وفى الحالتين سخط عام من الاغلبية ضد الاقلية المختارة .. يتحول بمرور الأيام من احساس بالسخط الى تذمر ثم الى تمرد ثم الى ثورة لا تبقى ولا تذر .

لكن هل يوجد حقا ما يسمى بالحظ ؟ اذا كان يقصد بالحظ اختلال فى بنية المجتمع فهذا صحيح اما فى مجتمع منظم فالحق يتوازى فيه مع الالتزام.. ومن خلال هذا يمكن تكوين هرم المجتمع على الوجه التالى على القمة يقف المفكرين يليهم العلماء وفى السفح الرعاع .. من صناع ومزارعين وتجار وحرفيين ومهنيين وعلة هذا ترتيب الهرمى تكمن فى الاجابة عن سؤال لمن يرجع اليه الفضل فى تطور المجتمعات ؟خريطة الانسانية توضح أن عملاقين تناوبا القيام بهذه المهمة العسرة خلال عصور للتاريخ فبدون العلم والفكر لم يكن الانسان ليأمل الخروج عن نطاق الغابة التى كان يتصارع فيها مع بنى جنسه والحيوانات . فطفرة التطور الهائلة التى يعيشها المجتمع مرجعها اكتشافات العلم ومفاهيم الفكر .. هذا الترتيب حتمى .. بمعنى أن الاخلال به يسبب اختلال فى هيكل المجتمع .. فاذا احتل الرعاع القمة وانحدر المفكرين والعلماء للسفح فهذا يعنى الاخلال الجسيم بهيكل المجتمع ويعنى أيضا فقد توازن المجتمع وانهيار قيمه وعقليته الابداعية .. بل أن فكرة بناء المدافن لدى قدماء المصريين على هيئة هرم وليس على شكل مربع أو مستطيل قد توحى بتأكيد معنى التدرج الانسانى !! والمجتمعات التى ترفض هذا التدرج كما هو حادث فى الشرق حيث احتل أصحاب رؤوس الأموال ومعظمهم من الأفاقين وقطاع الطرق والجهلاء قمة الهرم .. مثل هذه المجتمعات فقدت الحس والادراك والفهم وأصبح طابعها العجز حتى فى البحث عن حقيقة ذاتها .. وفقدت بالتالى ميزة البحث والتطور والخلق والابداع .. والسؤال أو ليس هذا التدرج يعتبر اخلالا بقاعدة المساواة ؟! الا يعنى هذا التقسيم خرقا لمبدأ المساواة ؟! ابدا .. لأن هذا التقسيم ليس سوى تدوين لخريطة الواقع .. وليس مجرد اقتراح .. فالحادث فعلا أن قاطرة المجتمع لا يدفعها سوى بخار العلم والفكر وليس هذا باكتشاف حديث فقد وصلت الى معناه أكثر الدول تخلفا فأصبحت الآن منارة للفكر والعلم والحضارة بعد أن أعطت اهتماما لعلمائها ومبدعيها ومنحتهم الفرص للتزود من فروع العلم والمعرفة بالاطلاع والبحث والرحلات .. بل يمكن لنا بلا تحرز أن نضع الدول أيضا فى هذا التدرج الهرمى فعلى القمة تقف الدول التى تهتم بالعلم والفكر ..

والتى تزهو بعلمائها ومخترعيها ومفكريها .. بينما تعيش حثالة الدول والتى اهملت مفكريهـا وعلمائهـا ومبدعيها فى السـفح تحت الطـين .. ديدان تأكل من روث البهائم . واذا ما انتقلنا من الفرد والدولة الى الحاكم لنناقش حقوقه وواجباته نجد أن الحل الأمثل لمارسـة الحاكم لسلطاته هو توازى الحق والواجب .. فالحاكم الذى يعطى لنفسه حقوقا أكثر من تلك الضرورية لمارسة سلطاته يخل بقاعدة المساواة وينحرف بالسلطة لذلك فالتزام الحاكم بقاعدة توازى الحق مع الواجب التزام اساسى .. والقانون الذى ينص على خلاف ذلك قانون باطل غـير مشروع يجب اسـقاطه .. ان سبب الثورات ليس الفاقه او الجوع التى يعانى منها الفرد .. بل السخط نتيجة كسر قاعدة المساواة فى مجتمع يشعر فيه الفرد بحدة الفوارق الاجتماعية مجتمع تحصل فيه الأقلية على حقوق اكبر مما تؤديه من التزامات .. بينما تحصل الأغلبية على حقوق تقل بكثير عن التزاماتها .. مثل هذا الاحسـاس هو الذى يفجر الثورات .. فليس سبب الثورات مجموعة مبادىء او مثل يسـطرها قادة للثورة .. بل أن مفجرها الحقيقى هو الاحساس بالظلم .. ثم تعميق هذا الاحساس بمجموعة من الشعارات والمفاهيم تحتضن هذا الاحساس وتغذيه باسـلوب منظم .. وهذا هو دور قادة الثورات .. بحيث لا يصـبح أمام الانسان المحروق من بدائل سـوى طريق واحد يحقق له المسـاواة .. الثـورة .

ـ الميراث يعنى انتقال حقوق الميت ســــواء المادية منهـا كالعقارات والأموال او المعنوية كحقــوق التأليف او براءات الاختراعات الى ورثته .. ويعنى أن انتقال هذه الحقوق يتم بعد وفاة صاحبها .. ويعنى ايضـــا ان للجسد بعد الموت وقبل أن تنتقل تلك الحقوق للورثة يعنى ان لهذا الجســد الميت حق الملكية . بعض الشرائع لا تعترف بالميراث .. وليس هذا الانكار منصبا على نظام الميراث فى حد ذاته بل هو ينبع أساسا من عدم اعترافهـا بالملكية الفردية .. وشرائع أخرى تعتبر الميراث أحد الأعمدة الرئيسية فى بنية المجتمعات التى تأخذ به .. واذا ما عدنا القهقرى الى الخلف لنقرأ صفحات التاريخ .. نجد أن نظام التوارث هذا سابقا على صيغ الأديان وأن الصورة التى رسمتها الأديان ليست سوى ترجمة غير امينة لما سبقها من تشريعات !! وفلسفة الميراث تكمن فى ان الورثة ليسو ســــوى مكملين لحياة مورثهم .. لذلك فهم امتداد له فى كافة حقوقه .. وحتى نحدد مدى توافق هــذا النظام مع الاختيار علينا أن نبحث أولا عن اتفاقه أو اختلافه مع مبدأ المساواة .. خاصة وقد أدى تشريع هذه البدعة الغريبة الى تفاوت ضخم فى الثروات .. اصحاب الملايين واصـــحاب الملاليم .. مالكى اليخوت والطائرات وقاطنى العشش والحفاة والعراة .. صـــور نراها فى المجتمعات المتخلفة أكثر حدة منها فى المجتمعات المتقدمة .. لأنه لا توجد ثمة وسائل لامتصـــاص جزء من تلك الثروات الضـــخمة لصـــالح (الغـــلابة) .. تلك الثروات التى أتت لأصحابها بالصدفة عن طريق الميراث .. وما يترتب على ذلك من الاخلال بقاعدة المســـاواة .. فابن الجناينى العبقرى يرث الفقر والعــوز والحاجة ويرســـف فى اغلال التبعية .. بينما يرث ابن الثرى عن أبيه المـــال وربما الغباء .. فوارق اجتماعية طاحنة ســـببها ثروات تأتى دون قطرة عرق .. لذلك كان من المحتم التفكـير فى إذابة تلك الفـــوارق الاجتماعيـــة .. ليس

بالمناداة بالغاء الملكية الفردية .. لأن هذا يعنى اجهاض الحافز الشخصى .. وليس أيضا بحد سيف الضرائب الذى ثبت على مدى السنين عدم جدواه فى تمزيق الدخول المرتفعة لصالح الفقراء .. انما تتم الاذابة بثورة داخل النظام الراسمالى لا تقتلعه من جذوره .. بل تحمل مفاهيما جديدة لا تتعارض مع الأساس الفلسفى له .. ثورة أصبحت حتمية حتى لا يتعرض النظام الرأسمالى للانهيار بعد أن ثبت فشله فى اذابة الفوارق الاجتماعية .. مفاهيم ينصهر داخل بوتقتها أولا مواهب الانسان وقدراته الخلاقة وثانيا المساواة .. لنجد فى النهاية داخل البوتقة .. بعد أن تهدأ النار سبيكة ثمينة يمتزج فيها العدل والحق ..

ـ لكن يبقى السؤال الحائر كيف يمكن الوصول لذلك .. ليس أمامنا سوى العودة لحضن الاختيار .. فالاختيار كما سبق أن أوضحنا مبدأ شخصى يتصل بالانسان اتصال الجنين بالمشيمة .. ينتهى أو ينعدم بموته .. أى أن الاختيار بهذه الصلة الحياتية لا يورث فلا يمكن أن يرث الابن اختيار ابيه .. أو بمعنى آخر لا يجوز أن تصبح ارادة المورث الميتة المنعدمة شيء يتوارثه الورثة وبالتالى فان أى قرار يتخذه الابن ويعزوه للأب بعد موته يعتبر قرارا باطلا .. حتى على فرض أن هذا القرار قد صدر أثناء حياة المورث .. فان تنفيذه يصبح معلقا على وجوده حيا .. أى أنه يجب أن نفرق بين مكنة اصدار القرار وبين تنفيذه .. فمن حق المورث أن يتصرف فى أمواله بكافة التصرفات القانونية اثناء حياته وهو ما نطلق عليه مكنة اصدار القرار .. ومن حقه أيضا اثناء حياته أن يضع بارادته هذا القرار موضع التنفيذ .. ولكن بعد الوفاة لا يجوز أو يصح أن ينفذ الورثة قرارا اتخذه المورث قبل وفاته هو والعدم سواء ..وهذا منطقى لأن القول بعكس ذلك يعنى أن يصبح للوارث ارادتين .. ارادته وارادة المورث .. أى ارادة الملقى وارادة المتلقى ويصبح له بالتالى استعمال هاتين الارادتين .. وهذا باطل بطلانا مطلقا مثله مثل التوكيل الذى يعطيه الموكل.. لموكله فهو ينعدم بموته ..واذا كان مرفوضا أن يستخدم الوارث حقوق مورثه

مثل حق الانتخاب أو الترشـــيح او التعيين فى الوظائف العامة .. فليس له الحق كذلك فى استعمال حق اختيار مورثه لأنه حق متصل بذاته .. متصل بكينونته فمتى انتهت تلك الذات أو انعدمت تلك الكينونة انعدم الحق الناشىء عنها أو بمعنى كآخر اذا كان فاقد الشىء لا يعطيه .. فما هو الحال اذا كان صاحب هذا الشىء أصـــلا غير موجود .. وعلى هذا فمبدأ الاختيار لا يورث مثله فى ذلك مثل الحرية الشخصية التى لا يجوز أن تنتقل من مورث لورثته لأنها حرية لصيقة بذاته .. بكينونته التى فقدها بالموت .. والموت لا يعنى فقط موت الخلايا بل موت كافة الحقوق والالتزامات .. ويعنى أيضا سقوط كافة العقوبات.. بل والجرائم.. وبالتالى لا يمكن ان يحاكم الفرد أو يعاقب من اجل جريمة ارتكبها أثناء حياته.. واذا كان الحال كذلك فكيف تنفذ وصية للمورث بعد موته رغم أن تنفيذها يعنى رفض كل ما أوردناه من حجج وبراهين ويعنى ايضاء احياء لأرادة الميت التى دفنها المجهـــول .. الميراث يعنى فرض ارادة الميت بعد مماته بتقسيم التركة .. والتى يفترض معها ان للمورث بعد موته حق الملكية .. مع أن هذا الحق يعتبر واحد من الحقوق الأســاسية التى تتعلق بشخص الانسـان أثناء حياته وتنتهى بموته .. قد يقال ان هذا الحق يؤول الى الورثة فور موت المورث وهنا يكمن السؤال .. كيف ؟! وما هو السند القانونى الذى يؤول بموجبه حق الملكية للغير سواء بالميراث أو الوصية لا سند فى هذا ســرى التاريخ .. وهو ما يتناقض تماما مع حرية الاختيار التى تنعدم بموت الانسان حتى على فرض أن هـــذا المورث قد ارتضى أثناء حياته ان تنتقل أصـــل تركته لورثته .. لأن مثل هذا الرضاء لا يصـــحح التصرف الباطل .. ولا يضفى عليه الشرعية ومن ثم لا يحق للوارث بموجبه تملك حق اختيار مورثه الذى قلنا عنه أنه حق لصـــيق بالانسان .. فالميراث والاختيار قطبان متنافران .. بل يمكن القول أن تقرير مبـــدأ الميراث يعنى هدم الاختيار من أساسه .

اولا ــ لأنه ضـــد مبدأ تكافؤ الفرص الذى هو أحد ثمار الاختيار .. فالميراث يعنى استئثار فرد بميزة دون غيره .

ثانيا ــ من دعائم المساواة عدم التفرقة بين الناس والميراث يخل بهذا المبدا فواحد يبدأ من المليون وآخر من الصفر .. صراع .. الغلبة فيه حتما لصاحب المليون .. رغم ان المساواة الحقة تحتم أن يبدأ الجميع من الصفر سباق شريف للحياة .. الغلبة فيه للعرق والكفاح .. لا مكان فيه للكســل فمن يعمل ياكل . مثل هذا الالغاء لا يعنى اهــدار الحافز الفردى .. ذلك ان الانســان تحت ظلال هــذا النظام له حق التملك والانماء والاثراء من خــلال قناة تحقيق الذات ..

لقد ثبت علميا ان الحافز الحقيقى الذى يدفع الانسان لانماء ثروته هو فى المقام الأول تحقيق ذاته .. وليست رغبته فى أن تؤول تركته الى ورثته . فضلا عن ذلك فان الغاء الميراث يضيق من الهوة الساحقة التى تفصــل بين الطبقات .. ويذيب الأحقاد الطبقية .. وتتحول الرأسمالية تحت ظلال هذا النظام الى راسمالية هادئة لا عنف فيها ولا ثورات ولا احتيال أو غش او خداع ولا محسوبية او رشــوة او وســاطة .. تختفى كثير من الجــرائم والأمراض الاجتماعية ويتحول فساد المجتمع الى نقاء وطهارة .

قاطعنى نمرود فى تحــد :

ــ ضقنا بفلسفاتك والكتاب الملعون .

ــ وانا لست اقل ضيقا من جهلك وصفاقتك .

ــ اذن فانت تكتفى بما قرأته لنا من الأكاذيب .

ــ اذا كنت ورفقائك قد اقتنعتم بالحقيقة .

ــ الحقيقة الوحيدة أنك تخطو نحو قارب الموت .

ــ بل قارب يقلنى الى مكان بعيد لا أرى فيه ســوى امراة جميلــة فى مخدع انيق .

ــ امراة بعينها ؟ .

ــ بل واحدة اذوب واياها وانا اضاجعها ..

ــ أين هى حتى نضعها معك فى قفص الاتهام .

ــ انها الحتمية التاريخية يا جاهل .

ــ أكمل اذن اكاذيبك وترهاتك .

ـــ رحم واحد يحمـــل توام .. ذكر وأنثى من نطفــة واحــدة فاذا ما احتواهما الوجود البشرى بدات التفرقة المتعسفة بين الذكر والأنثى .. فى التقييم الانسانى .. الأنثى أقل درجة من الرجل لانها ناقصـــة عقل ودين واذا تســاطنا كيف يكون هــذا الانتقاص نجد ان المنطق يرفض عموميات مثل هذا النص .. ويرفض القول بالأفضــلية المطلقة للرجل .. بل يوجب بحث كل حالة على حدة سواء كانت ذكرا ام انثى لمعرفة الأفضل والأحسن فمعيار التفرقة بين الجيد والغث البشرى لا يجب ان يعتمد على النوع ذكر ام انثى بل الفرد باعتباره حالة اجتماعية داخل نظام اجتماعى .. والا اصبحنا امام تفرقة ظالمة لا تمت للعدالة لا من قريب أو بعيد بصلة .. هذا بالنسبة للتقييم الانسانى .. واذا ما انتقلنا منه الى للحقوق المكفولة لكل من الرجل والمراة .. نجد ان الأديان ونصــوص كثير من التشريعات قد كفلت للرجــل حقوقا أكثر بكثير مما للمرأة .. واصبح بمقتضاها فى وضع متميز .. المرأة ترث نصف الرجل .. شهادتها لا تجوز الا اذا كانت ثنائية .. للرجل الحق فى تقويمها بكافة الوسائل من هجر للسرير حتى الضرب .. ليس لها الحق فى الطلاق ولزوجها عليها حق الطاعة بل وتجبر على معاشرته جنســيا .. ليغتصب فى كل مرة كرامتها وانوثتهـــا والأمثلة على اهــدار آدميتها كثيرة ومتنوعة اى ظلم هذا يجلبه عليها تكوينها الأنثوى .. رغم أنها تحمل داخل رحمها معجزة الحياة التى سيظل سرها مســـتغلقا على العقل البشرى لفترة ليست بالوجيزة .

وعلى أرض الحقيقة نجد أن هــذا التميز الذى خص الرجل به نفســه لا يسنده دليل عقلى او فكر منطقى أو استنتاج علمى بل مرد الأمر كله لحجج واهية ساقها دعاة التميز منها تفوق الرجل ومسئولية الانفاق .. دعوة ليست سوى ردة فى الحضـــارة !! ذلك أن لكل من الذكر والأنثى مســئولياته التى

اختصته بها الطبيعة والتى تختلف بالتالى حسب نوع كل منهما لا تفوق فيها لنوع على الآخر .. الا حسب قدرات كل شخص سواء أكان ذكرا ام انثى .. بحيث يمكن القول ان التوازن فى المسئوليات بين الذكر والأنثى قانون رسمته الطبيعة بمداد من الواقع والتاريخ .. فاذا كان على الرجل اعالة الأسرة .. فالمراة مسئولة عن الطفل والبيت .. ميزان دقيق تقبضه يد العدالة على احدى كفتيه مسئولية المراة .. وفى الكفة الأخرى مسئولية الرجل مسئوليتان متوازيتان .. لا افضلية فيها لنوع على الآخر .. بل الأفضلية تنصب على الفرد باعتباره حالة اجتماعية .. فنقول على هذا الشخص نافع او سلبى لا حسب نوعه ذكر أم أنثى بل بما يقدمه لمجتمعه واسرته .. واذا ما اردنا الاستزادة نجد ان التفرقة بين الذكر والانثى تفرقة ظالمة هجرها الواقع الآن خاصة بعد أن نزلت المراة لميدان العمل وادت اعمالا بطولية خارقة فى كافة المجالات وقدمت اروع الأمثلة فى التضحية وفى الاخلاص وفى التفانى وانطمست تلك الصورة القبيحة التى انطبعت فى الاذهان .. صورة المراة التى تنتظر زوجها امام باب الكوخ .. تخلع عنه بردته وعمامته .. تضع قدميه فى ماء مملح .. وفى النهاية ترتمى عارية تحت اقدامه .. انشودة لمتعته الجسدية !! لم تعد هذه صورة المراة بعد أن غزت كافة ميادين العمل بالابداع والعقل والذراع ..

والحق يقال ان الأديان لم تنشئ هذه التفرقة فهى سابقة على وجودها كل ما فى الأمر أن الأديان بصمت على قانون هذه التفرقة الظالمة ..

ان المناداة بالمساواة بين الرجل والمراة هذه المناداة لا تاتى من فراغ بل تؤيدها أدلة عقلية واسانيد فكرية .. اولها هى مبدأ الاختيار فالاختيار يعنى المساواة بين البشر لا يفرق بينهم فصيلة .. او لون .. أو نوع .. يعنى ايضا حقوقا متساوية .. انما التفرقة تاتى من اعتبار الفرد حالة تختلف عن الأخرى .. أما الحالات الاجتماعية المتماثلة فلا يجوز التفرقة بينها .. فمثلا لا يجوز منع امراة من تولى منصب معين لا لسبب الا لأنها امراة ..

فاذا كانت هذه المراة تمثل حالة اجتماعية تتشابه وظروفها مع مثيلتها

لرجل يشـــغل نفس المنصـــب ومؤهله فلا يجـــوز تخطيها لا لســـبب الا لأنها أنثى .. هذه التفرقة نشأت منذ العصـــور الأولى للتاريخ عنـــدما كان الرجل يخطف المرأة ويســـحبها من شـــعرها .. ثم انتقلت عدواها الى عصور متقدمة فأصبح الرجل يشـــترى المرأة بأن يدفع لها مهرا مقابل متعته والقيام على خدمته .. وأحاطت صورة الزواج عامة وفى الشرق خاصة اطار مهذب .. لكن الصورة نفسها بات ينبض كل لون فيها بمعنى الرق .. من خلال أحكام ظالمة ضد المرأة .. فللرجل الحق المطلق فى الطلاق وما عليها سوى الطاعة دون أن تنبس حتى بكلمة « أف » كل ما عليها اذا ما لحق بها ضرر ان تطلب من المحكمة التطليق بناء على أســـباب يحددها القانون على سبيل الحصر وللمحكمة ان ترفض طلب الزوجة .. رغم أن استمرار المعاشرة يستلزم رضا الطرفين ويعطي لأى منهما الحق فى طلب انهاء هذه العلاقة اذا ما لحق بأحد الطرفين ضررا يستحيل مع وجوده استمرار هذه العلاقة ليصبح له الحق فى فســـخها .. مثل هذا الحق مكفول للرجـــل فقط دون المرأة .. لماذا ؟! محاباة لا يسندها عقل أو منطق .. بها اصبحت المرأة كقطعة اثاث يقذف بها الرجل اينما وفى أى وقت يشاء .. محاباة غابت عنها الحكمة .. ضـــاع منهـــا الحق .. الحق الـــذى يســـنده فكرة التعاقـــد الذى تم بين طرفا العقـــد الزوج والزوجة .. فالعقد شريعة المتعاقدين .. اذا كان لأحدهما الحق فى فسخ العقد .. فيجب أن نكفل للطرف الآخر نفس الحق .. والا كان معنى ذلك عقد اذعان و... ما يخالف ارادة الرضـــاء المفترضة لدى كلا الطرفين عند بدء التعاقد .

هذه الصورة المنبوذة من الزواج تقابلها صـــورة أخرى اشـــد ظلمة واسودادا .. وهى صـــورة الزواج المؤبد الذى لا يكـــون فيه لأحد الطرفين الحق فى فسخه حتى ولو اتفقا على ذلك .. ليصبح الشكل فى النهاية أقدس وأبقى من ارادة الطرفين .. وليصبح الانسان فى النهاية أسير صيغة سبق ان ارتضـــاها لينظم بها علاقته بطرف آخر .. فكيف نحقق الحد الأدنى من العـــدالة لزوجـــة تؤخـــذ قسرا وتســـجن فى بيت زوجهـــا ثم نرتب على هذا القسر العدوانى حقوق كاملة للزوج على جسدها وانسانيتها .. وتبقى حتى الموت سجينة علاقة زوجية دون أن تجرؤ على صرخة تطالب بها فســـخ

تلك العلاقة .. فهل يمكن ان تكون مثل هذه الأحكام احكاما عادلة .. واحد من قوانين الله الكاملة ؟! ..

ان محاولات الانسان التى بذلها على مر العصور من أجل تقدمه وتطوره والصيغ التى تنادى بها الفلاسفة والأنبياء والمصلحون لا يجب أن تنسينا الفلسفة الكامنة وراء كلماتها وهى أن هذه صيغ مرحلية قابلة للتعديل والتغيير للأحسن والأفضل والأثرى .. تغيير يتفق مع طموحات الانسان وتقدمه العلمى .. حتى لا يصبح الانسان فى النهاية أسير صيغ جامدة .. تكبل التطور الانسانى بالقيود والسلاسل .. ونفقد هكذا الطريق الى الحضارة والتحضر .. ويصبح النص فى النهاية اقدس من ارادة التغيير لدى الانسان .. لذلك كان حتميا أن يندرج عقد الزواج كباقى العقود تحت قاعدة العقد شريعة المتعاقدين وأن يكون للطرفين وضع كافة الشرائط القانونية التى يتفقان عليها طالما أنها لا تخالف النظام العام .. ومنها حق أى منهما فى فسخ العقد اذا ما تعذر استمرار علاقة الزوجية .. ان غيبة السند القانونى فى اعطاء الزوج الحق فى اعادة زوجته الى عصمته بعد طلاقها منه بارادته المنفردة رغم انقضاء العقد بالفسخ يدفعنا للقول ان مثل هذه العودة وهذا الاسترجاع يعنى عقدا جديدا يشوبه البطلان فى حالة عدم موافقة المطلقة على هذا الاسترجاع .. وصورة من صور الرق المقنع يأنفها المجتمع المتحضر .. ويمجها العقل لكن السؤال الذى يفرض نفسه على الساحة بقوة وشدة .. هل يعنى حصول المرأة على حقها فى الطلاق وتساويها معه فى الحقوق الخروج من كهف الظلام الذى تعيشه ؟؟ ..

ــ بالتأكيد لا .. لأن ما سردناه كان مجرد أمثلة للعسف والظلم الذى تقاسيه المرأة اليوم .. لقد أصبحت المرأة وفى الشرق خاصة فى وضع يرثى لها .. فهى مسئولة عن أولادها وعن بيتها .. وعملها .. والنتيجة الحتمية عدم قدرتها على اداء كل هذه المسئوليات الملقاة على عاتقها .. فلا هى أم مثالية ولا هى عاملة مثالية .. فكان ان تفككت الأسرة .. وضاعت خيوطها وباتت النتيجة سيئة .. مؤلمة .. حزينة .. مرثية .

ان ضرورة مساواة المرأة مع الرجل ضرورة حتمية لكن المسألة مسألة وقت .. طال الوقت أم قصر ستحصل المرأة على حقها فى المساواة .. هذه المساواة تشمل كافة مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. وكل فى دائرة اختصاصه .. الرجل خارج البيت والمرأة المتزوجة داخله من خلال مبدأ أساسى .. للفتاة الحق فى العمل لا قيد على حريتها فى العمل لكن اذا تزوجت فلها الحق فى الاختيار بين العمل والبيت .. لكن اذا اختارت البيت لها ان تحتفظ بكل حقوقها وميزاتها كامرأة عاملة !!

وحتمية المساواة يستلزم معها ان تكون المساواة مع الرجل فى كافة الحقوق والواجبات كل فى دائرة اختصاصه .. حقوق سياسية واجتماعية واقتصادية .. حقوق كاملة غير منتقصة .. لا يحدها سوى قانون واحد فقط هو قانون الاختيار واحد فروعه المساواة ..

هذه الحقوق لن تحصل عليها المرأة بالانطواء والانزواء أو الاستجداء او توكيل خصمها ليناضل من اجل انتزاعها من نفسه .. فالرجل راضى تماما عن هذا الغبن والظلم .. بل هو يصلى فى محرابهما ليل نهار من خلال وعوده الكاذبة البراقة للمرأة. فالرجل لن يتخلى بسهولة عما اكسبته الأديان اياه من قوة وسطوة .. ولن يتغير مفهوم الرق القديم .. ذلك المفهوم الذى عاش واختمر داخل وجدانه منذ آلاف السنين فالرجل لن يتنازل اختيارا عن حقوق باتت جزءا من تكوين عقله وانسانيته .. الا اذا كان للمرأة دور ايجابى فى تغيير هذا المفهوم البالى .. وانتزاع الحق من بين براثن الأسد وهى لن تستطيع وننك الأمية تعشش على عقول بناتها وذلك الجهل المتفشى يحاصر امهاتها .. صاحبات « حلة المحشى » و « برطمان المخلل » « وكسرولة الملوخية » والكلمة المأثورة « مستر سيد ».

بسطاوى ينظر الى اعضاء المحكمة بدهشة واستغراب يشملنى بتلك النظرات يسألنى :

— قلت محشى ومخلل وملوخية .

— نعم يا سيد بسطاوى .

ـ ماذا تعنى يا متهم بتلك الكلمات ؟

صرخ نمرود بحـــده :

ـ أنها يا سيدى شفرة الشيطان .. وقد تكون بداية مؤامرة معه يقضى فيها على الجنة . ابتســـمت « اية جنة يا غبى تلك التى تتحدث عنها ؟! اذا كانت هــذه هى للجنـــة .. فماذا رأيت أنا فى باطن الأرض » .. عــاد نمرود يصرخ من جـــديد :

ـ أنه يبتسم سيدى الرئيس .. امنعوه .. فهــذه الابتسامة أحدى خيوط المؤامرة .. التى دبرها مع للشيطان .

بســـطاوى يحذرنى قائلا :

ـ على المتهم الامتنـاع عن حديث الالغاز والابتسام .

قلت فى حـــده :

ـ بل ســـامتنع نهائيا عن التـــلاوة حتى تعطـونى الفرصـــة كاملة دون مقاطعـــة .

رأس بسطاوى المدبب تميل الى اليمين ثم الى اليسار بعدها يعلن :

ـ على المتهم الاسترســـال فى القراءة .. وعلى النيابة عدم مقاطعته نهائيا حتى يتم قراءة كتابه الملعون .

ــ لقد تجرأ البعض وانكر وجود الله . . ولم يحدث نتيجـــة لذلك أن الحد كل الناس . . أو ارتدوا عن دياناتهم . . بل تفجرت ينابيع الجدل . . وتغازلت البراهين والأدلة . . وسالت دماء الأقلام فى معركة الاقناع وارتوت ارض الفكر الجدباء بغيث الحجج والبراهين فانبتت زهور المعرفة . . وبدات قصة وجود الله تكتسب نتيجة ذلك الجدل ابعادا جديدة أهم ما فيها العقلانية . . وتمزق ثوب الخرافات البالى المهلهل فى تفســـير كثير من الغيبيات التى مرغت العقل الانســـانى فى الوحل دهورا طويلة وتوارثها الفكر حتى باتت أحدى ســـماته وارتبطت هذه الخرافات بقضـــية وجود الله . . فاحاطتهـــا بالشكوك . . وطوقتها بالتمرد . . لذلك كان من الأهمية بمكان أن نشـــذب فكرة وجود الله من اغصانها السرطانية بالالتجاء لقفص العقل ورفض توارث فكـــرة وجـــود الله . . وقد نســـمع من رجل بســـيط ما يهز وجـــدانك ويثـــير حـــيرتك (وماذا يهم أن أؤمن بوجـــود الله عن اقتنـــاع منطقـــى او مـــيراث دينى النتيجـــة واحدة) . . ويبـــدو هـــذا القـــول لأول وهلة صـــحيحا . . ولكن ما يترتب عليـــه من نتائج يدفعنـــــا لرفضــــه !! ذلك أن الايمـــان بوجـــود الله من خـــلال الأديان والتى تطالب الانســـان ايضا بالايمان بأمور تخطى نطاق التفكير . . وتربط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة والجذر بالتربة فطالما آمن الانسان بوجود الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصـــل بوجود هذا الاله من جنة ونار وشياطين وملائكة . . وجن صالح . . وجن طالح . . وابليس ومعاونيه حتى لا يجرفه الانكار الى النار الحارقة . بعكس الايمان العقلى المجرد بوجود الله والذى يتحتم معه وجوب مناقشة كل قضية بمفردها . . ووضـــعها تحت ميكرسكوب المنطق . . لذلك يجب فصل قضية وجود الله عن كل ما يتصـــل بها قضايا . . ومناقشـــة كل قضـــية على حـــده اذا ما اردنا حقا الايمان بحقيقتها . من تلك القضايا . . قضية اتصـــال الله بالرســـل . . والهامهم

المعجزات التى تميزوا بها عن سائر البشر فهل تعنى المعجزة اتصال الله بالرسل ليلهمهم اياها .. اذا كانت الاجابة بالايجاب .. فسينبت من برعمها رغما عنا سؤال آخر .. وماذا لو ادعى أحد المخترعين ان الله الهمه سر اختراعه عن طريق وسيط .. ملاك او شيطان .. او ان الله بنفسه اسر له به .

بالقطع سننكر عليه قولته .. رغم أنه لا خلاف حول اعجاز اختراعه الذى انفرد به دون سائر البشر ؟!

اذن فلم هذه التفرقة الظالمة .. رسول يدعى الاتصال بالله ودليله معجزته فنصدقه .. وعالم على نفس نهجه فننكر معجزته !!

ثم ماذا لو ادعى احد الأدباء أن ما يكتبه من شعر أو قصة ليس سوى وحى الهمه الله به .. هل نكذبه رغم أن ما اتى به لا يستطيعه غيره من سائر البشر .. معجزة انفرد بها .

الحقيقة أنه لا يمكن انكار مثل هذه الدعاوى الباطلة وبالتالى أنكار الصلة المزعومة بين هؤلاء وبين الله بانكار معجزة العالم أو الأديب وتعريتها من ثوبها الخارق ووضعها فى مصاف الأمور التى تحدث عادة وكذلك لا يمكن السير فى الشوط لنهايته نتيجة العجز عن تعرية العمل من اعجازه بتاييد دعاويهم الاتصال بالله والتى استدلوا عليها بمعجزاتهم .. بل يجب أن يكون الفيصل فى حقيقة اتصالهم بالله هو مدى صحة هذا الاتصال .. لذلك يجب حتى نحكم على وجود مثل هذه الصلة من عدمها أن نعى امران :

أولهما : وجود المعجزة لا يعنى بالضرورة اتصال الله اتصالا مباشرا أو غير مباشر لتحقيقها .. ولا يعنى تدخلا سافرا من الاله لخرق الناموس .. فالمعجزة تتحقق فى غيبة هذه الصلة الافتراضية وبدون حاجة لخرق الناموس .

ثانيهما : واقعة اتصال الله بالبشر وذلك بالتحدث اليهم مباشرة او عن طريق وسيط واقعة مستقلة .. لها ذاتيتها ويجب حتى نؤمن بها ان نتثبت من حقيقة وجودها دون ان ندلل على هذا الوجود بالمعجزة التى حدثت ..

ذلك لأن الاعجاز الذى يأتيه البشر لا يعنى ان الله قد اتصل بهم وأملى عليهم معجزته .. فاذا كانت الأديان قد اعتبرت بعض الكتب معجزة وبعض القدرات كشفاء المرضى واتيان بعض الخوارق معجزة .. فهذا لا يعنى مع افتراضها كذلك أن الله قد اتصل بهؤلاء البشر ليلهمهم اياها .. مثل هذا القول يؤدى بنا الى طريق تحفة الحيرة .. والغموض والاشواك .. فماذا لو ادعى احد العلماء أن اختراعه ملهمة الهمه الله اياها وماذا لو سار فى الطريق لنهايته وادعى النبوة طالبا من الغير أن يأتى بمثلها وماذا لو عجز هذا الغير !! هل نعترف بمثل هذا العالم نبيا مرسلا ؟! مثل هذه الاستنتاجات تجرنا فى النهاية لمتاهات تضيع فيها ومضة العقل البشرى ليتحول الى قطعة من الصفيح الصدىء .. ويتوه داخل اللا معقول .. لذلك فيجب للتثبت من صدق الادعاء لقيام مثل هذه الصلة المفترضة بالله أن يثبت بدءا ذى بدء حقيقة هذه الصلة .. وصحة وجودها لا أن يفرض على الانسان الايمان بها متحاجا فى ذلك بالمعجزة المتمثلة فى الاختراع أو الاكتشاف او ابراء الاكمة او كلمات منظومة .. بل ويذهب إلى ابعد من ذلك فيفرض على الانسان الولاء والايمان بأمور أخرى هلامية لا يفهمها العقل ولا يستسيغها المنطق .. بحجة أتصال هذه الأمور ببعضها وارتباطها ارتباطا وثيقا .. مثل هذه الدعوة لهذا النمط من الايمان المفروض يترتب عليها حظر مناقشة كل قضية على حدة .. ووضع العقل فى دائرة اختيار ضيق .. فليس أمامه سوى أن يتقبلها ككل او يرفضها كلها دون أن يكون له الحق فى تجزئتها .. ومناقشة كل قضية منها على حدة .. رغم أن كثير من هذه القضايا لا يمكن الايمان بها ايمانا عقلانيا نابعا من الاقتناع .. مثل هذا الارتباط الظالم يوصل الانسان لقمة عجزه .. وحتى لا نخوض فى بحر ظلمات الوهم الأزرق اللعين نضع السؤال الجوهرى .. قلب الموضوع على منضدة العمليات لنشرحه بمبضع الحقيقة .. هل الكتب السماوية من عند الله ؟؟؟؟

اذا كانت الاجابة بالايجاب فكل ماجاء بالكتب السماوية من تأليف الله .. هو المؤلف العظيم ...وما الانبياء الا مستقبلين .. ولأن الله كامل لا يخطىء .. اذن فكل ماجاء بالأديان من احكام واجبة الطاعة .. والطاعة العمياء ومن ثم لا يصح ولا يجوز نقاشها .. ويجب الاخذ بها فى كل التشريعات الوضعية .. كل صغيرة وكبيرة .. ومنكرها متمرد على قانون الله وجب عقابه .. وسحقه .. هذه الأحكام كل لا يتجزأ .. وحدة واحدة واذا كان هذا كذلك .. واذا كان ما ورد بها من أحكام ليست سوى قوانين املاها الله على البشر فيمتنع بالتالى على الفكر الانسانى نقدها أو تشريحها انما كل ما يستطيع حيالها ان يفسرها دون الخروج على نصها .. ومن ثم فيحظر على العقل البشرى نفى تنزيل الكتب السماوية .. وبالتالى تصبح أحكامها أبدية لا تغيير فيها ولا تبديل .. باعتبارها احكاما مثلى لقضايا الانسان لا تقبل الجدل والنقاش مثلها فى ذلك مثل القوانين العلمية التى رسخت قوانينها .. والسؤال الجوهرى .. الانسان أسمى المخلوقات .. اختص دون غيره من المخلوقات بميزة الاختيار .. أى حرية اختيار البدائل .. ومن خلال هذه الميزة استطاع ان يختار افضل البدائل .. فحقق غزو الفضاء وكثيرا من الاكتشافات العلمية القائمة على قوانين ثابتة تتحكم فى مسار الكون .. خلال هذه الاكتشافات طوع الانسان العلم لخدمة اغراضه وفى تطوير أسلوب حياته .. والتغلب على مشاكله من أجل حياة افضل .. وتحقيق أكبر قدر من السعادة .. والأديان استهدفت ايضا سعادة الانسان من خلال أحكام جاءت بها الكتب السماوية .. بعضها شاملا لكثير من مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبعض الآخر ركز على القيم الروحية .. لكن فى النهاية يبقى الهدف لكل من العلم والدين واحدا وهو سعادة الانسان فالكتب السماوية ليست سوى صيغة ارتأتها الأديان لتحقيق حياة افضل للانسان .. بمعنى اشمل هى وصلة الهمز بين الانسان وغايته .. أى انها وسيلته .. اذن فالعلم أو الدين ليسا غاية فى حد ذاتهما بل وسيلة لتحقيق الغاية وهى سعادة الانسان .. بمعنى انه لو لم يطأ الانسان الأرض لم يكن ثمة داع لرسالة الأنبياء أو العلماء لان هذه الرسالة

يجب لقيامها أو للبدء فى الدعوة اليها وجود الانسان الذى تصله هذه الرسالة بدون هذا الانســـان يضـــيع هدف الرســـالة ومعناها ومغزاها .. لذلك فلا يمكن والحال هكذا مهما عظم شأن هذه الرسالة أن تكون الوسيلة فى أى وقت من الأوقات أعظم واجل من الغاية وهى الانسان .. وبالتالى لا يمكن أن تكون الكتب السماوية غاية فى حد ذاتهـــا .. لأنها بذلك تفقد معناها بل وسبب استئنانها بغيبة عنصر الانسان عنها .. بل وتصبح اهم واقدس من الانسان التى شرعت من أجله .. وليصبح الانسان بهذا المعنى مجرد وسيلة قطعـــة شـــطرنج على لوح الأديان .. وهـــو ما ينكره الواقع .. ويدمغـــه الحادث .. فشعوب بأكملها لا تدمن الأديان ومع ذلك لم تنهار حضارتها ولم تتقوض دعائم بنيانها .. لأن الأديان وكتبها ليست سوى وسيلة لا غاية .. ولأنها وسيلة فحسب فقد استعاضت عنها تلك الشـــعوب بالعلم فازدهرت حضارتها وتقدم انسانها . هذا معناه ان احكام الأديان ليست ســـوى قطع شطرنج على مربع الحياة يمكن فى أى وقت من الأوقات استبدالها بصيغة أكثر نضجا واتساقا مع العصر . محصـــلة القول أنه اذا كان هدف أحكام الأديان فى النهاية هو الانســـان .. أو ليس من حق هذا الانسان مناقشـــة بنود مايراد احتواء عقله به .. أو ليس من حقه أن يبحث جدوى تطبيق مثل هذه الأحكام على مسـار حياته وان يختار منها ما يناسب ظروفه وان يرفض ما عداها .. ان التطور واحد من أعمدة قوانين الكون التى يكتشفها الانسان فهل تتفق المناداة بالاحتماء فى احضان الأديان بأحكامها المنزلة !! والتى لايصح ولا يجوز تعديلها أو تغييرها .. هل تتفق مثل هذه الدعوة مع التطور ؟!

ثم اذا كان النص الوارد فى الكتب السماوية وسيلة لاسعاد البشر من أجل حياة افضل .. أو ليس للانسان وهو حقل تجارب مثل هذا النص أن يدرس ويحلل معانيه ومنطوقه وحيثياته ليعرف جدواه وصلاحيته للتطبيق حتى لو أدى الأمر لرفضه ولا ادل على صحة ذلك قضية اباحة الرق فلو انتهينا بالتسليم بهذه القضية ومثلها كثير لعنى ذلك العودة لاحضان عصور التخلف .. ودفن للعقل الجماعى والفردى فى مقبرة البدائيـــة .. بل وهدم دعامة الحرية ..

والمناداة بمشروعية ما ترفضه بل وتجرمه المجتمعات الآن .. لكل هذا يجب أن يكون للعقل البشرى الحق كل الحق وهو يبحث عن سعادة البشر أن يناقش جدوى أى نص بعد أن يتعمق معناه ويدرس أبعاده حتى يقرر صلاحيته لا فرق فى هذا بين نص وضعى وآخر سماوى ..

وبالتالى فلا يتحصن أى نص مهما بلغت قدسيته بمقولة أنه سماوى « لا يقصد هنا اللون » .. لأن التخفى خلف هذه الحجة كالتخفى بقلنسوة الاخفاء ..يعتقد مرتديها أنه اختفى عن العيون رغم أنه مرئىومرصود .مثل هذا التخفى الخادع يدفع بالانسان الجاد أن يسأل السؤال الذى سبق أن أثرناه .. هل هذا النص من عند الله أم هو من تأليف البشر .. والانسان سيجد نفسه مضطرا للأجابة عن هذا السؤال قبل الخوض فى بحر الظلمات اللعين ..

أولا — لأن نتائج كثيرة سترتبها الاجابة عن مثل هذا السؤال العويص ذلك لأنه اذا كانت بالايجاب فعلى الانسانية جمعاء الالتزام بكل كلمة وحرف .. وإذا كانت بالسلب فللانسان حريته الكاملة فى رفضها كأسلوب للحياة أو قبولها .. لا قيد على حريته الا ما يمليه عليه عقل المجتمع ..

ثانيا — ان مناقشة قضية تنزيل الكتب السماوية بالتحليل والرأى الدارس باتت ملحة بعد ان اغلقت على العقل الجماعى النوافذ واوصدت دونه الأبواب ولم يعد ثمة وسيلة لتنقية الهواء الفاسد سوى ثغرة نطل منها على الحقيقة خلف جدار الخوف ..

ثالثا — أن فتح تلك الثغرة بمعول الجدل والنقاش من شأنه ان يثرى الحركة الفكرية برأيان متعارضان يطرقان الحديد وهو ساخن .. يطرحان أبعاد القضية وأدق تفاصيلها على بساط البحث .. يشرحان جسدها المنهوك .. لنتبين فى النهاية اس الداء .. ولنبتر بمبضع الحقيقة الآفة الشريرة .. فمن المرض الى الشفاء .. ومن الشك الى اليقين .. سواء كان هذا اليقين مع أو ضد للرأى القائل بالتنزيل وننتهىبهذا الى ثورة فكرية .. ريح صرصر عاتى تسقط كثيرا من أوراق الخريف المتمثلة فى الخرافات التى عاشت قرونا تلوث طهارة العقل الجماعى .. يد عفية تزيح عن كاهل الحقيقة

المستذلة رداء الوهم الذى وصل فى بعض الأحايين الى حد اليقين .. واكتسب من كثرة ترديدها والخشية من معارضتها حصانة التسليم .. ان الخوف الذى عشش على الفكر الجماعى بانسجته العنكبوتية والذى دعمه الاتهام المشرع بالردة والكفر والالحاد والتهديد باهدار الدم هذا الخوف دفع الفكر الجماعى الى الارتماء فى أحابيل الخرافات .. او الوقوف موقف المتفرج مصمصما الشفاة عاجزا .. ساخطا حتى على نفسه .. والنتيجة اظلام الجانب المضيء منه .. فمن من هؤلاء المفكرين يملك شجاعة المواجهة ولا يخاف اهدار دمه على احدى النواصى ؟!

— نعود بعد هذه الاستطرادة الى سؤالنا الخطير .. المجازفة الكبرى هل الكتب السماوية منزلة من عند الله ؟! ..

لا يختلف احد على أن هذه الكتب كانت وستبقى دستورا لشرائع قامت على صحائفها حضارات عريقة مازالت اعلام بعضها ترفرف حتى الآن .. لكن أمام الباحث لمناقشة هذه القضية شرك هائل وضعه بعض رجال الدين المتحذلقين ..والمتعصبون الذين يحورون صدق الكلمة والتعبير عنها الى الحاد وكفر .. رغم ذلك فليس امام الباحث الدارس طالما قد ارتأى التصدى لمثل هذه القضية الشائكة ليس امامه سوى أن يطرحها بكل ابعادها .. يعريها بالصدق .. ويشرحها بمبضع الحقيقة ليكشف مكنونها للعقل البشرى من خلال الايمان فانه لا يوجد قضية فى الوجود مهما بلغت قدسيتها يحظر على العقل البشرى مناقشتها لأنه اذا كنا قد فتحنا الباب على مصراعيه أمام قضية وجود الله فما بالك بما هو ادنى .. لذلك وحتى يثمر الحوار ثمرته المرجوة علينا أن نبدأ بالأمور التى لا يختلف حول صحتها أحد :

أولا — الاختيار يكفل للانسان الحرية فى اختيار معتقده ومناقشة أموره العامة منها والخاصة سياسية كانت أو دينية .. اقتصادية او اجتماعية .. انسانية أو علمية .. فردية او جماعية .. بحيث اذا امتنع عليه مباشرة اى من هذه الحقوق المكفولة له تحت اية حجة مهما عظم شأنها وجل مقامها فقد أهدرنا حقه فى الاختيار الذى كفله له وجوده الانسانى ..

وبالتالى فلا اجبار على اعتناق دين أو المنـــاداة بمذهب أو الأدلاء برأى .. فالارادة التى يشوبها الاجبار أو الاكراه ارادة منعدمة لا وجود لها .

ثانيا ـــ اعتناق دين أو مذهب معين مبدأ يقرره الاختيار الفـــردى .. والعمل بشريعة ما أو تحت ظلال قانون معين لمجتمـــع ما مبدأ يقرره الاختيار الجماعى من خلال قاعدة الأغلبية والتزام الأقلية بقرارالاغلبيـــة .. اذن فلا عجب أن يختلف الاختيار الفردى من واحد لآخر .. والجماعى من مجتمع الى آخر فما قد يراه أحد المجتمعات خطأ قد يراه الآخر صـــوابا .. لهـــذا فلا عجب أن نرى هذا الاختلاف الواضح فى بنيان الأنظمة الاجتماعيـــة التى تحكم المجتمعات وكذا بين الأفراد داخل البنيان الاجتماعى الواحد .

ثالثا ـــ شرائع الأديان أصبحت الآن وفى اغلبها كسيـــحة عن ملاحقة التطور المذهل للبشرية .. وقد فطنت كثير من المجتمعات الى هذا المفهـــوم فجاءت شرائعها خلوا من احكام كثيرة نادت بها تلك الأديان وهذا هو حقها النابع من الاختيار الجماعى .

رابعا ـــ الانسان فى حقيقة الأمر حالة اجتماعية داخل الفصيلة الواحدة ولكل حالة قدراتها وامكانياتها التى تميزها عن الحالات الأخـــرى من خلال حركتها داخل قانون عام ينتظمها ..والعباقرة ليسوا بخوارق.. لأنهم كباقى البشر يعبرون كل فى نطاقه عن حاله ليســـت فى واقع الأمر ســـوى ترجمة لقدراته الخاصـــة والتى تميز بها عن غيره .. يســـتوى فى ذلك العالم .. الأديب .. المصـــلح .. المخترع .. النبى كلهم خوارق لكن فى أذهاننا فقط أما الواقع فهم كسائر البشر يطبق عليهم قانون الله بمساواة مطلقة من خلال قانون خاص لكل حالة على حـــدة والتفرقة ناتجه عن اختلاف كل حالة عن الأخرى داخل اطار القانون العام الذى لم يترك صغيرة او كبيرة الا ونظم لها قانون حركتها .

خامسا ـــ ايمان الرســـل بان الله قد اختارهم لحمل الرســـالة دعمه وثبته اعتناق الناس لتلك الرسالات بل لقد اصـــبح ايمانهم هو المعبر بين تردد الرسل فى الافصاح باتصـــالهم بالله وبين اعتقادهم الكامل بوجود هذه

الصلة .. هذا الايمان هو الذى هز ما بقى من ثمار الشك على شجرة اليقين .. لكن الذى لا جدال حوله انه لم يتم حديثا ماديا بين الله وبين اى انسان من خلال تساؤلات عدة ..

ـ كيف كان حديث الله .. صوت له ذبذبات أم الهام صامت كالهام الكتاب والشعراء .. واذا كان الحديث بصوت .. فكيف بهذا الصوت ؟ .. وكيف بالقائه ؟ .. وباى لغة ؟ .. ومن قائله .. الاله .. أم احد اتباعه من الملائكة يسمعه المتلقى دون غيره .. يتلقاه باذن اليكترونية خصه الله بها يفهم الاشارات الخفية ليترجمها على الفور من اللغة الالهية الى اللغة التى يتداولها مجتمعه .. بل وفى قدرته أيضا ان يرى ما يعجز البشر عن رؤيته الملائكة .. والشياطين .. والجن . مثل هذه الصور لا تستقيم الا مع فرضين احدهما .. ان يكون للانسان الرائى عين تليفزيونية تستطيع حدقتها تلقى صور العوالم الخفية دون غيره من المحيطين وثانيهما .. ان تكون الرؤية رؤيا تخيلية ليس للعين فيها دور يذكر من خلال تخيلات أو احلام يقظة . أن القانون الذى ينظم كافة المخلوقات قانون كامل متكامل .. له فروعه الكثيرة التى لم يلم بها ككل اى انسان بعد .. بل ان الانسان فى صورة عالم أو مخترع أم فنان لم يكتشف من هذه القوانين سوى ذرة صغيرة فى محيط هذا الكون .. ومازال حتى الآن يتعثر لاكتشاف فروع هذا القانون فى صورة مخترعات ليست فى الحقيقة سوى اكتشاف لقانون قائم ..

ولو نظرنا الى الرسل وما قدموه للانسانية نجد أنه من الظلم ان نغمطهم حقهم .. فقد استطاعوا اثراء الحياة الانسانية فى بعض حقبات التاريخ .. ولكن بقدر ما استفادته البشرية من تطبيق ما نادوا به بقدر ما اضيرت نتيجة فترات الركود الانسانى التى مرت بها المجتمعات .. فلى عصر النهضة كانت المجتمعات شرنقة للدين من خلال سيطرة رجال الدين .. الى أن خلع الفكر تلك الشرنقة ومزقها لتدب فيه الحياة بآراء المفكرين والفلاسفة والعلماء .. وتقدم بعض البلاد التى تعتنق الأديان فى بعض حقبات التاريخ .. ليس مرده للدين فى حد ذاته او الاستمساك بأحكامه بل سببه نظام الحكم والقائمين عليه ورغبة الحاكم فى الاصلاح وتفويض أركان

الفساد والافساد نعود بعد هذا لسؤالنا .. هل الكتب السماوية من كلام الله ؟! لو امعنا العقل والفكر لوجدنا ان للكتب السماوية ركزت جل اهتمامها على الحلال والحرام فى صورة آيات متفرقات تربطها فكرة الاثابة والعقاب لكنها لم تكون نظرية محددة .. انما أحكام متناثرة متفرقة من خلال اوامر ونواهي وتعريف بقصص الأولين .. جاءت بعبارات عامة غير محددة .. وبكلمات مبهمة .. تهويمية .. وبوقائع يقف العقل البشرى عاجزا أمام معانيها .. الغرابة ما تسرده .. بل تحول العقل الانسانى الى أكلة شهية تلتهمها الخرافات والخزعبلات .. فالعالم الخفى الذى يعيش وراء ظهرانينا والمتمثل فى الملائكة والجن والشياطين وملكهم العظيم ابليس لم تقدم لنا الصحائف الدينية دليلا على صحة وجودهم الا ما سطر .. ولم يثبت بالعلم او نظرياته على مدى القرون الطويلة وجود مثل هذه الأشكال الغريبة .. ولم يحدثنا أحد عن شكل هذه المخلوقات الا ماورد من أوصاف مادية .. فالجن من نار والملائكة من نور .. هذه الأوصاف المادية التى وصفت بها هذه المخلوقات تثبت بما لا يدع مجالا للشك خطل القول بوجودها .. فالجن مخلوقات من نار .. والنار مادة والمادة يمكن رؤيتها والاحساس بها حتى ولو كان مصدرها خافيا علينا .. اذا كان هذا كذلك فلماذا لا نرى تلك المخلوقات ؟! ثم لماذا لا نستشعر لفح حرارتها اذا تعذر علينا رؤية مصدرها !! والسؤال اين تقطن تلك المخلوقات .. هل هى تعيش بيننا .. أم ان لها كما قيل فى سالف العصور تحت الأرض مملكة تقطنها وتمارس فيها حياتها من زواج وتناسل وطعام وشراب وعمل . ان العجز البشرى فى الاجابة عن مثل هذه الاسئلة الصعبة باقناع واقتناع .. وايراد الأدلة والبراهين العقلية يدفعنا الى الشك فى وجود مثل هذه المخلوقات الغريبة خاصة وأن الكتب أحجمت عن وصف هذه الشياطين اشكالها وأحجامها وأبعادها .. هل هى لسان من لهب ام انها نار فى شكل انسان أم فى شكل حيوان العصور المتقدمة كالتنين .. أم ماذا ؟! ..

ثم الملائكة التى هى من النور .. واذا كان السؤال كيف هى ؟! .. نور الشمس أم المصباح الكهربائى أم مصباح الزيت ؟! .. فاين هى الاجابة ؟!

ثم كيف باشكال هذه المخلوقات النورانية .. طويلة .. مستطيلة .. شعاع منرطح أم طيور .. وهذا الوصف الأخير هو ما درجت بعض الصحائف على وصفها به .. ولماذا على هيئة طيور ؟! حتى تتمكن من التحليق فى الجو .. لأنه لم يكن احد ليتصور فى العصور المتقدمة ان فى قدرة مخلوق التحليق الا اذا كان بجناحين .. لذلك فلم يكن أمامهم سوى هذا التصوير المادى الذى صور الملائكة على هيئة طيور بجناحين او ستمائة جناح مرصعة بالجواهر. .رغم أن زينتها بتلك الجواهريستلزم معها ماديتها بل ويعوقها عن الطيران .. والأدهى من ذلك ان نجد فى من يعتنق مثل هذه الأفكار التهويمية بل ويؤمن بها ايمانا راسخا كالايمان بالصاروخ والقمر الصناعى بل ويزيد عليها القول بأن الشياطين والملائكة لها القدرة على التشكل الى حيوانات وطيور وافاعي (بل وتصدر بها أحكام قضائية) .. محنة واى محنة ان يعيش الناس مثل هذه الأفكار وان يتداولها لأنها تعنى الموات الفكرى .. وابليس هذا المتمرد على الاله والذى رفض السجود لآدم وتركه الاله طليقا عابثا فى مقادير الناس يوسوس لهم الشر ولمن ؟! لمئات الملايين من البشر وفى وقت واحد .. نقول مثل هذه الخزعبلات ونعتنقها ولنهدر دم الحقيقة الرابضة على مدخل التحليل العلمى العلمى للغرائز البشرية من خلال علم الاجتماع وعلم النفس وفروع علم الانسان المختلفة التى ليس من بينها هذا الابليس الملعون الذى يوسوس للناس ولكن هل يعنى عدم صدق تلك القضايا وعدم اتساقها مع العقل هل يعني هذا انكار تنزيل الكتب السماوية ؟! بالقطع ؟ .. أذن فالاجابة بعد لم يكتمل .. نضطر معها الى اثارة سؤالنا القديم هل الكتب السماوية من عند الله ؟ ..

أولا ـ الاستدلال بنص ورد فى واحد من الصحف الدينية لاثبات تنزيلها من لدن الله ليس دليلا قاطعا لا يقبل الجدل لأنه اذا كان الدارس اصلا يبحث فى صحة تنزيل الكتاب برمته من عند الله فكيف تلزمه بقبول أحد نصوص هذا الكتاب حجة يحسم بها القضية لصالح القائل بتنزيله .. بمعنى آخر اذا كان الباحث ينكر أصلا تنزيل هذا الكتاب ككل .. فكيف نحتج عليه بنص ورد فيه بقبول بتنزيله !! ..

ثانيا ـ وسائل الاتصال بين الخالق والرسـل والتى قيل انها كانت تتم مباشرة بالكلام أو عن طريق وسيط اثناء اليقظة أو اثناء النوم عن طريق الاحلام مثل هذه الوسائل مشكوك فيها .. ولا يمكن ان تؤدى بنا الى حقائق يقينيه .. ذلك لأن ميلاد الحقيقة اليقينية يستلزم معها أدلة علمية أو عقلانية وهوما نفتقده فى تلك الوسائل ..

ثالثا ـ التجاح بالمعجزات فى الكتب الدينية لاثبات تنزيلها من عند الله لم يعد حجة حاسمة لا تقبل الجـدل فلا يعنى وجود المعجزة « على فرض كونها كذلك» اتصال الله بالرسل لتحقيقها ..ذلك ان ربط المعجزة بالاتصال ربط ظالم لأن وجود المعجزة لا تعنى الاتصال .. وان كان تمام الاتصـال يحمل معنى المعجزة .. وطالما اننا عجزنا عن اثبات تلك الصلة فلا يجوز أن نحتاج بالمعجزة التى يمكن ان تحدث فى غياب تلك الصـلة فالداعر القسيس را سبيوتين حقق معجزة الشفاء لكنه لم يدع النبوة أو الصلة بالله ودستور بوذا لم يدع صـاحبه أنه كتاب موحى اليه به رغم انه ضـمنه كل تعاليم الأديان .. ومعجزات العلم والنظريات والمخترعات .. لم يدع أصـحابها بوجوده هذه الصـلة المزعومة رغم اعجازها .. فضـلا عن ذلك فقد فقدت المعجزات التى تمت على أيدى الرسل رونقها وبريقها الخاطف للابصار .. ذلك القزم الذى يقف أمام عملاق العلم يستعطفه ويستجديه .. فأين مكان انفجار هورشيما من طوفان نوح وأين زرع القلب والمخ والاعصـاب من معجزة شفاء المرضى .. وأين الصعود للقمر من بلاغة النص .. « ياناس اختشـو » ..

رابعا ـ التضارب فى الأحكام التى اتت بها صـحائف الأديان يدفع الباحث للتسـاؤل .. اذا كان الله واحـدا فى الأديان جميعها .. فلماذا هذا الاختلاف الصارخ بين نصـوص هو الذى قام على تاليفها .. ولماذا التثليث والوحدانية فى نفس الوقت .. كيف يصـبح الزواج بأكثر من واحدة زنا .. وكيف يباح فى نفس الوقت .. كيف يصـبح الطلاق محرما ومحللا فى وقت واحد .. كيف تؤدى العبادات بأسـلوب يختلف من عقيدة لأخـرى .. ما الحكمة أن يتناقض الاله مع نفسه وهو يملى تلك الأحكام .. وهو القادر

اساسا على اعطاء الحكم الأمثل ؟! فهل مرد هذا الاختلاف والتباين فى الأحكام تعدد الآلهه أم سببه اختلاف مناهج قائلية من البشر ؟؟

خامسا ــ الله قانون كامل .. فكيف يحتوى قاموسه على كثير من الأفكار الخاطئة والتى نسخت بغيرها بمقولة امكان تناسبها مع الظروف الجديدة .. أفليست هذه حجة يمكن أن نسوقها الآن لاستبدال الأحكام الكائنة بأحكام جديدة تناسب العصر ؟؟ ثم اذا كانت الأفكار المنسوخة بغيرها .. افكارا ناقصة فهل من المتصور أن تكون احكاما كاملة ثابتة فى قانون الله أم أن الحقيقة تكمن فى البشر الذين قاموا على تأليفها .. وبالتالى تصبح أحكاما قابلة للخطأ والصواب .. قابل للتعديل والتغيير وهذا ما يؤيده الحادث وما يؤثره المنطق ..

سادسا ــ كيف يمكن لعقل دارس تصديق أن قاموس الاله يحتوى كل هذه الخرافات المدونة دون أن ينكفأ مرات ومرات الى أن يعتريه الهزال والسأم .. والخلل العقلى .. والاضطراب الذهنى .. هل يمكن أن يصدق ان الله يأمر رسوله بالبحث عن بقرة لها اوصافا معينة ليذبحها ثم يأخذ منها جزءا يضرب بها ميت ليستيقظ ويشهد على من قتله ثم يموت من جديد او أن بحرا ينشق ليسير فيه القوم حتى اذا ما نجوا انطبق البحر على الكفره !! او الصاعقة التى أخذت قوم نبى ليتم بعثهم من جديد .. الأمثلة كثيرة تؤدى العقل الى قمة عجزه . البعض يتحدث عن نظريات الفضاء والبعض الآخر مازال يبحث عن نظريات الأديان ..

سابعا ــ ما اوردناه لا يعنى رفض المعجزة فالمعجزة لابد وأن يكون لها اساس علمى .. ترتبط بنظرية كونية او انسانية ولا تأتى من فراغ لذلك فالخوارق مرفوضة .. الا اذا كان لها قانون لأن الخوارق بدون قانون تعنى الفوضى .. واذا ما اعتبرنا ما اتاه الرسل خوارق ينتظمها قانون .. فلماذا توقفت لماذا لم تتكرر ؟! واذا قلنا أنها خوارق لا تتكرر ولا ينتظمها قانون فهى الفوضى اذن التى يعف عنها قانون الاله .

وفى النهاية .. الله كقضية عقلية .. كامل متكامل قانون للكون والحياة للقانون الأمثل .. ولهذا لا يمكن أن يضـــم مثل هذا القانمن الأمثل احكاما معيبة أو ناقصـــة فاذا كان الله كاملا .. فكل قوانينه كاملة وكل القـــوانين التى يكتشفها الانسان من صنعه هو .. لأنها قوانين كاملة .. واذا كان هذا هو نهاية مطاف الحديث .. واذا كنا قد انتهينا ايضا الى ان كثير من الأحكام والقضايا والأقوال التى اشارتها الأديان خاطئة أو ناقصـــة او لا عقلانية .. فكيف يمكن أن نعزوها الى قانونه الكامل .. فكيف بالكامل ينادى بالناقص او للخطأ ؟!

الجريمة .. والعلاج

اذا كنا نرفض الجنة والنار .. واذا كان الحديث عنهما تماما كأحاديث الخرافات .. التنين الذى ينفث نارا والوحش الخرافى الذى يضرب بقبضة يده عمارة فيحيلها انقاضا والثعبان الضخم الذى يبتلع مدينة بأسرها .. اذا كنا ننكر الجنة والنار .. فما هو اذن جـزاء من يفعل الشر خاصة اذا لم ينله عقاب القانون الوضعى ؟!

قاعدة الاثابة والعقاب ليست سوى قاعدة تاريخية قديمة ألقى ببذرتها العقيمة عقل كهنة المجتمع القديم فى ارض الفكر الجدباء نتيجة عجزها عن استنباط نوع جيد من البذور يتحمل العطش وندرة الماء وقسوة التربة .. ايضا بسبب عجزها عن استنان قاعدة انسانية بموجبها يتحقق التوازن بين افلات الفرد من العقوبة الدنيوية وبين ضرورة مجازاته على ما أرتكب من أفعال تجرمها الأخلاق السائدة فى المجتمع آنذاك .. نتيجة هذا العجز لم يجد العقل البشرى امامه سوى المناداة بأن المخطىء سينال جزاءه حتما فى الدار الآخرة اذا ما افلت من العقوبة الدنيوية .. وانتقلت بهـذا فكرة العقوبة من أرض الواقع الى سماء الغيبيات .. والتهويمات .. هذا التحديث والتحوير الذكى لم يكن وليد الصدفة بل هو نتاج تاريخ طويل قام فيه الكهان بغرس بذور فكرة العقاب الأخروى تدعيما لقوتهم وسلطانهم .. واقترنت فكرة العقاب بالاثابة ايضا فمن يعمل شرا سيجنى فى الآخرة شرا .. ومن يعمل خيرا سيحصد مثله ..

واستلهم الحكام والاشراف تلك الفكرة الذكية لوضع قانون ظالم فى ثوب قانون عادل فالمجرم الذى لم ينله القانون مآله النار خالدا فيها أبدا .. والمظلوم الذى عجز عن الحصول على حقه مصيره الجنة .. قانون ظالم لأنه يعنى استسلام المظلومين للقهر املا فى جنة موعودة .. وعقاب اخروى لن يفلت منه الظالم .. الظلم واقع ملموس .. وامل العدل وهم فى خلود . من

هذا المنطلق بدا الاستسلام ينصب شراكه على العقول أملا في الجنة الموعودة وكانت القدرية أولى ثمار هذا الاستسلام .. الذى انتهى الى امتطاء الأشراف والأثرياء ظهور الفقراء بالقوة والسلطة والسوط بدعوى أن هؤلاء الأشراف والأثرياء الذين عاثوا فى الارض فسادا ولم يردعهم قانون أو اخلاق .. وتحصنوا من عقاب الدنيا .. هؤلاء سيحيق بهم العذاب الأكبر يوم القيامة الموعود وتحصولت قاعدة الاثابة والعقاب هذه على يد الكهنة ورجال الدين فوضعوا لها الحواشى والهوامش وكان أن تشوشت الرؤيا .. وضاع مفهوم العقاب وفلسفته . أن فلسفة العقاب الدنيوى تعتمد على عنصرين :

أولهما : عقاب الجانى لردعه وثانيهما : تحذير الغير من ارتكاب نفس الفعل المجرم .. العقاب هنا يعنى الانتقام من الجانى وبالنسبة للغير يعنى الوقاية . قاعدة العقاب هذه قديمة قدم الانسان أخذت بها المجتمعات المتخلفة والمتحضرة لدرجة أنه لا يخلو تشريع وضعى من قانون للعقوبات .. ورغم أن هذه المجتمعات تعتبر هذه القاعدة ضرورة لا تستقيم بدونها حياة المجتمع الا انها فى الواقع قاعدة متخلفة غير حضارية توارثتها المجتمعات دون أن تبحث جدواها واهميتها فى تطور هذه المجتمعات .. عملة رديئة احد وجهيها يمثل الانتقام بكل معانيه .. قديما السارق تقطع يده والعاشق يرجم والقاتل يقتل .. وحديثا الاعدام والسجن والحبس والغرامة .. والوجه الثانى يرى فيه الغير قوة الردع التى تمنعه من الاتيان بأى فعل يجرمه القانون هذه القاعدة بوجهيها باتت قاصرة عن استيعاب النظرية الحديثة التى يجب أن تسود المجتمعات .. تلك النظرية التى تنظر الى المجرم كمريض يجب علاجه لا عقابه من خلال نقاش مستفيض حول قاعدة الاثابة والعقاب وجدواها فى تطوير المجتمعات ، وكذا امكانية الاستغناء عنها لقاعدة العلاج وحتى يتسنى ذلك علينا استرجاع كافة أنواع الجرائم والتى يمكن تقسيمها الى نوعين جرائم جماعية وأخرى فردية .. الجماعية وتتمثل فى الحروب التى تستبيحها المجتمعات بل وتمدها بكل امكانيات التدمير من رجال وعتاد وعلم وتكنولوجيا .. المنتصر فيها بطل والقاتل شجاع والمنهزم مجرم حرب

والقتيل شهيد فى احدى الكفتين .. كافر فى الأخــرى ولا تدرى لمن اعدت نار الآخرة الموقدة هل للمنتصر ام للمنهزم !! أم لهما معا .. وليس تاريخ الحرب ببعيد .. فقد حوكم البعض او على الأصح من تبقى منهم كمجرمى حرب .. والسؤال ماذا لو كانوا هم المنتصرون ؟! بالتأكيد كانوا سيضــعون قادة اعدائهم داخل نفس قفص الاتهام ثم قنبلة هيروشــيما ونجازاكى التى قتلت وشردت مئات الآلاف من المدنيين .. من هو القاتل ؟!

القاتل هو البطل الذى زينوا صدره بالأوسمة !! فاين مكان مثل هــذا البطل بعد ذلك فى الآخرة .. الجنــة .. أم النار ؟! .. ان للتاريخ بشــقيه الحديث والقديم شاهد امين على حروب ومذابح اريقت فيها دماء الملايين وضـاع فيها الحق الا حق المنتصر .. انطوت فيها أعلام ومبادىء وحضــارات .. الا أعــلام المنتصر .. فاقتتال طوائف البشر بعقائدهم المختلفــة ودياناتهم المتعــددة .. أى طائفــة منهم كانت على حق .. وأى منها على باطل . من المخطىء ؟. ومن المصيب ؟. لمن اعدت النار التى وقودها الناس والحجارة ؟ ولمن ستفتح الجنة ابوابها المرصعة بالاحلام والمغريات ؟! كل طائفة مستمسكة برايها تدافع عن حقهــا .. تلقى بحججها .. وفى النهاية الغلبة للأقــوى .. والحق تصونه القوة .. والاقناع يحصنه الانتصار .. وعلى المستسلم قبول حجج الطرف الآخر وشروطه .. وتبقى الحقيقــة فى النهاية تائهــة .. فتاة محجبة لا ترى حتى عينيهــا .. اذا تمزق قناعهــا ابصرت قبح محياها .. وابتسامة ساخرة من شفتيها .. فخلف الحجاب لم يك جمالا أخاذا وسحرا لا يقاوم .. بل الحقيقة .. حقيقة الصراع الدائر فوق حلبة الحياة من خلال مذهب او مبدأ يقينى أو فكرة أو مصلحة لأنه بدون حقيقة هذا الصراع نصبح غرباء على ارض مجهولة رست على احدى شواطئها المهجورة سفينة أبحرت بلا بحار .. بلا بوصله . شاطىء غريب تطاه الأقدام لأول مرة ..وتصبح فكرة الجنة والنار اشبه بتلك الأرض التى لم تكتشف بعد وهادها أو جبالها او كهوف الاخطار المحدقة بها .. بل ويشت الخيال حول اوصافها وتختلف الآراء حول مفهومها .. وتخرس اصوات المنادين بها .. وتتســاقط دموع النسبية لتخمد نارها .. وتسقى اشجار جنتها فتذبل أوراقها .. ولا يتبقى

فى النهاية سوى وجهة نظر . . وجهة نظر كل طرف فى ضحاياه الذين قدمهم على مذبح الحرب . . فقتلى طائفة يدخلهم نبيهم للجنة مع الشهداء والأبرار . . وقتلى طائفة اخرى شهداء فى جنة عرضها السموات والأرض « هل نمى العلم احد وجود مربع أو مستطيل او شكل هندسى بعرض دون طول ؟! » .

وفئة ثالثة تنعم باللذات الروحانية فى جنة وارفة الظلال . . أما هؤلاء الذين لم تصلهم الرسالات . . فمكانهم بعد الموت مجهول . . لا الجنة ولا النار مثواهم وفى النهاية يصبح دخول الجنة والنار مرده الى راى كل فريق حول اشلاء قتلاه . . متقمصين بهذا ارادة الله . . وكل فريق يستشهد على صحة رايه بآيات بينات من كتبه المحكمات . . ولكن يبقى فى النهاية رأى الاله مجهولا حول مصير هؤلاء القتلى . . الجنة أم النار فمن من هؤلاء يؤيده الله فى صف من يقف ويشجع ويؤيد ؟! من ينصف من هذه الشيع المتبعثرة . . ومن يؤيد من هذه الفصائل المتناثرة . . هذه الأسئلة يجيب عليها كل طرف لصالحه . . « باثا للحق » وهكذا تضيع الحقيقة . . وتصبح وهما فكل يدلى برايه لصالحه . . دون ان نعرف على وجه اليقين أين مكان الله من هؤلاء ولا لأى من الأفرقة ينحاز !! . .

واذا ما تركنا هذه الجرائم الجماعية التى لا يحاسب مرتكبيها فى الغالب الأعم الى الجرائم الفردية كالقتل والسرقة والنصب والاحتيال والاغتصاب نجد أن قاعدة العقاب الدنيوية تطبق بحزم وتتلازم معها قاعدة العقاب الأخروى هذا طبعا لمن يؤمن بالأديان . . أى ان القاتل يحاسب فى الدنيا والآخرة بشرط ان تثقل موازينه فتصبح امه هاوية !! . .

وما يعنى الانسان هنا هو الارتباط الوثيق بين القانون الجزائى الوضعى والقانون الجزائى الأخروى . . فكل جرم يعاقب عليه القانون الوضعى يتم داخل نطاق القانون الأخروى . . ولكن ليس كل تجريم أخروى يدخل ضمن جرائم القانون الوضعى . . بل هو اعم واشمل فمثلا السارق يجرم فعله القانون الوضعى وايضا السماوى . . لكن النميمة جريمة سماوية فقط !! سبب هذا الارتباط بين القانون الجزائى الوضعى والقانون

السماوى هو الخشية من حلول الفوضى اذا لم يقم الله بمحاسبة الخطائين عن الجرائم التى لا يجرمها القانون الوضعى او تلك التى يفلت منها المجرم حتى مع تجريمها .. هذا الارتباط الوثيق وهذه الخشـــية هى التى دفعت الكثيرين لاعتناق فكرة الجنة والنار .. فبدونها تحل الفـــوضى .. ويأتى الناس خفية كل الموبقات .. وبالتالى ستتحلل انسجة وخلايا المجتمعات فى غيبة مصل الردع الذى يحصـــن ضـــد كل الأمراض بمعنى آخر اذا انتفى العقاب بشقيه الدنيوى والأخروى حلت الفوضى .. وعم الفساد ..

هذا المفهوم الساذج يحمل فى داخله بذور الشك ذلك ان سيطرة فكرة العقاب الالهى على وجدان بعض المجتمعـــات ليس هو بالضرورة ســـبب نهضتها بل بالعكس قد يصبح أحد أسباب تخلفها .. كما لا يعنى انحسار موج العقاب الالهى عن فكر المجتمع تخلفه او ابتعاده عن ركب الحضارة بل قد تزدهر مثل هـــذه المجتمعات فى غيبة فكرة العقاب الأخرى .. والأمثلة عديدة ومتنوعة .. فبعض المجتمعات يمســـك بالنواجز على صـــيغ الأديان ولكن أين مكانه فى هرم الحضـــارة والتحضر مع مجتمعـــات أخرى لا تعرف قواميســـها كلمة الله ولا تعى معنى الآخرة .. أنها فى اســـفل ســـافلين !! اذن فليس الايمـــان بوجـــود الله او بقاعـــدة العقـــاب الأخـــرى سبب بعث الحضارات أو ارتقاء الأمم .. فالحضـــارة والتحضر أساسها العمل والايمان به .. واستلهام قيما ومبادىء والعمـــل على اساسها .. أما الايمان بوجود الله وبالجنة والنار فقط دون الايمان بالعمـــل ثم التباكى على أسوار الماضى فحصـــيلتها السراب .. واذا انتقلنا الى فكرة العقاب الدنيوية .. نجد أنها فكرة متخلفة .. عملة رديئة كما ســـبق أن قلنا احد وجهيها الانتقام والثانى الردع يمكن اســـتبدالها فى المجتمعـــات المتحضرة والتى تندر فيها الجريمة بنظام العلاج .. فالمجرم ليس سوى انسان مريض دفعه مرضه لارتكاب جريمة مكانه مصح يعالج فيه وليس سجنا باسوار او تصفية جسدية .. يســـتوى فى ذلك القاتل .. السارق .. المغتصب .. المرتشى .. فالكل امام قانون العلاج ســـواء .. ولكن يبقى الســـؤال هل نكافىء الجانى بعلاجه ونترك المجنى عليه او من اصـــابة الضرر .. الاجابة

معروفة مقدما .. نعالج الجانى ونعوض المجنى عليه عما اصـــابه من ضرر وعلى هذا يمكن حصر نتائج للفعل المجرم فى :

١ ـــ عـــلاج الجانى ..

٢ ـــ تعويض المضرور ..

بهذه للنتائج يمكن أن نحقق التوازن بين الجريمة واثرها .. بعد أن ناصلها بقاعدة الاختيار كيف ؟! حرية الانســـان مكفولة ومشروطة بعـــدم الاضرار بالغير .. فاذا ما حدث الضرر نتيجة اتيان فعل حتى ولو لم يكون عناصر جريمة ينص عليها قانون العقوبات .. حكم على الفاعل بالتعويض ثم بالعـــلاج اذا ثبت مرضــــه .. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟! ان تطبيق مثل تلك القاعدة يحتاج كما سبق ان اشرنا الى مجتمعـــات متحضرة تندر فيها الجريمـــة .. وتطبق فيها قاعــــدة للعـــلاج تدريجيا .. ننتقـــل فيها من العقاب الى العقاب ممزوجا بالعلاج ثم الى العلاج بحيث يصـــبح فى النهاية للقاعدة الأولى بالاتباع .

اعادة الشئ لأصله

ـ السؤال الذى يحاصر الانسان الواعى .. هل يوجد خير مطلق وشر مطلق .. للاجابة على مثل هذا السؤال علينا أن نتصفح صحائف التاريخ منذ أن وطىء الانسان الأرض .. لقد كان مفهوم الخير والشر مرتبط آنذاك بالعقلية السائدة .. تلك العقلية التى ارتبطت بغريزة حب البقاء والتى سيطرت على افعال الانسان وردود أفعاله .. لذلك فلم يكن الانسان البدائى يعرف ذرة مما تختزنه البشرية الآن من قيم ومبادىء ومثل فى بتوك عقولها والتى احتاجت البشرية لعصورها وبلورتها لآلاف بل ملايين السنين ، لذلك فلم يكن مستبعدا أن تكون الأم فى أحدى حقبات التاريخ كما كانت الأخت رفيقة الأبن فى فراشه تنجب منه .. كما تفعل بعض فصائل الحيوان .. والتحريم اللاحق لمثل هذه العلاقة بين الأم وابنها أو الأخت واخيها لم تصل اليه المجتمعات الا بعد تطور بطىء وعميق فى الفكر الانسانى حول معنى الخير والشر .. المباح والمحظور .. تطور يستهدف فى النهاية سعادة الانسان وتقدمه .. واثناء زحف هذا المعنى الاسطورى فى غابة الانسانية حاملا سلاح المعرفة تحطمت كثير من المفاهيم الخاطئة لتورق مكانها مفاهيم جديدة لمعنى الخير والشر بحيث يمكن القول أنه يوجد ارتباط عميق بين التطور الانسانى وتطور مضمون للخير والشر لكن مع هذا تبقى حقائق مستقرة كنظريات للعلم لا يستطيع أحد اثبات عكسها الا اذا كان خروجا عن دائرة العقل .. ودخولا لمثلث الفوضى احد هذه القواعد التى يجب الاعتراف بها والسجود لمعناها هى قاعدة الضرر .. والسؤال ماذا تعنى تلك القاعدة ؟ ..

تعنى الامتناع عن اتيان اى فعل يترتب عليه الاضرار بالغير .. ويباح فيما عدا ذلك . هذا المفهوم لا خلاف بشأنه .. ولكن الخلاف حول تطبيقه فهو اذ يتفق ومعنى الاختيار .. اى حرية اختيار البدائل فلا خلاف حول

تقريره كمبدأ .. ولكن الخلاف حول تطبيقه كقاعدة قانونية ما يعتبر من الافعال ضارا بالغير فلا يصح الاتيان به .. وما يباح لأنه لا يسبب ضررا للغير .. هذا الاختلاف سببه تطور مفاهيم الخير والشر من خلال التطور الانسانى أو النضج الحضارى أو العلمى أو الفكرى ففى ظل قوانين أخلاقية سادت مجتمعات قديمة لم تستهجن تلك المجتمعات زواج الأخ من اخته ولا اتيان رجل لزوجة آخر بموافقة زوجها لتهجين النسل !! كذلك لم تجد كثير من المجتمعات غضاضة فى استعباد الدائن للمدين اذا لم يفى بالدين بل وفى عصور متقدمة كان سبى المرأة بطولة واستعباد الأسير ملحمة نادت بها معظم الكتب السماوية !! وفى عصور اكثر تقدما أقر المجتمع الانجليزى زواج الرجل بالرجل بل واستن له قانون لحماية العلاقة الناجمة عن مثل هذا الزواج .. ومع ذلك تبقى الحقيقة الأزلية .. القاعدة الأساسية التى يدور حولها المنع والاباحة وهى قاعدة الضرر .. فيمتنع على الانسان الاتيان بأى فعل ينتج عنه ضررا للغير .. عنصر الضرر هذا هو معيار التفرقة بين الخير الشر بين الخطأ والصواب .. بين الحلال والحرام .. ولكن توجد افعال قد يختلف الرأى حول تقييمها .. خيرا أو شرا .. كممارسة الانسان لشئون حياته الخاصة فى اطار الشرعية الاخلاقية ورغم أن تعبير الخير والشر تعبير واسع مطاط الا انه يمكن القول بلا حرج أن اى فعل مهما كان نوعه لا يلحق الضرر بالغير يدخل دائرة المباح ولا يحظر على الانسان الاتيان به .. هذه القاعدة لن تكن فلسفتها قد تبلورت فى العصور القديمة .. لذلك فلم يكن مستغربا فى عصور سابقة اباحة سبى المرأة ووطئها بالقوة فى الوقت الذى يعاقب اثنان بالغان غير متزوجان بالرجم لمعاشرة رضائية بينهما .. فى الحالة الأولى ضرر بالغ وقع على المرأة نتيجة أغتصابها تقننة التقاليد والعرف السائد .. وفى الثانية شبهة ضرر قد تلحق بالمجتمع لا تستأهل كل هذا الانتقام الوحشى .

معيار الضرر هذا يختلف من عصر الى عصر وكذا يختلف من مجتمع لآخر .. رغم هذا فيجب أن يكون عنصر الضرر أساس التحريم والاباحة فى كل هذه التشريعات .. التى تعتمد الآن على فكرة العقاب .. هذا

المفهوم يجب ان يتناوله التعديل والتغيير لتذاب فكرته القائمة على الانتقام داخل بوتقة مراحل التطور العلاجى .. لتحل فلسفة العلاج مكان فكرة الانتقام .. والعلاج هنا لا يقصد به علاج الجانى فقط بل أيضا علاج المجنى عليه ــ بمحو آثار الضرر بكافة الوسائل ومنها اعادة للشىء الى أصله فاذا تعذر ذلك وجب التعويض عن الضرر الواقع .. ففى السرقة تعاد المسروقات الى صاحبها واذا تعذر ذلك يحكم له بالتعويض المناسب اما بالنسبة للسارق فعلى الدولة أن تقوم على علاجه .. والضرر الواقع على الزوج من مواقعة زوجته لعشيق لها تمحى آثاره أولا بإباحة التفرقة بين الزوجين وثانيا بالتعويض ولا يستلزم لمحو آثار هذا الضرر ما تنادى به الأديان من رجم أو جلد الزوجة والعشيق .. المناداة بمثل هذا الجزاء ليس سوى احد اذيال صور الانتقام الوحشى ذلك لأنه حتى يمكن تطبيق قاعدة الضرر تطبيقا سليما فيجب أن لا يتجاوز ما درجنا على تسميته بالعقاب حدود الضرر فزنا الزوجة ليس بقتل .. وليس من نتائجه ازهاق روح .. فكيف يكون عقابه كعقاب القاتل ..

فى القتل لا يمكن اعادة الشىء لأصله باحياء الميت اذن فلا مناص من تطبيق قاعدة العلاج بشطريها محوا للضرر بتعويض المجنى عليه أو المضرور سواء تمثل ذلك فى الورثة أم فى الدولة .. ويتم هذا التعويض من أموال الجانى أو من استثمار عمله وهو بمثابة اعادة الشىء الى اصله .. ويتم به تحقيق التوازن ثم علاج الجانى وهو الشطر الثانى .. وفى النهاية يجب أن لا يغيب عن الذهن الواعى أن مثل هذا النظام يستلزم حضارة انسانية رفيعة وفكر واعى مستنير ومجتمع شبه فاضل .. يمكن أن يكون ارضا خصبة لتطبيق قاعدة التعويض والعلاج بعكس مجتمعات متخلفة والتى لا تصلح لتطبيق مثل هذه القاعدة عليها والا حدث الاضطراب وشاعت الفوضى ..

اذا تأملنا الحياة بكل تركيباتها .. والمخلوقات بكافة أشــكالها .. والانسان بكل خصوصياته .. نجد أنه يوجد قانون ثابت لا يتغير .. وهو احد القوانين التى ثبتت دعائمها باصـــول العلم والمنطق .. هذا القانون هو قانون الدورة .. او نقطة البداية .. هذا القانون يعنى العودة الى نقطة البداية .. ولسنا هنا فى مجال تقصى الاســـباب والظواهر العلمية ولكننا نناقشها كفكرة ترتبط اساسا بالاختيار .

نبدأ فيها بالبذرة التى تدفن فى الأرض وننتهى أيضـــا بالبذرة التى نجمعها من الثمرة .. لو تأملنا هذه الدورة لوجدنا عجباً .. وأى عجب أن نهيء لبذرة صــغيرة كل ظروف الانبات من تربة وماء ورعاية لتنبت نبات ينتج البذرة التى تبدأ دورة جديدة ..

واذا ما تركنا النبات الى الماء نجــده يتبخر من المســطحات المائية ليتحول الى قطرات تصب من جديد أمطارا تتحول من جديد الى مسطحات مائية ثم الى سحاب فأمطار .. واذا ما انتقلنا للانسان نجد أن حياته تبدأ بقذف حيوان منوى داخل رحم ليلتصق ببويضـــة ينتهى الى جنين ليبدأ حياة تنتهى الى تراب . الأمثلة عديدة .. نلمسها أكثر فى الحقــل الانسانى حيض المرأة .. النــوم .. الطعــام .. الافراز .. حتى الجنس نعود فيه دائما لنقطة البداية .. كلها أمثلة تخضع لنظام الدورة اى العودة لنقطـــة البــداية .. والســؤال الذى يخالج أى فكــر لكن ماذا يتبقى بعد انتهاء الدورة .. ماذا يتبقى قبل العودة لنقطة البداية ؟! هل ما يتبقى من الانسان والحيــوان والنبات مجــرد ذرات تختلط باديم الأرض .. هــل هــذا كل ما يتبقى .. أذن فاللعنة على الحياة .. على كل ما فيها من مدنية وحضارة وتقــدم . أن الذى يتبقى هو القانون الذى يحكم نظـــام الدورة بدايتهــا ونهايتها .. قانون راسخ مرســوم بدقة .. يســيطر بفروعه المختلفة

المتاصلة على كل حالة على حدة .. قانون رائع ينظم علاقات هذه الحالات منفردة ومجتمعة .. قانون باق لا تغيير فيه ولا تبديل .. ينطبق على كل دورة تدورها الأرض .. على الاجرام السماوية .. على الانسان .. ينظم نومه واستيقاظه .. طعامه وشرابه وافرازه .. قانون لا يموت ولا ينتهى بانتهاء الدورة او حتى بموت المخلوقات .. بل يبقى ثابتا .. موجودا .. لا لشيء الا ليرتدى دورة أخرى وتستمر الحياة .. وتستمر المخلوقات باستمرار هذا القانون .. ماذا يحدث لو توقف هذا القانون لحظة .. ستموت الكائنات .. وتحل الفوضى .. لأن ذلك يعنى توقف دوران الأرض وعدم عودتها لنقطة البداية .. يعنى عدم انبات بذرة جديدة .. يعنى توقف حياة الانسان .. توقف المطر .. وفى النهاية تصبح الحياة جرداء لا زرع فيها ولا انسان ولا حيوان .. هذا القانون تخضع له كما أوضحنا كل أسباب الحياة .. ومظاهرها .. نظرية هندسية للكائنات .. تبقى هذه النظرية حتى مع موت الكائنات فموتها يعبر عن مرحلة من مراحل النظرية لتبدأ الحياة من جديد فى صورة أخرى .. او شكل آخر لكن هل يعنى هذا القول وجود الأرواح .. أن الروح بمضمونها الغامض .. وعجز العقل البشرى على مدى القرون الفائته عن تحديد ماهيتها يدخلها فى دائرة الوجود المطلق الذى سبق أن اشرنا اليه .. ويجرنا القول بصحتها او التاكيد بوجودها لجرة الخرافات .. لأنه اذا كانت الروح مجهولة .. ومجهلة للعقل البشرى .. ما هيتها .. نشأتها .. تكوينها .. صلتها بالجسد .. كيفية تواجدها به .. سبب وجودها .. اذا كان كل هذا يدخلها فى دائرة المجهول المطلق .. فكيف اذن نصدر أحكاما .. ونتائج .. وحيثيات لما هو مجهول .. كيف تقرر الاديان أنه لا علم للانسان بالروح وانما علمها عند الله .. ثم تعود لتقول بعذاب من من لا علم لنا به .. مالم يثبت وجوده العلمى أو العقلى ..

لذلك وحتى نخرج من دائرة هذه الروح التى (طلعت روحنا) لا مناص لنا من الالتجاء الى (الدورة) لتبرير وجود الانسان على مر العصور .. فالموت تحول وليس نهاية .. بموجبه تتحول المادة من شكل لتكتسب شكلا

آخر .. فمن خـلايا ودماء وماء الى ذرات تراب ومعادن .. لكن ماذا يبقى وراء خلف هذا التحول .. النظرية هي التي تبقى .. النظرية التى يصـنع على أساسها العلمى ملايين المخلوقات .. النظرية العلميـة التى تبقى رغم عمليات الهدم .. فالموت ليس سـوى عملية هدم .. عمارة تهدم لتصـبح انقاضا .. هكذا الانسان يهدم لتبقى انقاضه .. ولكن نظريته الهندسـية تبقى تماما مثل النظرية التى تنشأ على اساسها العمارة .. قد تهدم هـذه العمارة بعد بنائها مباشرة لخلل فى التنفيذ .. وقد تبقى مئات السنين وهكذا الانسان لا يموت بل يهدم .. مثل الانسان فى هذا مثل اى صناعة تقوم على نظرية علميـة .. فالتليفزيون والثلاجة .. والمصـباح الكهـربائى .. والصـاروخ كلها مخترعات تقـوم علـى نظـريات علميـة .. يتحطم التليفزيون .. ويحترق المصـباح .. وينفجر الصـاروخ .. ولكن تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .. نظرية على أساسها يمكن بناء وحدات جديدة .. وما التطـور الحادث فى مجال المخترعات الا تعبيرا عن التطـور الحادث فى النظرية الانسانية .. الفرق بين كلا النوعين ان تطور المخترعات ورائه العقل البشرى أما التطور الانسانى فبداخله مولد الطاقة .. اى بداخله امكانات وعوامل تطوره .. فالانسان كصناعة معقدة .. من اللحظـة التى ينشأ فيها الى اللحظة التى يتم فيها هدمه هذه الصناعة تقوم على نظرية ترسم كيفية تكوينه .. واسـتمراره .. ثم هدمه .. نقولها عشرات بل مئـات المرات .. الانسان لا يولد بل ينشأ .. ثم الانسـان لا يموت بل يهدم لأن الموت فناء .. وهنا الموت تحول من مادة الى اخرى .. اى انه هـدم .. أذن فالانسان ينشأ بناء على نظرية هندسـية .. نظرية هندسـية يتوالى نشوء الاجيال بناء عليهـا .. تحمل هذه النظـرية فى طياتها بذور او مولد تطورها .. واذا حاولنا التحقق من صـحة هذه النظرية .. نجد أنه توجد وسيلة واحدة لنشوء الانسان وهى .. اخصاب بويضـة الانثى بالحيوان المنوى للذكر .. الجسـد الانسـانى لا يختلف من جسـد لآخر من حيث تكويناته .. ومن حيث استمرار وجوده حتى فى طريقة هدمه .. فالجسـد

يهدم عندما تتغلب أسباب البقاء على أسباب الفناء .. لكن القول بهذا يعنى تشابه البشر .. أى تطابقهم .. وهذا يخالف الواقع ويجرنا الى التناقض !! ان القيمة الحقيقية للانسان هى فى اختلافه .. فاختلاف البشر هو احد الخصائص التى يتميز بها الانسان عن بعض المخلوقات .. وهذا لا يعنى التناقض .. فنشوء الانسان بناء على نظرية واحدة لا يعنى بالضرورة تطابقه مع غيره . فالتطابق هنا فى الديناميكية البشرية وليس فى الخصائص البشرية .. فلكل انسان باعتباره حالة داخل الفصيلة ما يميزه من غيره .. ذلك انه رغم هذا التطابق .. فكل حالة تختلف عن الاخرى .. لكن ماهو سبب هذا الاختلاف البادى بين البشر بعضهم البعض ؟! ..

السبب يكمن فى الخصائص المادية لكل فرد على حدة .. وقبل ان نغوص الى أعماق النفس الانسانية باحثين عن لآلئها نحاول ان نتوقف قليلا على ما عبرناه منذ سطور قليلة .. لقد قلنا ان الانسان يهدم ولا يموت لأن الهدم بقاء وتحول أما الموت فهو فناء .. والانسان بعد هدمه يتحول من مادة الى أخرى ولكنه لا يفنى .. وقلنا ان سبب الهدم هو تغلب أسباب الهدم على أسباب البقاء .. اعداد رهيبة من الميكروبات تحاول هدم الجسد .. وفى مقابلها جيوش من الكرات البيضاء تدافع بضراوة .. الأول بكل اسلحة الدمار .. والثانى بكل تحصيناته الدفاعية الذاتية والخارجية المتمثلة فى العقاقير الطبية والتقدم العلمى .. ويبقى الجسد أرض المعركة والصراع بين قوى الهدم والبقاء حتى تنتصر فى النهاية قوى الهدم .. ليتحول بعد ذلك هذا الجسد الى مادة اخرى .. اذن فالنهاية المحتومة ان تنتصر قوى الهدم . طال الوقت أم قصر هذه هى الحقيقة التى لا مهرب منها .. وليست كما يعزوها كهان الدين لملاك الموت الذى ينتزع الروح من الجسد انتزاعا متى حان الأجل دون ما اسباب والسؤال هل يمكن اطالة عمر الانسان .. نعم بتقوية دفاعات الجسد ضد قذائف الميكروبات .. بل ليس مستبعدا ان يتقدم العلم خطوة .. بل خطوات فى مجال تقوية الأساس البنائى للانسان أى بتهجينه لنجد أمامنا انسانا جديدا يعمر مئات بل آلاف السنين .. وانتصار قوى الهدم ليس سوى تطبيقا لنظرية العودة لنقطة البداية .. لذلك

فمن المستحيل الغاء هذه النظرية .. وابقاء الانسان حيا الى الأبد لأن هـذا يعنى اخلالا جسيما بالنظرية .. يترتب عليه فوضى قد تشـمل كافة مناحى الحياة .. والظواهر الطبيعية من مطر وسحاب ودوران حول الأرض تنتهى حتما الى توقف الحيـاة نهائيـا لو اسـقطنا نقطة البداية من حسـاب حركة الحياة .

لذلك فان نقطـة البـداية ضرورة حتمية لا تسـتقيم بدونها حيـاة الكائنات .. فى غيبتها تتحـول الأرض التى نعيش عليها الى خراب لا ينعق فيها حتى البوم !! وتبدأ نقطة البداية من لحظـة الهدم .. فقطرة الماء تبـدأ دورتها بعد لحظة هدمها اى تبخرها .. اى بالتحول من الحالة السـائلة الى الغازية .. ثم يبدأ ميلادها من جديد بعد أن تتعرض لبعض ظواهر طبيعية .. وهذا يكمل النظرية القائلة أن المادة لا تفنى بل تتحول .. وهو الحادث ايضا فى الجسد الانسانى .. فبعد هدمه لا يفنى بل يتحول .. ويبدأ هذا التحول بعد الهدم مباشرة .. اى ان نقطة البداية تبدأ بعد لحظة الهدم أى الموت .. ولكن كيف تبدأ نقطة البداية فى الجسـد الانسانى .. أن الجسد الانسانى بعد تحلله لا يصـنع منه جسد مباشرة ... وان كان يدخل فى صـناعته أو فى تكوينه بطريق غير مباشر .. فالطفل الذى يتغذى بلبن الأم .. والخلايا التى يبنيها جسده يعتمد فى النهاية على ما تتغذى به الأم من حشائش الأرض اى ان الارض بما تحمله من ماء وغذاء هى المورد الأسـاسى لحياة الانسان .. هى نقطة البداية فى حياة الانسان .. منها تبدأ حياة الانسان .. وبداخلها تدفن بقايا هدمه .. ليس هذا فحسب .. فالجسد الانسـانى ليس مجرد خلايا ودم .. بل هو يحمل بداخله اروع نظرية كونية فى نشأته وفى استمراره وفى هدمه .. نظرية عامة ونظرية فردية .. بناء عليها يتم صناعة جسد آخر .. ولكن كيف يتم ذلك ؟؟ من خلال قانون ذاتى .. ويمكن تصـور ذلك لو أمعنا الفكر فيما هو كائن من مخترعات .. فالمخترعات يتم صنعها بناء على نظرية علمية .. نظرية واحدة لا تختلف من جهاز لآخر .. ويتحطم جسد الاختراع ولكن قانونه يبقى ليصنع منه مئات الآلات وهذا هو الانسـان .. أحدى المخترعات خلفه قانون رائع ينظم حياته بدقة وروعة منذ اللحظة التى يلتصق فيها الحيـوان المنوى ببويضـة الانثى الى الوقت الذى يدفن فى احشـاء

الأرض .. ولكن اذا كان الحال هكـــذا نظـــرية علميـــة كونيـــة تقف خلف الانسان .. فلماذا الاختلاف ؟ لماذا العبقرى والغبى .. لماذا القــوى والضعيف .. لماذا الصحيح البدن والمريض .. لماذا لا يتشـــابه الناس .. لم يختلفون عن بعضهم البعض ؟؟

ان القانون الذى يرسم حياة الانسان قانون صارم .. دقيق لا تفرقة بالاجناس او الألوان .. فالانسان ينشأ نتيجة اخصـــاب بويضـــة الانثى بالحيوان المنوى لا طريق غيره .. وطريقـــة تغذية الجنين .. وتكوينـــه .. وعمل الأجهزة داخل الجســـد .. كل هذا يحكمهـــا قانون واحد لا يتغير من شخص لآخر .. فلم نسمع فى وقت من الأوقات أن الانسان يولد بدون قلب أو رئتين او رأس أو مخ ويبقى حيا .. قانون واحد لا يختلف من شـــخص لآخر .. أذن فما سبب الاختلاف الذى نراه .. لماذا التباين الصـــارخ بين الانســان وأخيه التوأم .. السبب يكمن فى الخصـــائص المادية الذاتية هذه الخصائص يدخل فى تكوينها عنصران :. الوراثة والبيئة .. أحدهما مجنون والثانى عبقرى .. أحدهما قوى والثانى ضـــعيف .. اختلاف واضـــح فى البصمات الانسانية سببها الأصلى الخصائص البشرية ينتج عن انصهارها بالنظـــرية الهندســـية ما نســـميه نحن محمـــد أو على أو ابراهيم أذن :

فالانسان = النظرية الهندسية + الخصائص المادية ..

اى هـ + م = الانسان .

هذا المزج بين القانون الكونى .. والخصائص المادية ضرورة يفرضها اختلاف الانسان عن باقى الحيوانات وسيطرته عليها .. الفرق بين الانسان والحيوان ليس ناتجه الخصائص المادية .. فالحيوان يختلف أيضا عن غيره من جنسه فى خصائصه المادية لكن الانسان يختلف عن الحيـــوان فى نظريته الكونية او الهندسية .. ذلك أن احد خصائص النظرية الهندسية فى الانسان هو الاختيار وهو ما يفتقده الحيوان .

وعلى العلم أن يتعمق داخل النفس الانسانية ليعرف الاجابة على كثير من الاسئلة المستعصية وليعرف الكثير عن هذا المجهول « الانسان » فبداخله

أروع الاجابات العلمية . هذا المزج بين القانون الانسانى أو الكونى او النظرية الهندسية للانسان .. والخصائص البشرية كيف يتم ؟! ومن هو القائم على تنفيذه ؟! أسئلة ستبقى حائرة لقرون طويلة .. لكن الذى لا يقبل الشـك او المناقشة فى صحته .. ان للحياة تحكمها نقطة البداية .. ونظـام الدورة أى العودة الى نقطة البداية .. فالجسـد يعود إلى التراب .. ثم يعود من التراب .. لكن تبقى النظرية الهندسية للانسـان بمعالمها التى أطل عليها العلم اطلالة سريعـة .. تبقى هذه النظـرية بما تحمله من ارقام ومعادلات كيميائية وجبرية وهندسـية ومعملية تبقى اسـطورة الى أن يفك رموزها العقل البشرى .. فننتقل بها من مرحلة الى اخـرى يتم بها السـيطرة على صناعة الانسان وتهجينه .. لنجد أمامنا انسـانا فى صورى أخرى .. فالعقل البشرى لم يصل بعد الى أسرار النظـرية .. فهذا هو ما يجب على العلم ان يتجه اليه بكل قوته .. فمع الارتفـاع الى السـحاب .. نطلب العودة من جـديد الى الأرض .. الى الانسـان .. فمازالت اسراره مسـتغلقة .. غامضـة علينا اكتشافها ..

جـداول الاختيـــار

ليس صـــحيحا ان لكل انســـان اجل محدد . بمعنى اجـل مكتوب فى صحيفة الغيب .. فمثل هذا القول لا يســـنده دليل ولا يدعمـــه برهان .. ويمكن وصفه بأنه ترديد ساذج لببغاء لا تفهم ولا تعى .. ينتمى الى الخرافات المحجبة بالجهل والســـخافات !! فالقانون العام الذى ينظم للكون نشوئه واستمراره والذى ينظم بدقة غريبة كل صـــغيرة وكبيرة ليس من بين صفحاته التى يكتشف العلم تباعا بعض سطورها الممتدة ليس من بينها اجل مكتوب لا للمخلوقات عامة ولا للانسان خاصـــة .. ولكن الذى يمكن تأكيده ان هذا الناموس أو القانون العام الشامل ومن خـــلال تطبيقاته يمكنه « اذا ما المنا بفروعه المختلفة » تحديد الأعمـــار .. وليس امكانية هـــذا التحديد نابعة من مسطور فى صفحة القدر به تبيان وتواريخ الأعمار بل سببه الالمام بفروع المعرفة الانسانية تتحدد بناء عليها جداول يمكن بها تحديد الأعمار .. تماما كما يتم الآن التنبؤ بالأحوال الجوية .. والمطر والزلازل والبراكين .. وهذا هو الموضوع الذى يجب طرقه بشدة بمطرقة العقل ليتوصل الانسان فى النهاية لجداول الناموس الذى يحدد أعمار المخلوقات .. كيف ؟!

اذا قلنا ان ٣ + ١ = ٤ وان ٤ ــ ٢ = ٢

الأولى عملية جمع صحيحة .. اضفنا فيها الواحد الى الثلاثة فنتج لنا اربعة .. والثانية عملية طرح انتقصـــنا من الاربعـــة اثنان .. فكان الناتج اثنان بمعنى آخر انه عندما اجتمع لدينا ثلاث أمور وأضـــفنا اليهم أمرا آخر اصبح الناتج لدينا اربعة .. والأربعة هنا لا تمثل عددا ولكن تمثـــل موقفا معينا . ولكن عندما انتقصنا من الأربعة أو هذا الموقف امران أصبح الناتج لدينا اثنان بمعنى آخر موقف جـــديد مغاير تماما للموقف الأول الذى عبرنا عنه باربعـــة ..

وعلى هذا فالحالة الواحدة قد تتحول نتيجتها اذا ما اضـيف لها حدث جديد أو اذا انتقص منها أحد الظروف .. من هذا المنطلق يمكن أن تخضع مسيرة الحياة لعلم الحساب .. بل ونستطيع أن نتحكم فى الانسان .. كنانتج أحدى عمليات الحياة الحسابية لجداول الاختيار باضافة أو انتقاص امور من كرته الحياتى .. كالوراثة .. والظروف الاجتماعية .. والبيئية .. والأحداث .. لنصنع له موقفا جديدا أو نصنع منه انسانا مغايرا .. مثلا طفل ولد فى احدى قرى افريقيا .. مات ابوه فى الاربعين من عمره بحوالى المرىء سببها البلهارسيا اصيب هذا الطفل بالبلهارسيا ولم يعالج منها ويعيش نفس ظروف ابيه .. ماذا ما ادخلنا كرت حياة هذا الطفل داخل الكمبيوتر الحياتى .. فسيقدر لهذا الطفل الموت فى حوالى الأربعين لكن اذا اضيف لهذا الكرت أدمان المخدرات فسينتهى عمره قبل الأربعين .. ؟! تماما كالعمارة التى يقدر عمرها الافتراضى بأربعين عاما .. ولكن نتيجة وجود عنصر جديد .. خلل لتسرب مياه جوفية للاساسات يقل العمر الافتراضى للعمارة .. وهذا الطفل الذى حددنا له الموت قبل الاربعين لادمانه المخدرات .. اذا قدر له وانتقل فور ولادته مباشرة لاحدى قرى أوربا ودون ان يصاب بالبلهارسيا .. وعاش فى بحبوحة من العيش .. سيعمر لأكثر من أربعين عاما فى ظل الظروف الجديدة ..

مثل آخر ..

جندى اصيب بشظية .. نزف .. لم يجد من يسعفه مآلة الموت ..

نفس الجندى أصيب بنفس الشظية .. نزف أسعف .. توقف النزف = الحياة ..

سلك محمل بتيار قدرته .....ه وات .. امسك به شاب = الموت ..

نفس السلك امسك به نفس الشخص دون أن يكون حاملا تيارا = الحياة ..

فى الأمثلة السابقة اضفنا ظروفا أو انتقصنا لبعضا منها فكان الناتج مختلف .. من هذا المنطلق يمكن القول بلا استحياء ..

اذا كانت أسباب الفناء او الهدم اكبر من اســـباب البقاء = الموت او الهـــدم

واذا كانت أسباب البقاء أقــوى من أسباب الهدم أو الفناء = البقاء على قيد الحياة .. من أسباب الهدم على سبيل المثال لا الحصر الفيروسات والوراثة السلبية كتوارث بعض الامراض المستعصية او المزمنة .

وكذا ظروف البيئــة الســلبية .. فالفقر والحرمان وغيبة الرعاية الصحية .. والجهل .. كلها اسباب هدم للانسان ..

واسباب البقاء ايضــا كثيرة وهى عكس ما عددناه من أســباب الهـــدم ..

من هذا المفهوم نستطيع جدولة كل حيــاة على حدة .. لنفتح بها آفاقا فى المعرفة .. لأنه سيترتب على هذه الجــدولة حتما اطالة اعمــار الانسان واستكشاف اسرار جديدة فى علم هندسة الحياة ..

واذا تركنا الموت بصورته الكريهة المقيتة .. لأمور اكثر اهمية .. ندخلها فى الكمبيوتر الحياتى .. سنخلص لنتائج مذهلة .. فالسياسة .. والاقتصاد .. والاجتماع .. والطب .. والهندسة .. وعلم الاجناس .. كلها فروع للمعرفة الانسانيـــة يمكن ادخالها فى الكمبيوتر الحياتى .. باضافة مواقف أو انتقاص امور لنخرج فى النهاية بنتائج لا تخطىء تماما كالعمليات الحسابية .. تتمثل فى جداول يمكن تقسيمها الى نوعين :

١ ــ جــداول حتميــة ..

٢ ــ جــداول نســبية ..

الجــداول الحتمية هى التى تنتهى الى نتيجة حتمية لا عبرة فيهــا بالمكان أو الزمان او متلقى الحدث نتيجة واحــدة .. لا تتغير بتغير المكان او الزمان او متلقى الحدث .. فالمقذوف الذى يستقر فى مخ انسان لا يمكن أن نفترض معه بقاء الانســـان على قيد الحيــاة حتى ولا نسبة ذرة من المليون لأن المقذوف يحدث تهتكا فى انسجة المخ يترتب عليه الوفاة .. هذه

للنتيجة لا تختلف باختلاف المكان .. أو باختلاف الزمان القرن العشرين او الخمسين او باختلاف متلقى المقذوف .. النتيجة حتمية .. وكذلك من يقبض على سلك كهربائى طاقته ٥٠٠٠٠ وات النتيجة حتمية حتى مع اختلاف الشخص أو المكان او الزمان فمتلقى الصدمة الكهربائية يصعق ويتفحم اما المقذوف الذى يستقر فى فخذ الانسان فيحمل معه احتمالات الموت أو عدمه حسب متلقى الحدث .. أو حسب الزمان .. أو المكان .. او ظروف الحدث .. وهذا هو ما نطلق عليه الجدول النسبى والذى يختلف باختلاف الشخص والزمان والمكان والظروف .. فى الجدول الحتمى لو تكرر نفس الحدث عشرات أو مئات المرات فنتيجة واحدة .. بعكس الجدول النسبى فان نتيجته تختلف حسب اختلاف الظروف الذى تم فيها الحدث .. الصائد الذى يصطاد عصفورا يقف بنفس الزاوية التى اصطاد بها عصفورا آخر ومن نفس المكان ونفس البندقية والمقذوف واتجاه الريح .. فستكون النتيجة واحدة اصابة العصفور مكان الأصابة الأخرى ولكن اذا اهتزت يد الصائد .. او طار العصفور أو تغير أى ظرف من الظروف التى احاطت بصيد الطائر الأول تصبح النتيجة مختلفة اى نسبية ..

وقد يحمل الحدث الواحد نتيجة حتمية وأخرى نسبية فالمقذوف الذى يستقر فى الفخذ يحمل نتيجة حتمية وتتمثل فى تهتك الأنسجة والنزيف .. وايضا يحمل نتيجة نسبية حسب احتمال الشخص المصاب او القدرة على اسعافه .. او المكان الذى اصيب فيه فى النتيجة الحتمية لا يختلف من شخص لآخر لو تكرر الحادث على أشخاص مختلفين .. لابد أن يحدث تهتك فى الأنسجة ونزف .. اما فى النتيجة النسبية فتختلف حسب الظروف .. فقد تبتر الساق او قد يموت صاحبها او يسعف .. كلها نتائج احتمالية تعتمد فى المقام الأول على ظروف الحادث ..

والسؤال لماذا تطول اعمار بعض الناس وتقصر البعض الآخر .. لماذا تعيش بعض الأشجار عشرات السنين بينما شجرة القطن لا تعمر سوى شهور السبب يكمن فى الصفات الوراثية او الظروف البيئية .. وما يؤيدنا

فى هذا القول مقارنة متوسط الأعمـــار فى أوربا بما هو حادث فى افريقيا ..
نجد ان توجد بين المتوسطين هوة ساحقة .. سببها ما يكمن وراء ارتفاع
متوسط الأعمـــار فى أوربا وانحـــداره فى افريقيا .. فاذا ما نحينا جانبنا
الصـــفات الوراثية .. نجد أن الظروف البيئية لها دخل كبير فى ارتفاع
متوســـط الأعمـــار فى أوربا وانحـــداره فى افريقيـــا بحيث يمكن القـــول
ان للأعمار جداول نسبية تحكمها الصـــفات الوراثيـــة والظروف البيئية .

هل الحقيقة لا وجود لها حتى نعرفها ؟؟ بعض الحقائق العلميــة التى تحكم الكون كانت قبل اكتشــافها مجهولة غير معلــومة ــ رغم أنها كانت موجودة فعلا .. فهل يعنى اكتشافها شــهادة بميلادها أم يعنى اكتشافهــا اســتظهارها على أرض الواقــع .. بمعنى آخر هــل نربط بين الحقيقــة والاكتشاف بحيث نقول انه لا توجد حقيقة بلا اكتشــاف ..وانه حتى مع وجود الحقيقة فهى بدون الاكتشاف عدما .. وهو ما يمكن التعبير عنه بالمجهــول المطلق فاذا قلنا عن هذا الشىء أنه موجــود فليس لأنه كان موجــودا وجودا فعليا .. بل لأنه دخل دائرة المعرفة الانسانية بعد اكتشافه .. وعلى هــذا فيمكن التفرقة بين المجهول المطلق المبهم الأعم والاشــمل وهو مالا يستطيع العقل البشرى ادراكه .. الا اذا تحول الى موجــود معلوم ومفهوم بعد أن يدخل دائرة ضوء المعارف الانسانية وهو ما يمكن تسميته بالوجود الحقيقى فالحقيقة العلمية قبل اكتشافها كانت مجهــولة غير معروفة رغم أنه لا يمكن انكار سبق وجودها الفعلى قبل اكتشافها .. لكن وجودها فى ظلمة المجهول وحجبها عن المعرفة الانسانية يعنى جهل الانسان بها .. فهى قبل معرفتها والعدم سواء .. لذلك يمكن القــول أولا أن المعرفة = الوجود بمعنى أن المعرفة لا تنصب الا على حقيقة موجودة .. وثانيا ان الوجود = المعرفة بمعنى أن الحقيقة لا تنشــأ الا بالمعرفة حتى ولو كان لها وجودا فعليا قبل اكتشافهــا لأنه حتى نعتد بالحقيقة علينا أن نكتشــفها فاذا لم يحدث ذلك فكيف نعترف بحقيقة نجهلها .. بل كيف نطلق على مجهول كلمة حقيقة ؟!

الحقيقة اذن تنشأ منذ اكتشافها حتى ولو كان وجودها الفعلى سابقا الاكتشــاف بعشرات بل بملايين الســنين وهو ما نعبر عنــة بالوجــود الحقيقى .

اذن فالوجود الحقيقى = الوجـود الفعلى + المعرفة الانسانيـة بمعنى آخر الوجـود الفعلى ينشىء عنه الوجـود الحقيقى اذا ما اقترن هـذا الوجـود الفعلى بالمعرفة الانسانية فاذا لم يحـدث هذا التزاوج والاقتران فسيبقى هذا الوجود الفعلى عقيما لا ينجب وجودا حقيقيا وبالتالى لن تعرفه الانسانيـة .

وبدون المعـرفة يصـبح الوجـود الفعلى وجـودا مطلقا .. غـير منهـوم .. غير معلـوم .. لا يمكن الجزم بحقيقته لأنه لا يمكن الجزم بالمبهم .. الغير معلوم .. وعجز العقل البشرى عن التوصل لهذا الوجود المطلق وصهره الى وجود حقيقى لا يعنى انكار هذا الوجود المطلق .. لكن طالما أن العقل البشرى لم يصـل لمعرفة ابعاد هذا الوجـود المطلق فهو بالنسـبة اليه مجهول غـير معلـوم .. غير موجود ، وعلى هـذا فان اى ادعاء بمعرفة المجهول المطلق دون اسـتناد على حقائق علميـة يعتبر خرافة ويحمل فى طياته انهيار الحقيقة .. فكيف يدعى انسان العلم بالمجهول المطلق دون أن يسند ادعائه على اكتشاف أو معرفة .. فانشـتين قبل ان يكتشف نظريته فى الذرة لم يدع معرفته بالوجود المطلق.. بل فعل ذلك بعد أن نقل هذا الوجود المطلق الى المجال العقلى ليصبح وجودا حقيقيا بعد ان اكتشف نظريته عن الذرة .. أذن فالوجود الحقيقى يعنى ارتباط الوجود المطلق بالاكتشـاف الفعلى حتى ولو كان هـذا الوجود المطلق سـابقا على الاكتشـاف .. وقد يتمثل هذا الاكتشـاف العقلى فى نظرية علمية .. حقيقـة اقتصـادية .. بحث اجتماعى .. اسـتنتاج منطقى .. اكتشـاف علمى يحول به الوجود المطلق المبهم الى موجـود حقيقى .. مفهوم ومعروف .. وما يخرج عن هذا يصبح مجرد خيال أو تخيل او تصـور .. وقد يتحول هذا الخيـال او هذا التصور بمرور الزمن وتتابع الاجيال (رغم أنه لا تسـنده حقيقة علمية) الى عقيدة راسـخة لا تمحوها آلاف اطنان كلمات الرفض لحقيقتها الواهمة .. واقرب مثل الى ذلك من يتحدثون عن الجن والشـياطين والملائكة .. ادعو علمهم بالمجهـول المطلق .. ليحولوه الى موجود حقيقى ليصـبح فى بعض

المجتمعات المريضة .. عقيدة راسخة لا يتزعزع بنيانها دون سند من اختراع او اكتشاف أو حقيقة .

لكن هذا المجهول قد يكون موجودا ولكن ليس لدى البشرية القدرة أو الامكانيات لتصل لحقيقته .. فهل يعنى هذا عدم الاعتراف به .. والرد سهل ويسير كيف يعترف الانسان او يؤمن بشيء غير معلوم .. مجهول .. فليس مطلوبا من العقل البشرى ان يؤمن أو يعتقد فى ما هو مجهول لأن ذلك يعنى الايمان بما يفوق قدراته ويعنى ايضا .. الايمان بكل ما لا يستند على حقيقة أو اكتشاف .. ويعنى فى النهاية الانغماس فى الخرافات والخزعبلات .. وفى المقابل ليس مطلوبا من الأنسان ان يكفر بكل ما يفوق قدراته الخاصة والا كان معنى ذلك ان يكفر الأمى بما هو مخطوط فى الكتب لأنه فوق قدرته وامكانياته ، كما انه ليس مطلوبا من الانسان أن يكون كيمائيا أو جولوجيا أو مخترعا او عالم نبات وأن يلم بالنظريات العلمية أو الفلسفية والانسانية والاجتماعية حتى يؤمن بكل الحقائق التى توصلت اليها البشرية .. بل المقصود هو الايمان بكل الحقائق التى استطاع العلم أن يحولها من دائرة المجهول المطلق الى دائرة المعارف الانسانية بمعنى آخر يجب أن يؤمن الانسان بالعقل الانسانى الجماعى وما توصل الية من اكتشافات واختراعات وعلوم وحقائق وسبب رفض العقل الجماعى للخرافات وما يتصل بها من وجود شياطين وملائكة وجن ازرق واحمر واخضر !! هو ان هذا الوجود وهمى .. شرك خادع لا تؤيده حقيقة ولا يدعمه برهان وتظل تلك الشياطين وهذه الملائكة وعوالم الجن فى جعبة الخرافات طالما لم يتحول مجهولها المطلق الى موجود حقيقى .. فالذى ينادى بالوجود الحقيقى لهذه الكائنات الوهمية .. مثله مثل من يتحدث عن عوالم كوكب لم يسمع به أحد .. ولم تطأه قدم انسان .. والذى يسند ادعائه هذا بصفحة أو صفحات من كتاب منزل سند واهى .. لا يخرج عن كونه مجرد اقاويل قصد بها الدعابة او السخرية او الاستهزاء بالعقل البشرى الجماعى لأن هذا السند فى حقيقة الأمر فى حاجة الى سند آخر علمى او عقلى

يثبت تنزيله من عند الله . لكن هل يعنى انكار وجود الشىء وجودا حقيقيا .. انكار وجوده وجودا فعليا .. بالقطع لا .. فكثير من الحقائق العلمية التى وصلت اليها البشرية كانت مجهولة قبل اكتشافها .. وبالتالى لم تصل اليها دائرة المعارف الانسانية .. ولكن هذا لا يطعن فى وجودها الفعلى مثل الاكتشاف .

كل ما سردناه يجرنا الى الحديث عن الدعاء لله .. وطلب التوبه .. والمغفرة والعون من الذات العلية .. وكثير من الطقوس الدينية .. تبدأ من الوقوف على حائط لتنتهى الى الدوران حول مبنى .. فحتى لحظتنا تلك لم يتأكد للبشرية أن الله استجاب لدعوة انسان وارسل الى جائع مائدة طعام .. أو الى عاريا رداءا يستره او ظمآنا قنينة ماء عذب أو معدما مليون جنيه ذهب أو ورق ولا حتى مليون جنيه صفيح !! لم يتأكد للبشرية على مدى مئات السنين بل ملايين السنين ما قيل عن معجزات الانبياء والرسل وأعاجيب السحرة .. وخوارق العفاريت .. لم يحدث فى عصور النهضة حدثا واحدا .. واقعة واحدة تؤكد ما سبق أن توارثناه من عقائد بالية .. وخرافات مهلهلة .. فما الذى حدث !! لماذا توقف فجاة بعث الانبياء والرسل والرسالات .. لماذا لم تتكرر الخوارق ؟؟ ليرسل الله لفقير خروفا مشويا كما أرسل لأبراهيم لماذا توقفت الذات العلية فجاة عن ايفاد ملائكتها وبعث الأنبياء وقد اصبح الكفر سمة العصر .. فالكثرة الغالبة لا تدين الآن الا بالعلم وهى الكثرة المتحضرة أما القلة القليلة التى تؤمن بالاديان .. فهى فى الحضيض .. فى الوحل .. لماذا والكفرة فى أشد الحاجة لمن يهديهم للطريق السوى نحو التخلف !! لماذا لا يرسل الله اليهم رسلة ؟؟ لسبب بسيط جدا .. لأن الله لم يرسل فى وقت من الاوقات رسلا .. ولن يفعل .. فالرسل من صنع الناس او من صنع انفسهم فالانسان الذى يؤمن بالغيبيات .. ويؤمن بقدرة المجهول الخفية على تغيير أحواله ليس فى الحقيقة سوى انسان مريض على المجتمع أن يقيم له مصحات نفسية يعالج بها .. ذلك لأنه آمن بامور تتجاوز نطاق تفكيره بل وتتجاوز نطاق التفكير الانسانى الجماعى .. فهو عندما يدعو الله طالبا المغفرة او العون او دفع

مكروه لا يدرى كيف يمكن تحقيق ذلك ولكن يعتقد أن تلك الذبذبات التى تخرج من فمه والتى يجهل مسيرتها لابد وان تصل لاسماع الاله الذى يجهله .. فهو لا يعرف ماهيته ولا مكانه ولا حتى كيف يستقبل هذا الدعاء .. المهم انه يؤمن بأن هذه الدعوات الطيبات ستجد آذانا صاغية لدى الاله .. ولكن الواقع انها كلها امور لا يدركها العقل وتبقى فى دائرة المجهول المطلق طالما لم تؤيدها حقيقة علمية او انسانية ويرفضها العقل الجماعى . لكن هل يعنى عدم رؤية الانسان للشىء عدم وجوده بالقطع لا .. فكثير من النظريات العلمية قاصر فهمها على الخبراء والمتخصصين لكن لا يمكن للعقل الجماعى ان ينكرها .. والحدائق المعلقة موجودة رغم أن اكثر من نصف سكان العالم لم يرها . وينطبق هذا على كثير من الكائنات والحقائق والنظريات والاختراعات .. ولكن تبقى الحقيقة العقلية التى لا يمكن انكارها ان أى موجود لا يوجد الا باعمال الفكر .. بمعنى آخر أن كل مجهول يدركه العقل يصبح معلوما وأى دعوة بمعرفة المجهول المطلق مرفوضة طالما لا تؤيدها حقيقة علمية او عقلية .. وسبب تخلف بعض الشعوب .. ليس الجهل أو الفقر .. انما هو « الدماغ » الذى يؤمن بهذا المجهول المطلق كحقيقة يقينية دون ان يسندها دليل أو برهان « الدماغ » الذى يؤمن بالتهريمات والافكار الخاطئة .. والتى يخصصون لها برامج ومؤتمرات وندوات لبثها .. وانباتها .. ثم ريها وتعهدها بمخصبات الجهل والجهالة .. لذلك فقد تقدمت مثل هذه الشعوب كثيرا نحو الانحطاط والاسفاف والبله والعته !! بينما تقدمت شعوب اخرى بخطوات واسعة نحو الحضارة تنهل منها او تنهل منه !!

شتان ما بين الاثنين .. شعوب اتجهت الى طريق البحث عن الحقيقة .. وأخرى عبدت المجهول فاستعبدها .. أصبحوا مجموعة من الرقيق لآلهة من المعتقدات والطقوس والخرافات والعبادات .. مجموعة من الخراف يسوقها للذبح سيف ذلك المجهول الذى يصلون فى محرابه .. وتحت قبة خرافاته . ذلك المجهول .. المرض الخبيث الذى أصاب العقل البشرى بالخبل والتوهان .. حوله الى مجموعة من الخلايا السرطانية ..

اصبح الفصد أو الجراحة السبيل الأوحد للعلاج الناجح ..

توقفت عن القراءة .. نمرود يدمدم :

ـــ أكمل .. اكمل يا ملعون ..

احتوانى الصمت .. وعيناى تجرى .. تلهث فوق الأسطور .. ما هذا الذى اقرأ لا يمكن .. لا يمكن .. نحيت الكتاب جانبا .. نظراتى زائغة .. عقلى تائه تزاحمه الشكوك .. تتكسر فوق أرض يقينة للفروض والاحتمالات ما هذا .. ماذا قرأت ؟! رحت اتأمل ما حولى .. هل يمكن ان تكون ما تطأه قدماى هى الأرض .. امسكت بحفنة تراب نثرتها .. تناثرت ذراتها، فوق وجوه البشر .. مئات البشر !! الاسئلة تحاصرنى .. تدفعنى الى الجنون .. الى جب لا أستطيع فيه التنفس .. اننى اختنق هل هـذه هى الأرض ؟! وتلك الفصائل المتخلفة بقايا البشر .. ما تبقى منهم ؟! ضحكت .. بكيت .. عدت اطالع سطور الكتاب .. والدموع تنسج سحابة بيضاء .. السطور تضع النهاية فى كلمات قليلة : « وهذا هو أساس شريعتنا بعد أن هجر قومنا منذ ثلاث آلاف عام الى باطن الارض تكمل حضارة الانسان التى اندثرت .. اللعنة عليهم .. على من اشعل الحرب العالمية الثالثة .. ولا عودة ا‌ليها » ..

حريق فى صدرى .. اشعلته كلمات الكتاب .. زعقت :

ـــ المجرمين .. السفلة .. الانذال .. حولوها لخرابة ينعق فيها البوم . جنود اليقين تدمر فصائل الشك والاحتمالات .. تحمل علمها تلوح به رأسى ينفجر .. ساقاى يتخاذلان .. هويت الى الارض .. ضممت رأسى بيدى .. الدموع تسترسل .. أذن فقد عدت الى الارض بعد رحلة طويلة استغرقت منى مسافة آلاف السنين .. وما اراه أمامى ليس سوى اطلال الحضارة والانسان .. انسان متخلف عقليا .. معوق جسديا .. عقيم لا يتناسل .. ولا يتوالد .. ما حدث غريب .. غريب .. لقد ضغط بعضهم على مفاتيح الموت ليقتلوا كل ما على الارض .. انسان ونبات وحيوان وما بقى فوق قشرتها ليس سوى وهم اسمه الجنة والخلود .. والحقيقة

محزنة .. مؤلمة .. حقيقة تلك للبقايا الآدمية والحيوانية التى استبقتها الحياة لوقت غير معروف مداه نفاية البشرية الذى يرصدون الآن انفعالاتى .. يرتبون حركتى .. كم اشفق عليهم .. عدت بذاكرتى الى الخلف الى باطن الارض حيث تقطن المعرفة .. وينبت العلم .. الى الانسان الذى هجر الأرض ليكمل حضارة ملايين السنين .. كانوا يعرفون أن فوق قشرة الارض هذه النفايات .. اعتقدوا اننى واحدا منهم .. الآن فقط فهمت مغزى ومعنى ما دار من حوار بينى وبينهم فهمت سبب الدهشة التى غمرتهم وواحد من القردة يجاريهم فى نقاشهم ونكاتهم .. فهمت لماذا اعتقدوا أننى واحدا من سكان كوكب آخر غير الارض !! و فهمت أخيرا معنى الخلود الذى تمرغ القوم فى وهمه سنينا طويلة خلود مؤقت .. فهمت سببه ـ هذه النفاية البشرية استبقتها الحياة لبعدها من بؤرة الانفجار بآلاف الاميال .. لم يقتلهم شعاع الموت .. ولكنه قضى على ماهو ادنى كثير من الفيروسات والميكروبات الضعيفة وفى الوقت نفسه اكسب تلك الاجساد البشرية حصانة ضد ما تبقى من هذه الفيروسات والتى مازال بعضها ينخر فى أجسادهم وعظامهم .. والمحصلة خلود وهمى !! فاسباب البقاء أقوى الآن من أسباب الفناء .. ولكن الى متى ؟ الى متى أيها الأوغاد ؟ .. انه الموت .. آت اليكم لا محالة فى اية لحظة .. سيدق الأبواب بشدة .. بقسوة .. غول تقدمون اليه الضحية تلو الأخرى حتى ينتهى منكم كلكم .. ثم يرفع فوق الأرض علمه الأسود ليصبح الوارث الوحيد لتلك الارض .. ان عاجلا أو آجلا ستدك حشود الفناء أسوار البقاء وتخرق دفاعاتها .. عندئذ لن يتبقى انسان .. حيوان .. نبات . أصابنى الخاطر بالذهول .. انتصبت قامتى المهلهلة .. حاولت أن اتحدث خانتنى شفتاى تحركت دون كلمة واحدة .. الكارثة ضخمة .. بدأت تهب اعاصيرها فرهود .. وزيد .. وياسمينة .. وأخيرا زاهية التى هوت منذ ساعات فى احضان الموت .. لم تكن اللعنة .. بل الخيط الذى يوصل الى الحقيقة انه نفس مصيركم يا أوغاد .. قرب أو بعد الميعاد حديثا طويلا .. كلما كثيرا تضج به نفس .. ولا أستطيع .. مجرد تمتمة تتحرك بها شفتاى ..

نمرود يعــــوى :

ـ لقد جن .. انظروا اليه لقد جن ..

خرجت الكلمات عسرة من بين شفتاى :

ـ نعم .. لقد جننت لأنكم آخر مصـــائل الحيوان على هــذه الأرض ولن يخلفكم أحد ..

جثوت الى الارض .. رفعت راسى الى السماء زعقت :

ـ يا الهى .. لماذا تخليت عنـا .. لمــاذا تركت الأوغـــاد يدمرون حضارتك .. لماذا .. لماذا يا الهى ؟! !

بدأت أبكى .. تملكتنى هستيريا غريبة .. ضحكت .. عدت للبكاء من جديد .. عندئذ ارتفع صوت بسطاوى :

ـ الرجل جن .. ترفع الجلســـة حتى يســـتعيد المتهم وعيه وتكتمل ارادته ..

* * *

انعقدت الجلســـة .. تملكنى اليأس .. كم أريد الموت .. لا أريد أن اعيش اللحظة التى أرى فيها الناس تتساقط الواحد تلو الآخر .. واجلس القرفصاء اندب نهاية الحياة .. اريد الموت .. اســـتغرقت مع افكارى .. شردت .. نمرود يسألنى :

ـ ما رأيك يا اله فيما قرأت ؟

لم ارد .. ابتسمت واذا به يزعق من جديد :

ـ امسح هذه الابتسامة عن وجهك القمىء .

تقدم نحوى .. صفعنى بقسوة .. دمدم فى غضب جامح :

ـ لن تنجو منى .. سأعصف بك كعصف مأكول ..

عاد الى مكانه .. صوته يرتجف وهو يشير الى :

ـ لم تجبنى .

اخذت نفسا عميقا .. كل ما قرأته يتخايل أمام عقلي كراقصــة باليه رشاقة .. وخفة .. ومهارة .. لا تخطئها عين رائي ولكن لا أحد يبصرها سواى .. انها الحقيقة التى غابت عنى سنين طويلة .. لكن ماذا يجدى أن تعــرف تلك الهوام نهايتها .. ماذا يجــدى أن تعيش ما تبقى لها من أيام أو سنين فى الوهم أو فى الحقيقة .. عقلي يذوب .. فكرى يترنح .. كيانى ذرات عالقــة فى بيت لا ســقيف له ولا نوافذ .. تحركه ريح عفية آتية من اعماق الحقيقة .. لقد كنت مخدوعا .. كل دقيقة .. كل لحظة عشــتها مع هؤلاء الناس .. مع تلك الهــوام .. نمرود من جديد يعاود ســؤالى .. لا سميع . ولا مجيب .. سكير يترنح فى درب البوظة .. استفقت على يد نمرود تهزنى بقسوة وهو يسألنى :

ــ ما رأيك يا اله فيما قرات؟

أجبتــه متسائلا :

ــ وما رأيك أنت فيما قرأته لك .. هل فهمته ؟

نمرود يتحرك مبتعدا بهســتيريا غريبة .. قرد يقفز فوق أغصــان الأشجار .. باحثا عن ثمرة .. يواجه المحكمة فى عصبية شديدة مشيرا الى :

ــ أنه يسألنى .. مدعى الالوهية يسألنى .

يختال امام الجمهور .. طاووس نتف ريشــه .. يزعق .. ويزعق ســاعات وهو يكيل لى الاتهام تلو الآخر : وبعد أن انهى مرافعته اقترب منى .. ابتسمت .. عاد يصرخ من جديد :

ــ انه مازال يبتسم .. امنعوه .. خيطو فمه .

عم الصمت المكان .. اتجه نحوى .. أستطرد قائلا :

ــ هذه الابتســامة الملعونة لن تغير من مصيرك المحتوم .

القاعة مزدحمة .. لكن لا تسمع فيها ســوى حفيف الأنفاس كأنهــا شاغرة بهذا الصمت الرهيب .. بهذا الهدوء المريب ..

صوت بسطاوى يأتينى حادا .. خَاَسَا :

ــ هل لدى المتهم ما يقوله ؟

ـ لا يابسطاوى .

ـ اذن فانت تؤمن بكل ماجاء بالكتاب الملعون .

ـ بكل ماجاء فيه من حقائق فقط .

ـ مصيرك مظلم .

ـ وهل بعد الموت شىء ؟

ـ سنمنحك فرصة العفو .

ضحكت .. وهو يستطرد قائلا :

ـ لو أنكرت كل ماجاء فى الكتاب الملعون .

اجبته قائلا :

ـ الحقيقة لا تتحول لاكذوبة .. بل تبقى خالدة مهما أدمن البعض انكارها .

ـ انك تهوى الى الموت .

ـ لن أطاطىء الراس للوهم الذى تعيشه انت وامثالك من البلهاء بارهابى بالموت .

ـ وهل الحقيقة أنك اله .

ـ لا أنكر أنه مرت بى لحظات اعتقدت أننى لست سوى الاله فى ثوب بشرى . عذرى فى ذلك انه سبقنى الى هذا الوهم كثيرين بل ومات البعض على اعتقاده .. أما أنا فقد انقشع عن عقلى الضباب بعد أن احترقت كل الالهة .

ـ والطيف الذى كان يتجلى لك .

ـ خيال مريض .. دفعنى اليه رغبتى الجارفة فى انقاذ الناس من الوثنية .. والبدائية .. والتخلف .. خيال يا سيد بسطاوى لست أول أول من جمع به .

ـ والنهاية .. اتريدها مصلوبا .. أم محروقا .. أم مذبوحا .

ـ النهاية .. اريدها للاكذوبة التى عششت فى عقول الناس والتى

يتغنى بها أصحاب القلنسوه السوداء والأردية الحمراء ..

ــ بل هى نهايتك .

ــ لن تكون نهايتى نهاية للعقل .

الرؤوس المدببة .. الخاوية .. تتقارب .. تتهامس .. تتباعــد .. صوت بسطاوى يعلن على أثرها :

ــ الحكم بعد المداولة .

الاجساد المترهه .. الدسمة .. تختفى داخل حجرة المداولة .. ثلاث دقائق لتعــود بعدها الى اماكنها .. الجمــع الغفــير يقف وبســطاوى ينطق بالحكم :

ــ حيث انه تأكد ليقين المحكمــة أن جرائم ارتياد الأرض الملعــونة والتجديف وادعاء الألوهية والمناداة بافكار محظور تداولها تدعو لاعمال العقل وهدم المعتقدات !! كلها جرائم ثابتة فى حق المتهم لذلك فقد حكمت المحكمة باجماع الآراء باعدام المتهم حرقا .

وفى اللحظة التى نطق فيها بســطاوى بالحكم .. تأوه .. ســقط على الارض .. حملــوه فوق أريكة عاليــة .. حملق القــوم .. تعالت الصرخات .. اندفعت الجموع مهرولة خارج المعبد .. زاعقة « اللعنة .. اللعنة » .. اتجهت الى بســطاوى امامى جثــة هامدة بلا حراك .. خطت السنون على وجهه بأخاديد الزمن .. تساقط شــعره .. تهدل جفنيه .. امامى نوجه رجل تخطى مئات بل آلاف السنين تمتمت باسى :

ــ العاصــفة تقترب .

فى اليوم التالى صـــحبنى ثلاث رجال مقيدا بالاغلال .. مطوقا بحبل الى ساحة الاعدام . أطنان من الخشب رصـــت داخل دائرة وفى منتصـفها نصبت سارية الموت .. كجذع شجرة ضخم . مســيرة الموت تتقدم يظللها الحزن .. لا تسمع معها سوى زفرات الألم .. وانين أخرس ـ بعد دقائق ، ســـيحترق الاله ليصـــبح ترابا .. هذا الاله الذى احبهم وحاول ان يزرع الابتسامة فوق وجوهم يروه مشدودا فوق سارية الموت ولا يستطيعون له شيئا . طوفان المرارة يكتسح الجموع وهى تتقــدم نحوى .. تحيطنى .. ونمرود والدهل وسليط ودحروج وســـليم وغيرهم من صـــفوة رجال الدين يرتدون الجبة الحمراء والقلنسوة الســـوداء يعبرون مكانى .. يبصقون على وجهى ونمرود يتوالى صراخة :

ـ ابصقوا على الشيطان .

الناس مذاهيـــل .. خائرون .. تطـــوف جموعهم حولى .. الأنين الاخرس .. والحب الباقى .. والأمل المتســـكع فى قلوبهم الخاوية يمنعهم من تلويث وجهى ببصاقهم .. وصوت نمرود من جديد متوعدا مهددا :

ـ اللعنة .. الأرض الملعونة مصير من يتخلف .

موجات البشر تتابع .. يتناثر رذاذ بصـــاقها فـــوق وجهى .. مناع يتقدم نجوى .. يشد من ازرى .. يحمينى .. يحيطنى .. يركع الى قدمى وسط ذهول الجموع الغفيرة .. يبكى .. يتأوه متوسلا :

ـ مولاى .. انقذ نفسك .

بكيت أنا الآخر وهو يستطرد قائلا :

ـ لا تبك يا مولاى ..

اجبته برقة واسى وحزن :

ـ حزنا على الناس لا على نفسى .

ـ الناس لا يستأهلون دموعك بعد ان كفروا بك .

قال ذلك .. انحنى الى قدمى الموثوقة يقبلها .. تمتم :

ـ اغفرلى يا مولاى .

قلت بأسى :

ـ كنت تعرف الحقيقة أذن .

ـ كل الوقت يا مولاى . حل الصمت استطرد قائلا :

ـ أبى يا مولاى .. اقسمت له بعدم انشاء سر الأيقونة قبل أن تحتويه غفوة الموت .

ـ تأخر اعترافك فقد كنا نستطيع الكثير .

ـ فى طريق سده اليأس .. أشك يا مولاى .

ـ العلم يأتى بالمعجزات .

ـ والقسم يا مولاى ؟!

ـ أهم لديك من حياة شعب بأسره .

ـ ضيق أفق .

قلت فى يأس :

ـ عموما فقد فات الأوان .

ـ لم يفت يا مولاى .. تستطيع ان تنقذ نفسك وتنقذ شعبك .

زمجرت فى غضب :

ـ قلت لك أننى لست الها .

ـ لا تقتل الأمل الذى زرعته الآن بكلماتك نستطيع بك أن نفعل الكثير يا مولاى .. نحول اليأس الى طاقة والمرض الى عافية .. والعقم الى أمل .. لكن أنقذ نفسك اولا يا مولاى ..

عاد يصرخ من جديد :

ـ أنقذ نفسك يا مولاى .. أنقذ نفسك يا مولاى .

صرخاته تتردد فى المكان .. صداها يأتينى مفزعا . اليأس .. اليأس أن أستطيع شيئا حيال الموت الذى تقترب شعلته الحارقة ومناع يسجد يلثم قدمى .. يبكى .. اندلعت شرارة حبه الجارف فى الجموع وشاب يتقدم نحونا من خلال سياج البشر .. ينضم اليه .. يتبعه ثانى وثالث ورابع

وخامس .. وكل منهم تسبقه صيحته :

— سنحترق معك .

نمرود تتملكه هستيريا غريبة .. يقبض بيده على شعلة يقذف بها الى الاخشاب .. ويصرخ :

— ليحترق مع هذا الملعون ندماء لعنته ..

النار تأكل الخشب .. ترتفع السنتها .. والشباب يضمنى .. يقينى صهدها .. فى تلك اللحظــة ومع كل هذا الحب تمنيت الخلاص لنفسى .. لكل هــؤلاء تزقزقت داخلى الأمانى ان تنطفىء النــيران .. وان أكمــل ما بدأته .. انقذ الناس من خيوط العنكبوت الذى يعشش على اقدارهم .. احطم معهم كل الآلهة التى عاشت فى وجدانهم .

بدأت السنة النار تزحف نحونا .. صريعها أحد الشباب وهو يحاول اطفائها .. مناع يستجدى :

— أطفىء النار يا مولاى .

قلت فى جزع ويأس :

— لست الها يا مناع .

— أبدا فأنت هو .. وهو انت !!

مناع يضمنى .. يحيطنى .. يقينى من السنة النار التى احاطتنا من كل جانب .. انه يقتل نفسه .. يصرعها .. صرخت فيه أن يبتعد ازداد التصاقا .. النار تقترب .. بدأت اشعر بلهبها صــوت الحريق يعــوى وانا ازعق :

— أيتها السماء ابكى دما لما فعله المتخلف بالعقل .

احتضنت مناع .. اغمضت عينى .. استرسلت دموعى استسلمت للفح النار .. للموت وهو يزغرد .. مرت لحظات كانها دهر .. أحسست بعدها بقطــرات من الماء فوق وجهى .. فــوق رأسى .. فتحت عينى لأرى مناعا يرتعش .. والســماء تمطـر .. والنار وقــد اخمدتهــا الأمطار .. وصيحات النـاس :

— دموع الاله ارسلها مطرا مدرارا ..

والبشر .. كل البشر .. كل البشر حولى ســجدا ونمرود ورجــال الذين يطلبون منى .. من الهم الرحمة والمغفرة والتوبة !!

***

صدر للمؤلف

● حائط الوهم	مجموعة قصصية
● رجل داخل مثلث	رواية
● الحقيقة الضائعة	رواية
● طربوش الزعيم	مجموعة قصصية
● اثنان فى حجرة مغلقة	رواية
● على جناح طائر جريح	رواية
● بصمات فوق الماء	رواية
● السباق المستحيلة	مجموعة قصصية
● القرد والأسورة	رواية
● مسافة .. فى عقل رجل	رواية

تحت الطبع

● علاء والمصباح

● مسافر الى قلب عذراء

أنا واحد من كتاب القصة العماليق الصعاليك ! !

أعيش فى عصر التعاويذ والملائك والشيطان ٠

ـ فى زمن بات الانس أشياء ماتت فيهم نبضة الأحياء ٠

ـ بدأت رحلتى نحو الحقيقة فى كتابى هـذا منذ ثمان سنوات تحت عنوان « محاكمة الاله » قبل أن أعنونه بـ « مسافة فى عقل رجل » فكنت كفراشة تحوم حول ضوء ٠٠ قتال ٠٠ قتال ٠

ـ الناس تصدق ما أكتب رغم أننا فى عصر الأكاذيب ! !

ـ لن أدعى المعجزة أو الوحى أو النبوة بما خط قلمى لأن عصرى ليس عصر الأنبياء ٠

ـ لكنها صرخة يدونها التاريخ لى أشهدها على الخليقة ٠

ـ أنه فى عصر التماليـك والمحاذير أطلق كاتب صرخة قبـل ميلادها بمائة عام وربما أكثر ! ! يمزق بها عن الحقيقة سربال الخرافة لتظهر أمام الأعين سافرة بكل دقائقها وأسرارها ٠

ـ أملى بعدها أن تتحطم سفين الأوهام ٠٠ أن تختفى أشباح النهار ٠٠ أن تتساقط الدمى المرتجفة على قارعة الطريق لتفرد مكانا للعماليق الصعـاليك ! !

